



رواية

الانقلاب

ميرفت البلتاجي



ألا تلاقيا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

sa7eralkutub.com

او زيارة موقعنا



لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا



لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

sa7eralkutub.com

او زيارة موقعنا



فهرسة أثناء النشر/ إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية. إدارة الشؤون الفنية

البلتاجي؛ ميرفت

ألا تلاقيا: رواية/ ميرفت البلتاجي. - القاهرة: دار الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع / ط ١ /

القاهرة: ٢٠١٦ م.

٣٣٦ ص؛ ١٤ × ٢٠ سم

تدمك: ٩-٣٦-٢-٦٥٠٢-٩٧٧-٩٧٨

رقم الإيداع: ٢٠١٥/٢٧٢٤٥

دار النشر: دار الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع

عنوان الكتاب: ألا تلاقيا

الكاتب: ميرفت البلتاجي

رقم الطبعة: الأولى

تاريخ الطبع: ٢٠١٦

تصميم الغلاف: هناء محمود

إشراف عام: محمد المصري

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للناشر



ويحذر طبع، أو تصوير، أو ترجمة، أو إعادة تنضيد للكتاب كاملاً أو جزئياً، أو تسجيله على أشرطة كاسيت، أو إدخاله على الكمبيوتر، أو برمجته على أسطوانات ضوئية، إلا بموافقة الناشر الخطية الموثقة

دار الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع

ت: 01149811100 - 02 335864650

dar.elrasm.blklemat

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية

انضموا لجروب ساحر الكتب

sa7eralkutub.com

او زيارة موقعنا



ألا تلاقيا

(مروايتا)

ميرفت البتاجي



2016

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

sa7eralkutub.com

او زيارة موقعنا



كل دخان يخرج من نار...انتظر فقط حتى تهب رياح تشعل
الرمضاء التي ظننتها خامدة...

ثورة ظلت حبيسة صدرها كبركان يغلي أسفل سطحه البارد
لسنوات.. ولكن برميّة نرد واحدة انقلبت الموازين، انفجر
فجأة يلقي بحممه المنصهرة في كل اتجاه أحرقت كل أمل
وليد بالأمان...

المقدمة

تردد صدى صراخه الغاضب بين الجدران وهو يهدر:
- «لن تتجرئي.. سأحوك من على وجه الأرض.. سأدفنك حيّة لو اقتضى الأمر».
اهتزت ثقتها بنفسها أمام تهديده ولكنها ظلت متمسكة بأذنان شجاعتها:
- «أنت وأمثالك الذين ستفرون كالفئران الهاربة من السفينة الغارقة، لقد
ثار الشعب ليتخلص منكم، تهديداتك لا أسمعها إلا كقرقرة طبل خاو.. مجرد
ضجيج لا أكثر».
صدمتها فقهقاته العالية، التي ظلت تعلو بالتدريج.. وضعت يديها على أذنيها
حتى بدأ الكلام مرة أخرى، وقد غمس حروفه بنظرات محتقرة، وكأنها لا
ترقى حتى لمرتبة حشرة أمامه:
- «أيتها المسكينة المثيرة للشفقة.. هل تصدقين فعلاً أن ثورتكم الغبية هذه قد
تسبب في أي خدش لأمثالي؟.. ما لمر ولن تفهموه أبداً أننا لسنا مجرد أشخاص
يملكون سلطة، نحن قوى عظمى، أكبر بكثير من أن يتاح لخيالك الصغير
استيعابه، جذورنا ضاربة في أعماق هذا البلد كالسرطان.. هل سمعت عن
علاج للسرطان؟

أنت وأمثالك من الرّعاع، اعتدتم العيش على بقايا موائدنا.. وبدونها ستموتون جوعاً.. بدوننا لن تجدوا قمامتنا لتقتاتوا منها.

لو تحققت أحلامكم الهزليّة في عالمكم الوهمي، وقضيتم علينا، لن يمر وقت طويل حتى تتوسلوا عودتنا، فقط لتُخرسوا صراخ بطونكم الخاوية، وهذه ليست تُرّهات كما يجول بذهنك القاصر.. بل الحقيقة الوحيدة التي تتعاملون عنها يا حمّلة رايات الثّورة المجيدة، والرّبيع العربي.. كل من دخلوا السّجون بتهم مكّلة بالعار سيخرجون رافعي الرّؤوس، وسيتم استقبالهم استقبال الفاتحين».

هزت رأسها بعينين ترفضان حتى ذرف الدّموع:

- «أنت كاذب.. سيقبض منكم الشعب، كل من قتل، وسرق، ونهب، وتسبب بالأذى لشعب مصر، سيدفع الثّمن.. هذا هو العدل».

ردد بسخرية:

- «العدل؟!.. العدل ألا يتطلع أمثالك خارج البالوعات التي تعيشون فيها.. مصائركم محكومة بأن تتناسلوا وتتوالدوا من بعضكم البعض، وإذا تطلع أحدكم لأعلى لا بد أن يقص عنقه، فكيف يتزاج الأسياد من العبيد؟».

صرخت بهستيرياً:

- «ليس باختيارنا، أنتم من حولتمونا إلى عبيد بطمعكم، وشرهكم اللامحدود للمال، والسلطة، والظلم.. بما لا يكفي لامتلاء كروشكم الكبيرة، التي مهما امتلأت، تصرخ مطالبة بالمزيد.. تكنزون أكثر من حاجاتكم، وكأنكم ستخلّدون للأبد، حتى الأكفان بلا جيوب يا ثروت بيه».

زفر ساخطاً:

- «لأن أهدافكم دائماً ساذجة وبسيطة، طموحاتكم تستقر أسفل أقدامكم،



ستظلون كما أنتم دائماً، تسكنون البالوعات كالحشرات والقوارض، أقصى أحلامكم سقف يظل رؤوسكم، ولقمة جافة تسدون بها جوع بطونكم، وهذا هو الفرق بيننا وبينكم، نحن نسعى لنعيش حياتنا مرات ومرات، وأنتم تعيشونها مرة واحدة».

كان دورها لتسخر منه:

- «مرة واحدة تكفي القانعين يا ثروت بيه، هذا قدر الإنسان، ولا تنس أيضاً أنكم السبب في اهتراء سقف طموحنا الذي تسخر منه.. ألم تقوضوا أساس أطفالنا بتعليم ضامر، ورعاية صحية معدمة؟ ألم تهدموا بمعاولكم الظلمة كل عقل مستنير يحاول انتشالنا من مستنقع الجهل والمرض الذي تصرون على إلقائنا فيه؟ ألم تستيبحوا وتغتصبوا كل أمل لنا في مستقبل نظيف منكم؟».

بحقد أسود من ليلٍ بلا قمر طحن على نواجذه حتى كاد أن يحطمها، هاتفاً بصوت اقشعر له بدنها:

«لذلك سعت خلف رائف لتعيشي مرّتك الواحدة بكل رفاهية يقدمها لك ثراء ابني، وأصله، وحسبه.. أليس كذلك؟».

رفعت رأسها المطرق بابتسامة باهتة، فجأة تجمدت شفتاها حتى عن الابتسام.





1

الماضي هو بداية الحاضر وبذرة المستقبل.. وهو الشرارة الصغيرة التي تنطلق منها الحياة في سباقها الأزلي.

حصاد الخاسر والفائز لا يحدده إلا ما تحمله جعبة كل منهما من حصيلة أفراحه وأحزانه، التي تتراكم أثناء رحلته الطويلة، من نقطة بدايته إلى النهاية.



- «كوكي.. كوكي.. يا إلهي، هل تنامين وأنت واقفة؟».

أفاقت الناعسة تهز رأسها بقوة لتتحرر بعض خصلاتها كستنائية اللون من محبسها الجبري، وأخذت تضغط بأصابعها على عينيها المرهقتين بقوة كي تنفض عنهما الإرهاق والتعب، ثم زفرت بانزعاج:

- «سامحك الله يا رويدا.. لِمَ لا تصيحين في بوق في المرة القادمة ليصبح من المؤكد أن يسمعنا مديرتنا السَّمج؟».

هتفت رويدا بصوت أقل نبرة:

- «أنا آسفة حقًا.. تعرفين أنني دائماً خرقاء ولا أحسن التصرف.. لقد أشفقت عليك من منظرك المرهق.. ما رأيك أن تعودي لبيتك وأنا والفتيات سنغطي على غيابك، وأنا بنفسني سأتولى طاولات خدمتك حتى يتسنى لك الحصول على

قسط وافر من الراحة؟ في الحقيقة مظهرك أصبح رهيباً من كثرة العمل وقلة النوم».

ردت بكبرياء؛ فهي لم تعتد قبول المساعدة من أي مخلوق:

- «شكراً لك.. رغم مظهري الرهيب، كما تقولين، فإنني ما زلت قادرة على الوقوف على قدمي، كما أنني قادرة تماماً على إنهاء حصتي من العمل».

وفجأة انقلبت سحنة رويدا الودودة لتصبح بنبرة غلب عليها الحقد الدفين:

- «كنت أعلم أنك ستردينني خائبة، رغم أن كل غايتي هي مساعدتك فقط.. لست أدري من أين تأتين بكل هذا العناد والرأس اليباس رغم رقة حالك واحتياجك لأي يد تمتد لك بالمساعدة؟ لا تنفذ طاقتك أبداً، وأنت منذ الصباح الباكر تساعدين والديك في تنظيف فندقكم المتهالك، وتُعدين الطعام للمشردين الذين ألقاهم العوز لتأجير بعض غرفه، وبعدها تصحبين أخويك إلى مدارسهم، هذا عدا اضطرارك للذهاب للسوق لشراء لوازمكم، ثم تلحقين بعملك في مصنع التعليب، وبالكد تعودين لبيتك لتغيير ملابسك وتصلين إلى هنا في مناوبة المساء، التي تستمر لما بعد منتصف الليل.. من تخدعين؟.. بعد كل هذا وترفضين مساعدتي يا ناكرة الجميل؟».

حدّقت بمحدثتها عاجزة عن الرد، فكل ما ذكرته صحيح تماماً، ولكنها لم تتخيل أن تختصر تلك الحاقدة يومها المضني بوضع كلمات ساخرة، وفجأة رأت ما أثلج صدرها، فقد كادت رويدا أن تطير.. بل إنها طارت فعلاً عندما دفعته منقذتها التي تأخرت هذه المرة، راقبتها بعينين تقدحان شراً وهي تمسد وركها المتألم:

-«ألم أحذرك من الاقتراب من كروان أيتها الثرثرة عديمة النفع؟ ما شأنك بها.. وما دخلك بشؤونها؟».

وقفت رويدا تحك مقعدتها المتألّمة قائلة بغلّ:

-«اهدئي أيتها الدّجاجة.. صيصك الصّغير في أمان من مخالبي النّهمة.. إنّما كنت أعرض المساعدة فقط».

استمرت حنين بدفعها بقوة حتى كادت تقع مرة أخرى:

-«لِمَ لا تمدّين يدك السّخية بالمساعدة لنفسك وتدعين الخلق للخالق؟.. المائدة رقم خمسة، المكلفة حضرتك بخدمتها، تطلب الشّيك منذ أكثر من عشر دقائق، والسيد ماهر على وشك الانفجار».

انسحبت بسرعة شاحبة الوجه متلفتة حولها؛ خوفًا أن يلمحها صاحب المطعم تتسلل عائدة.

أثارت حركاتها ضحك الفتيات، حتى كروان، رغم شعورها المهلك بالتعب وجدت نفسها تتسلى وتضحك مثلها مثل أي فتاة طبيعية.. تجهمت ملاحظتها تذكر بالمرّ ماضيًا اعتادت وتعايشت معه حتى بات كقرينها..

«هي ليست مجرد فتاة طبيعية تتمتع بحقوق طبيعية كالضحك، وهدر بعض من وقتها الثمين فيما لا يعود عليها ببعض الجنيّات، التي هي في أمس الحاجة إليها أكثر بكثير من تمضية وقت مسلّ مع الفتيات».

تأوهت حنين:

-«يا إلهي، وأنا التي ظننت أنك اقتربت أخيرًا من صفات البشر، وقد خاب فألي، ها قد عاد لوجهك أحزانه المسطرة».

تنهدت كروان:

-«حكم الزّمن يا حنين.. أخبريني لِمَ تأخرتِ؟.. لقد التهمتني كوجبتها الرّئيسية، وكادت تطلب التحلية».

زجرتها حين بغيظ:

-«ولماذا لم توقفها عند حدها؟».

رفعت كتفيها بقلة حيلة:

«لَمْ تهاجمني في البداية.. كانت تعرض المساعدة.. بصراحة.. أُخرجت منها».

«كروان.. ليس الآن.. ماهر يشير إليك.. اذهبي إليه ولي معك حديث طويل فيها بعد يا أنسة محرّجة».

ملأت رثتيها بالهواء، والتفتت ترسم العبوس المعتاد على ملاحظها، تتحرك بخطوات رشيقة ثابتة، دون أن تخفي ضيقها الشديد من ملابسها المحكمة المفروض عليها ارتداؤها مثل باقي زميلاتهما، كزي موحد للعاملات في المطعم.. فقد كان بتنورته القصيرة يكشف عن ساقها الملفوفتين بإغراء غير مقصود، وكانت فتحة القميص المنقوش عليه شعار المطعم تكشف عن مساحة أكبر مما ترغب من صدرها؛ لذلك كانت دائماً ضم الفتحة بيدها لتقليل ما يظهر منها بقدر المستطاع.. تعلقت عيناها بعيني ماهر أثناء اقترابها منه مدركة بغيظ نظراته الوقحة عليها، والأكثر كان إدراكه حاجتها الماسّة للوظيفة، لدفع أقساط المدرسة الخاصة لأخويها الصّغيرين:

-«سيد ماهر؟»

قطعت حبل نظراته الجائعة بصوتها الحاد ممسكة بصينية التقديم كحاجز بين جسدها ووقاحة نظراته.. فرسم ابتسامة باردة قائلاً:

-«آه.. كوكي.. هل أنت بخير؟.. لاحظت أنك...».

قاطعته بالحدة ذاتها:

- «أؤكد لك أنني بخير، وسأنهي عملي دون مساعدة من أيّ مخلوق».

حاول مد يده يلمس ذراعها العاري، فانكشفت بنظرات محذرة:

-«هل ترغب بشيء آخر يا سيد ماهر؟».

أشار لها ملوِّحًا:

-«عودي لعملك يا آنسة».

زفرت بارتياح وهي تولي ساقها للرياح بالابتعاد عن نظراته التي تعريها من

ثيابها في كل مرة بجرأة ووقاحة لا يسعى لإخفائها أبدًا..

طوال الطريق لم تكف حين عن الضحك المتواصل، حتى زجرت كروان

باستياء:

-«لا أدري ما يضحكك.. هل شربت مشروبًا أصفر يسبب لك الدغدغة؟».

ثم أدارت إصبعها على رأسها مُردفة:

- «جعل رأسك تلف وتدور.. وبعد قليل سأجرك ترقصين في الشارع وتصرخين

بعلو صوتك (أنا جدع)».

كفّت حين عن الضحك:

- «لست ظريفة بالمناسبة».

- «ولا أنتِ.. في نفس المناسبة.. عظيم.. لقد هدأت.. هل ستخبريني

الآن؟».

«نعم.. أضحك على ماهر بالطبع... المسكين يكاد لسانه يتدلى كالكلب

وأنتِ، وكأنك قمة جبل جليد».

تسمرت كروان في مكانها:

- «حين.. سبق أن نهيتك عن الحديث في موضوع ماهر هذا».

زفرت حين بتعب من أضناه الحديث في الموضوع نفسه دون طائل:

- «أنتِ حقًا بلهاء.. اذكري لي سببًا واحدًا يجعل فتاة تكاد تخطو أعتاب الثامنة والعشرين، وفي ظروفك، ترفض زوجًا ثريًا كماهر زيدان.. الرجل يكاد يفقد عقله مقابل أن يسمع منك كلمة رضا.. إنها فرصة العمر.. لِمَ لا تتشبتين بها؟!».

زجرت كروان بحنق:

- «الرجل متزوج.. ألا يكفي هذا السبب من وجهة نظرك؟!».

قلبت حين شفيتها:

- «وإن كان.. الرجل له حق الزواج من أربع.. أو ووف كم أنتِ بائدة التفكير».

- «ليس هذا هو العائق الوحيد».

تنهدت حين بانزعاج:

- «عُدنا لقصة أخويك.. ولكن أنتِ دائماً تنسين أو تتناسين أن لهما والدين مسؤولين عنهما.. لا بد أن يقدرا أنكِ أنتِ أيضاً لكِ حياة واحدة، لا بد أن تعيشها، لا أن تدفني نفسك بين أكوام فواتير فندق متداع، ومدرسة خاصة، وولدين لا يكفان عن الطلبات، وفوق هذا وذاك مشاكسان».

صمتت فجأة عندما أدركت تجاوزها، تمتت بعد لحظات وهي تعض شفيتها بندم:

- «كروان.. أنا آسفة.. أنا حقًا أحبك كأختي تمامًا، وأكره ما تفعلينه بنفسك».

أخرجت كروان تنهيدة طويلة قائلة بصوت شارد:

- «لا أحبّه يا حنين.. لا أحب ماهر هذا، حتى إنني أكره نظراته، وعينيه الوقحتين اللتين تتجرآن بوقاحة بمحاولاته السّافرة لتجاوز ملابسني في كل مرة».



تهدلت أكتاف صديقتها بتقرير واقع:

«الرّجل يشتااق لك يا بلهاء.. أمواله ستكون العصا السّحرية التي ستحول كرهك له إلى حب.. ليس مُهمًا أن يكون حبًا رومانسيًا كالذي نقرأ عنه في الرّوايات الرّومانسية.. ولكن حب من ذلك النّوع الآخر، التي تكون مدة صلاحيته أطول عمراً.. حب الحياة يا صديقتي.. فكّري جيّدًا في الأمر.. ولا تُلقني بالألّ لزوجته الأولى.. رجال كثيرون يتزوجون على زوجاتهم هذه الأيام.. لا تفكري فيها، ولا في إخوتك، ولا في أبويك.. لمرة واحدة فقط في حياتك، ضعي نفسك في المقام الأول في الأهمية بعد العالم».

تنهدت كروان مرة أخرى وكأنها تجد صعوبة حتى في التفكير في كلمات صديقتها:

- «ولكنه لا يجب أخوتي».

بشبه صرخة صاحت حنين:

- «اذكري لي شخصًا واحدًا في بلطيم كلها يطيق توأم الشيطان هذا».

هتفت كروان بتحذير:

- «لا تطلقني هذا الوصف عليهما.. حنين أحذرك، أعرف أنهما أشقياء، ولكنهما يعيشان سنّهما الطّبيعيّة، ولأنهما توأمان فهذا يزيد من شقاوتهما ورغبتهما في المشاكسة».

تأوهت حنين:

- «خاصةً معي أنا».

أومات كروان:

- «يجبان التلاعب بك كثيرًا، خاصة عندما لا تستطيعين التفريق بينهما».

«أنت فقط تستطيعين، وبالطبع والداك.. أراهن أيّ مخلوق آخر خارج بيتكما يستطيع.. ألم أقل لك إنهما شيطانان صغيران، خمس سنوات أخرى ويحطمان قلوب كل بنات بلطيم.. خاصة رائد».

- وكيف تعرفين أنه رائد؟

- «أحدهما يفكر كثيرًا قبل أن يتصرف، أنتِ أخبرتني بهذا من قبل، وهو رائد.. أليس كذلك؟».

رقت نظرة كروان وهي تتذكر وجهي أخويها وتنهدت بقوة:

- «لن أتخلي عنهما أبدًا يا حنين، ولا مقابل كل أموال الدنيا.. وأيّ رجل يفكر بالارتباط بي عليه أن يحب رائد ورامي أولاً، ربما أكثر من حبه لي. لقد وصلت لمنعطف منزلي.. تصبحين على خير.. أراك غدًا».

أوقفتها حنين بتردد:

- «انتظري».

التفتت لها باستغراب:

ازداد ارتباكها وهي تنظر بالأرض:

- «حسنًا، والضابط وليد؟.. هل سيكون خارج نطاق أفكارك عن رجل أحلامك، هو يجبك بصدق، ويجب إخوتك أيضًا، لا تُنكري».

تمتت كروان بنظرة ثابتة نفذت لأعماق صديقتها وتنهت بابتسامة:

- «حاجز واحد فقط يقف بيني وبين وليد!!».

ترددت حنين في سؤاها:

- «وما هو؟».

استدارت كروان تسير في طريقها وهي تقول بصوت مرتفع:

- «أنتِ أكثر درايةً مني به.. تصبحين على خير يا صديقتي».

ودعتها صديقتها بابتسامة كسيرة، وأكملت طريقها وصورة تداعب خيالها، بهيئته الضخمة وهيئته التي تنطق من كل حركة من حركاته، وشواربه المهذبة، التي تكاد تفقدها عقلها من فرط وسامته، لمر ينقص سهام «كيوبيد» من هذا العشق سهماً واحداً، رغم أنه يجب صديقتها الوحيدة التي لا تشعر به، أو بغيره، حتى إنه في أحيان كثيرة يرجوها أن تكون رسول غرام بينهما، وكانت توافق فقط لتنعم بقربه بعض الوقت؛ حتى لو كان على حساب نفسها، وهي تتحمل كل طعنة تخترق قلبها العاشق وهو يتغزل في صديقتها الوحيدة.

وصلت العمارة التي تسكن فيها، ألقّت نظرة منهكة على درجات السلم المتهاككة تقريباً، وأخذت نفساً عميقاً استعداداً لصعود عشرة طوابق؛ حيث تسكن في الطابق الأخير..... وضعت مفتاحها في قفل الباب وأدارته بهدوء ودخلت على أطراف أصابعها، الضوء العالي المبهر الذي أضاء فجأة؛ كاد أن يعميها بعد أن اعتادت عيناها الظلام فترة طويلة.. وضعت يديها أمام عينيها لتحميها من الضوء وهي تصيح شاهقة:

- «لماذا فعلت هذا؟».

أتاها صوته الحشن المتهمك:

- «ماذا.. هل ضايقت الضوء يا برنسيسة؟ السماح من سُمُوك، ولكنني أردتُ استقبالك بما يليق بمقامكِ العالي».

ضربت بقدميها في الأرض:

- «ماذا تريد مني يا زاهر في هذا الوقت المتأخر؟».

ازداد اقتراباً منها مترنحاً لتفوح رائحة الخمر الرخيص، لدرجة تكاد تزكم أنفها:

-«وطالما تعرفين أن الوقت متأخر، لماذا تأخرت لهذا الوقت المتأخر؟».

أخرجت زفرة متعبة:

- «كل ليلة هذا التحقيق غير المجدي.. لأخبرك بنفس التفاصيل المعتادة».

انحنى أمامها خابطاً على أذنيه بشبهه صراخ:

- «اسمعي مرة أخرى.. تعلمين أن أخاك مصاب بزهايم مبكر، وينسى بسرعة».

أخرجت زفرة أخرى، وأغمضت عينيها تحاول أن تنتحي بجسدها بعيداً عنه:

- «أخبرتُك أن ماهر لا يتركنا قبل أن ينصرف آخر زبون، وحالي كحال كل

البنات في المطعم.. كروان أيضاً كانت معي أوصلتها على ناصية بيتها».

رفع رأسه ليتأملها بنظرات زائغة:

-«كروان.. اللعنة على كروان، واللعنة على ماهر، وعلى المطعم، وعلى اليوم

الذي تركك فيه والدانا علقه على ظهري؛ لأحمل همك الثقيل إلى ما شاء الله».

سالت دموعها منتحبة مقهورة:

-«والدانا لم يتركاني لك يا زاهر، لقد قُتلا في ثورة الخامس والعشرين من يناير،

عندما كانا يطالبان بأقل حقوقهما، مثلهما مثل الكثير من الشهداء، ولم يتركاني علة على ظهرك، بل تركاني أمانة في عنقك.. أنت أخي الكبير، ولو عرفا لأيّ مصير أسود تركاني، لو يعرفان أن ابنهما الغالي الذي كان كل أملهما في الدنيا يعمل بلطجي مظاهرات، في مظاهرة كالتى راحا ضحيتها، ودفعا من دمهما الطاهر ثمنًا لـ (العيش، والحرية، والعدالة الاجتماعية)؛ لتقلبا في قبريهما».

وقبل أن تعي نواياه، كان ينهال عليها ضربًا بكلتا يديه الشبيهتين بالمطارق الحديدية، حتى سقطت على الأرض، فأكمل ركلاً بقدميه في صدرها وظهرها، غائب الذهن عن صرخاتها، وأنيها؛ فقد كان لا يسمع سوى صوته وهو يصرخ فيها:

-«بل أنتِ هي الواهمة ولا تعرفين أيّ شيء.. أيّ شيء.. ببغاء ترددتين كل ما يلوكة الناس المغبون أمثالك؛ لذلك ستظلين دائماً ممن تدوسهم الأقدام، لا حق لك حتى في أحلامك البسيطة الساذجة.. ولكنني استعملت ذكائي، اخترت الجانب الرّابح الذي سيرفعني فوق كل الأعناق».

رفعت رأسها وهتفت من خلال نشيجها:

- «لا يملك الناس أمثالي إلا الأحلام.. والبلطجية أمثالك يسرقونها، ويحرقونها أمام أعينهم.. انظر لنفسك.. ماذا كنت وكيف أصبحت؟.. هل أنت الطالب المتفوق في كلية العلوم، الأول على دفعته ثلاثة أعوام متتالية.. هل أنت الرّجل التقى العفيف الشّريف كما رباك والدانا على الإيمان والصّلاة والصّوم؟».

رفع يده عاليًا ليصفعها مجددًا صارخًا بصوته المترنح:

-«حقيرة مثلك لا تعظ.. انظري لنفسك، وملابسك يا ربة الصّون والعفاف.. انظري للوقت المتأخر الذي تعودين فيه كل ليلة للبيت مثلك كالعاهرات».

وبكل ما تنن به من ضغوط، وآلام حاملة معها أحلامها المذبوحة، صرخت بصوت مذبوح:

- «ومن أرغمني على العمل؟.. من دفعني لأعري لحمي وللسهر كل يوم لأبواب الفجر.. أليس أنت يا أخي؟.. ألم تكل بلقمتي؟.. ألم ترهن وجودي في بيت والدي بترك الجامعة والعمل لأجد طعاماً يسد جوعي؟.. ألا تمد لي يدك كل ليلة تستحل تعبتي وشقايتي وتنفقه على ملذاتك وعُهرك؟.. لماذا توقفت عن ضربتي؟.. اضرب.. اضرب كما اعتدت أن تفعل عندما لا تجد ما تدافع به عن نفسك.. أم لأن ضربتي لا يعود عليك بأي مال، كما تفعل مع المساكين الذين يسوقهم سوء حظهم في المظاهرات، وأنت تسير جوارهم مرتدياً جلد الحمل فتمتلئ جيوبك بعدد من تقتلهم غافلين عن سوء نواياك تجاههم؟».

جذبها من تلايبها وكور قبضته وهم بضربها مرة أخرى فأغمضت عينها بقوة استعداداً لتلقي ضربة جديدة.. ولكنه فجأة دفعها لتسقط أرضاً وهدر بصوته الجهوري:

- «هاتي ما معك من مال».

مسحت أنفها وفمها المخضبين بالدم، ثم مدت يدها لحقيبتها الملقاة جوارها.. لم ينتظرها؛ فانتشل منها الحقيبة وأخرج كل ما بها على الأرض، ثم التقط الجنيهات الهزيلة وحشرها في جيبه، ثم قذف الحقيبة الفارغة في وجهها وغادر صافقاً الباب خلفه بعنف ارتجت له الجدران، لتساقط بعض أجزاء الجير منها..

تأملت الجدران العارية إلا ما تبقى من مجد زائل.. ثم تلمست بعض من الجير المهال، تلمسته وهو يهترئ كحياتها بين أناملها المرتعشة.. حاولت النهوض

أكثر من مرة، وفي كل مرة تبوء محاولاتها بالفشل؛ آلام رهيبه تئن بها عظامها، لدرجة أن ساورها إحساس أن أحد أضلاعها قد تحطم.. رفعت عينها لصورة والديها تكلل جدار غرفة المعيشة المظلمة إلا من المصباح الموفر الذي ينير المكان بضوئه الشحيح.. وعادت دموعها تسيل كالفيضان تتكئ على أحد مقاعد الأنتريه المتهالكة كحالمها.. وقفت متمائلة تضع ذراعها على صدرها بأنين، تحدق بصورة والديها، تعض على شفيتها بقوة كي لا تترك لنفسها العنان للبكاء بصوت عالٍ.. تساندت على الجدران حتى وصلت لغرفتها. دخلتها وأدارت المفتاح في القفل مرتين ثم تركت جسدها يتهاوى.. تفقد بالتدريج الشعور بأي ألم.. فقد نفذ معينها من هذا الإحساس الذي أصبح ضيفاً مجبورة على استقباله في كل ليلة، وفي كل ليلة لا تغمض فيها جفونها إلا بدعوة صادقة «رَبِّ أمتني إن كان الموتُ راحةً لي».



وقفت كروان تراقب صديقتها بقلق حتى ابتلعها الظلام.. تمت في سريرتها لو عرضت عليها أن تعيش معها ومع أهلها.. ولكنها في كل مرة تمسك لسانها.. لن تنسَ أبداً المرة الأولى التي عرضت فيها هذا العرض عليها، ورغم ما تعانيه حين من أخيها ومعاملته القاسية، ولكن لم يهن عليها تركه وحيداً أبداً... التفتت لتحقق بالمبنى ذي الطابقين المظلم في آخر الطريق.. كم يبدو بخير تحت غطاء الظلام.. من يراه من بعيد يعتقد خاطئاً أنه ما يزال يحمل من عبق الماضي الفخامة التي تبدو عليها تلك المباني القديمة.

أخرجت زفرة ضيق تحت خطاها لقطع ما تبقى من الطريق، تكاد تحلم بفراشها الذي تستلقي عليه كل ليلة دون الشعور متى وكيف سيطر عليها سلطان النوم بسرعة الضوء!!

اقتربت أكثر من البيت ليبدو جلياً حاله المتهاك.. نوافذه بشراعاتها الفاقدة لمعظم ألواحها، وسقفه المتداعي، الذي لن يتحمل شتاءً آخر كالشتاء المنصرم، خاصة وهو يواجه البحر مباشرةً ويتلقى رياحه الغاضبة بصبر دءوب طوال سنوات عمره الكثيرة.. عبأت رثيتها بعدة أنفاس متتالية بهواء نقي مشبع باليود، عندما هبت نسيمات البحر لتنعش أفكارها، ولكن ظل الواقع البائس كما هو..

تمت بضيق وهي تدفع الباب الخشبي الضخم:

- «أنت بحاجة لثروة طائلة أيها العجوز الطيب، ومعها معجزة لتبقيك عدة سنوات أخرى بكرامة».

أغلقت الباب لتتلقى النسيمات الدافئة التي تعبق بها جدران تنخر الرطوبة من صلابتها حتى باتت مصدر تهديد حقيقي، ولكنها ما تزال تذخر بعشر سنوات من الذكريات التي تحوّل كل واقع مؤلم إلى قطعة من ذكرى جميلة.

تمت ألا تكون أمها قد سهرت هذه الليلة بانتظارها أيضاً.. صعدت الدرج العتيق، ثم ابتسمت وهي تسرع خطواتها يلاحقها أنين الخشب القديم بموسيقى معتادة تحت ثقلها.. تنفست بعمق عندما وصلت لأعلى الدرج.. وقفت أمام غرفة والدها تحاول الإنصات، حتى أتاها صوت أمها من خلف الباب:

- «تصبحين على خير يا عزيزتي».

أومات كروان بابتسامة رضا:

- «وأنت بخير يا غاليتي».

دخلت الغرفة المجاورة تطل برأسها، ثم تنهدت بصوت مسموع عندما وقعت عينها على الفوضى المعتادة التي تغمر الغرفة كالفيضان.. تأملت ملائكتها النائمين على فراشيها.

رقت نظراتها وهل تتطلع إليهم.. وكادت تنسحب بهدوء عندما لاحظت ما أثار انتباهها.. استدارت بتهيئة عميقة مغالبة ضحكتها:

- «حسنًا أيها المشاغبان.. تمثيلكما غير متقن هذه المرة.. ولا تحاولا إقناعي أنكما سهرتما بانتظار عودتي.. ابحثا عن حجة أخرى».

هتف رائد بنزق:

- «بالتأكيد ما كشفنا إلا هذا الفاشل رامي، فهو لا يحسن البقاء هادئًا ولو لعدة لحظات».

هتف رامي مدافعًا:

- «أقسم أنني كنت هادئًا تمامًا.. أليس كذلك يا كوكي؟ أخبرينا كيف عرفت أننا لسنا نأمن حقيقةً.. مني.. أم منه؟».

عاد رائد يصيح بوجه متغضن وملامح جادة:

- «منك أنت بالتأكيد.. أخبريه الحقيقة يا كوكي.. أخبريه ولا تتلطفني معه؛ لمر يعد ولدًا صغيرًا».

- «حسنًا، حسنًا.. لمر لا تهدأن كليكما، وتخبراني عن سبب التظاهر بالنوم في البداية؟».

هتف رامي بمرح:

- «ظننا أنك قد تتضايقين لو عرفت أننا لمر ننم بعد.. رائد وأنا بالطبع كنا قلقين لتأخيرك».

أومات بعدم تصديق:

- «فهمت.. والآن هل ارتاح بالكما؟».

أجاب رائد بنزق:

- «ليس تمامًا.. لماذا تتأخرين لهذا الوقت.. أعلم أنك تتأخرين في عملك، ولكن أنت فتاة شابة ولا يجوز أن تتأخري لهذا الوقت المتأخر».
هزت رأسها، وعيناها تلمعان بدموع فخر وهي تتأمل ملامح الصبيين المتطابقة كوجهين لعملة واحدة:

- «سأخني يا عزيزي.. أحيانًا نواجه ليالي مكتظة بالزبائن.. ولكنني أرغب من كليكما ألا تقلقا بشأنني أبدًا لأنني، أولاً، بعشرة رجال، ثانيًا حينين معي ولا تتركني إلا عند المنعطف على أول الطريق.. أي أنني في أمان تام.. ولا داعي لأن تسهرا بانتظاري في المرة القادمة.. اتفقنا؟.. تصبحان على خير».
أغلقت الباب خلفها ثم عادت لتفتحه لتطل برأسها:

-«آه، بالمناسبة.. لقد عرفت من كليكما؛ رائد.. كان جيبك متغضناً وكان فكرك مشغول بأمر مهم، ورامي حبيبي.. النائم لا يتسهم.. والآن هل تكفان عن التشاحن، وتخلدا للنوم.. غداً على حد علمي لا يزال يوماً دراسياً كالمعتاد».

غمغم رامي:

- «ليس معتاداً يا كوكي، أم نسيت أننا بعد الثورة بالكاد نذهب للمدرسة».
اتسعت عيناها قائلة بحزم:

-«عندما تجدان بوابة المدرسة مغلقة، ويمنعونكما من الدخول؛ عودا للبيت.. والآن إلى النوم».

وقبل أن تغلق الباب مرة أخرى هتف رامي:

- «كوكي.. بعد أسبوعين...».

صاح رائد يعنفه:

-«ألم أحذرك أن تذكّرها؟.. يالك من وقح».

ابتسمت قائلة بغُصّة:

-«أنا لم أنسَ كي يذكرني يا رامي.. وكيف أنسى عيد ميلادكما».

زفر رائد بنزقه المعتاد:

-«ذلك الغبي يقصد ألا تزعجي نفسك بإقامة حفل.. نحن لم نعد صغاراً، لقد

بلغنا العاشرة من العمر».

زجرت بمرح زائف:

- «أتظن أنني غير قادرة على الاحتفال بكما أيها الشاب الوسيم؟.. لا تقلق يا

رائد؛ أنا أقتصد من مصروف البيت لأجل هذا اليوم!!».

انتفض الولدان من فراشيها يشنان هجوماً بالعناق عليها، ضمتهما بعينين

دامعتين.. مد رائد يده يمسح دموعها:

- «كوكي.. أنتِ أروع أخت قد يحظى بها أيّ ولد في العالم.. أنا سعيد أنكِ

أختي».

هتف رامي بحبور:

- «وأنا أيضاً».

انهار تماسكها ما إن أغلقت عليها باب غرفتها، ركضت لتفتح شرفتها التي

تطل على البحر وأخذت تعبق أنفاسها بهواء الليل النقي المحمل بالرّذاذ المالح

المتطاير من الأمواج.. لدقائق طويلة ظلت تحتضن نفسها بذراعيها، كتمثال

حجري لا يصدر منها أيّ حركة حتى هدأت انفعالاتها.

ازداد ضم ذراعيها بقوة على صدرها وأغمضت عينيها تستمتع لسيمفونية عزف الأمواج وهي تتدافع بهدوء على الشاطئ، تهمس لرماله بقصائد غزل لا ترويه إلا متسترة بليل مظلم، هادئ لا يفضح أمرها، كأن ذاتها التاعس بين قمم همومها، يبحث عن الرومانسية حتى لو في همسات الأمواج على الرمال. نفضت عن أكتافها لحظات الرومانسية، وسلخت نفسها من ضعفها الوشيك، وانحنت مستسلمة لمسئولياتها دون كلل.

تخلصت من ملابسها دون أي مراعاة لأي عيون قد تتطفل على خصوصيتها، فلا وجود لجيران قد يجرحون عزلتها، أو تخشى فضولهم؛ فمنذ سكنت مع والديها هذا البيت، وأقرب جيران لهم يبعدون عشرات الأميال.. فهذا الشاطئ القصي من بلطيم ليس مطروقا بعد، والفيلا المجاورة لهم لم يشاهدوا مالكة أبداً طوال الأعوام العشرة المنصرمة.. حتى إن أخويها اعتادا القفز من فوق أسوارها المعروشة بكرمة العنب الفيومي، وتناول ما طاب لهما من ثمارها اللذيذة خاصة في فصل الصيف.. أما كما هو الحال الآن في أواخر الشتاء، فلم تنج الحديقة غاراتها الغاشمة، فاعتادا أن يتناولوا فطورهما ببرتقالها الطازج من أشجارها المنتشرة حول أسوارها من الداخل.

عادت من الحمام بعد أن غسلت تعبها بـ«دوش دافئ». أما همومها فلن يغسلها إلا طوفان نوح.. فأني لها به!!

وقفت أمام مرآتها، وأخذت بنعومة تتلمس حنايا جسدها بأصابع مرتعشة، تنهدت بصعوبة تحاول ألا تلتقي بنظراتها المتهممة عبرها.. لا.. ليس أنت أيضاً.. حنين لا تعرف ظروفه في مثلك.. أنت تعرفيني جيداً.. فأنت هي أنا.. تعيشين حياتي وتعانين معاناتي.. ولا حق لك بمقاضاتي.. نعم.. بلغت من عمري الثامنة والعشرين.. ما يزال جسدي فتياً.. ولكن إلى متى؟ عيناى تحيط بهما

هالات سوداء، والتجاعيد تزحف على نضارتها الهالكة أسفل أكوام الفواتير اليومية، ولا حتى الزواج بمهر زيدان سينقذني.. منذ متى كان هذا الشخص الوصولي اللزج، هو القشة تنقذ الغريق من الموت المحتوم!!

استلقت على فراشها، وقد بدأت أطرافها بالتنميل، ودون أن تشعر تسلل النعاس المتأهب بالاستعداد على أطراف أهدابها للقفز فوراً ما إن تستسلم بخضوع. وعلى الفور استغرقت في أحلامها دون أن تفتن لتلك العيون البعيدة المترصدة، والمتطفلة على وحدتها من عمق الظلام المتلذذة به شرفة الفيلا المجاورة!!



استيقظت باكراً على مضايقات التوأم التي أصبحت من طقوسها اليومية، وقد ارتديا ملابس السباحة وأخذتا يحدثنها على النهوض من فراشها لدرجة أنهما جرّاهما جرّاً حتى سقطت أرضاً تنن بتوجع، ثم هربا بأسرع من البرق عندما زجرت بغضب مفتعل وصرخت بتهديد:

-«انتظرا أيها الشقيان ما إن أضع يديّ عليكما لن أترك عظمة واحدة في مكانها، ولن يتبقى منكما ما يصلح لثقالة ورق».

ودون أن تهتم بتغيير منامتها البالية المؤلفة من بنطلون قصير وتيشيرت قطني... غادرت غرفتها ونزلت الدرج قفزاً حتى كادت تصطدم بأماها حاملة صينية الطعام:

- «ماما.. آسفة، أعتذر.. هل أنت بخير؟.. هذان الشقيان سيدفعان الثمن.. أقسم لك».

ابتسمت أمها برضا:

- «وصباح الخير لك أيضاً».

احمرت أذناها من الإحراج حتى أشارت لها أمها بإشارة خفيّة، مع غمزة تواطؤ على باب المطبخ الخلفي، قبّلتها من وجنتيها هاتفة قبل أن تسرع في اللحاق بهما: -«لو أردتِ اللحاق بهما اسلكي الطّريق المختصر».

قبّلتها بقوة مرة أخرى قبل أن تنطلق:

-«أنتِ أجمل أمّ في الوجود».

وبكل ما تملك من طاقة ركضت خلفهما حتى لحقت بهما على الرّمال، ليشتبكوا في عراق ثلاثي، تعالت من خلاله فهقهاتهم مختلطة بصيحات إعلان حرب أخافت طيور الصّباح وهي تحط على الشّاطئ، تلتقط بمناقيرها الملونة ضحايا ثورة أمواج الليل من كائنات صغيرة..

ثم أكملوا لعبهم في البحر يتصارعون مع بعضهم البعض بين أمواجه الهائجة... استمروا باللعب ومحاولة إغراق بعضهم بعضاً، حتى رفع رائد يده بإنهاك لاهت:

-«هذا يكفي؛ لقد تعبت.. سأخرج أحضرك لكما برتقالاتين خروجا كما».

سألته كروان بقلق:

-«هل أنت بخير حبيبي؟».

- «كُفّي عن القلق، فأنا معتمد عليك في إغراق ذلك الفاشل».

راقبته بقلق حتى وصل للشّاطئ.. فاجأها رامي بأمساكه قدميها من أسفل، فسقطت على وجهها في الماء لتبدأ المعركة من جديد... وبعد أن لقنته درسا لن ينساه، توقف عن الضّحك لينتبه كلاهما لأصوات مشاجرة تصلهما من الشّاطئ... التفتا بنفس اللحظة ليشاهدا مشهداً أثار تعجبهما ورعبهما في الوقت نفسه.. رائد بشخصيته الهادئة المجادة غير المحب للعنف، يتعارك مع

رجل ضعف حجمه ووزنه عشر مرات على الأقل، ورغم ذلك لا يبدو عليه الانهزام... لا تدري كروان كيف وصلت إليهما دون أن يتوقف قلبها من الرعب.. الخوف المستيري الذي يسيطر عليها أنها لن تصل في الوقت المناسب لإنقاذ أخيها.. لم تُبالِ بملابسها المبتلة والملتصقة بجسدها كجلد ثانٍ، فعندما وصلت كان رامي قد سبقها وقد اشتبك هو الآخر لينقذ أخاه، فأصبح كلاهما في قبضة العملاق وقد أمسك في كل يد بعنق أحدهما.. ورفعها عن الأرض وهما لا يكفان عن توعده وتهديده بالويلات رغم ترجيح كفة الهزيمة باتجاههما بما لا يعطي أي مجال للشك أنها سيصبحان في خبر كان بعد لحظات فقط... صرخت لاهثة:

-«أيها الضخم.. لمَ لا تقاتل من في مثل حجمك.. أم أنك لا تشعر بالتفوق إلا بضرب الأولاد الصغار؟».

صاح الرجل بصوته الجهوري، وكأن قطعة كبيرة من اللحم متوقفة في حنجرتة:

- «ذلك الشيطان الصغير، تعدى على أملاك السيد».

ازداد غليان الدماء في رأسها، وأصابه الكبيرة تزداد ضغطاً على عنقي أخويها، فاحتقن وجهها والهواء يدخل رئتيها بصعوبة، كانا كدُميتين معلقتين في واجهة عرض زجاجية... فما كان منها إلا أنها استغلت فرصة انشغاله بهز أخويها بقوة، انحنى لتقبض على حفنة من الرمال ونادته:

-«أيها الضخم...».

استدار ناحيتها وقبل أن يدرك نواياها كانت تلقي بالرّمال في عينيه، صرخ كعملاق أرض العجائب وهو يترنح ويلقي بالولدين من علو، ويحك عينيه

صارخاً بألم... هتفت تحت الولدين على الهروب: - «أسرعاً للبيت.. هيا...». وقبل أن تستطيع اللحاق بهما، تمكن من الإمساك بها متوعداً، وقد ازداد غضبه وتحول لثأر شخصي.. استمرت بمحاولات تخلص نفسها حتى انتبه إليها التوأمان فعادا لإنقاذها.. تعلق كل واحد منهما بأحد ذراعيه عضاً وركلاً.. إلى أن توقف الجميع عن الحركة عندما سمعا ذلك الصوت الضعيف الحازم:

- «جابر.. كف عما تفعل، واترك الأولاد وشأنهم...».

انتصب المدعو جابر واقفاً بانتباه، وكأنه آلي تم الضغط على جهاز الرّيموت الخاص به، بينما انتهى الولدان بمساعدة أختها المأخوذة بمراقبة هذا الرّجل الغريب، الذي تبدو عليه آثار التعب والإنهاك.. واضحة كما الندوب التي تخطط ملامحه بلا تحفظ، وكأنه ناجٍ من حادثٍ مأساويٍ كاد أن يودي بحياته.. هتف جابر مدافعاً:

- «سيدي.. لقد حاول ذلك اللص الصغير اختراق أمن الفيلا، وعندما منعته هاجمني مع عصابته الصغيرة هذه».

صاح رائد بان دفاع:

- «لا تنعني باللص أيها الضخم.. لقد كنت أقطف ثلاث برتقالات من شجرتنا، كما اعتدت كل يوم لنا كلها أنا وإخوتي».

سأله الرّجل بهدوء لاهث ومن الواضح محاولاته البقاء واقفاً بصعوبة بالغة:

- «شجرتكم؟.. داخل حدود فيلتي؟».

ردد الثلاثة بصوت واحد:

- «فيلتك؟».

تقدمت كروان نحوه لتدرك أنه يحاول الحفاظ على توازنه بصعوبة:

- «أعتذر سيدي عمّا سببناه من إزعاج.. لكننا لم نعلم أن الفيلا أصبحت مسكونة.. أعني أننا عشنا هنا منذ عشر سنوات، ولم نر لها أيّ مالك؛ لذلك اعتاد أخواي العناية بأشجار الحديقة، ومن هنا تدرك لماذا أطلق عليها رائد شجرتنا.. أوكد لك أنه لو كان يعلم بوجود المالك لاستأذن منك».

امتدت نظرات الرجل لـ «رائد» خلفها يسأله:

- «هل أنت رائد؟».

- «نعم سيدي».

هتف رامي بحبور وكأنه لم يكن في مشاجرة غير متكافئة من عدة لحظات فقط:

- «وأنا رامي، أخوه التوأم».

بابتسامة مرقت كالبرق خلال ملامحه المتألّمة:

- «نعم.. هذا واضح».

شهقت كروان عندما فقد الرجل توازنه منهاراً على ركبتيه في محاولة فشلت بجدارة ليظل متماسكاً للنهاية، وكأن كبرياءه لم يسمح له بالتخاذل أمامهم.. أسرع إلىه تساعده، ولكنه مد ذراعه للأمام ليمنعها من مجرد الاقتراب، وفي نفس اللحظة ظهر رجل هرم يخرج من بوابة الفيلا، يحث الخطى باتجاههم ويجيل فيهم نظراته الغاضبة، ثم صاح بالرجل الضخم بكلمات بالكاد مفهومة من بين أضراسه المطبقة من شدة الغضب:

- «أيها العملاق عديم النفع.. ساعدني هنا».

هتفت كروان بقلق:

- «هل أستطيع...».

قاطعها العجوز دون أن ينظر نحوها: -«نعم.. تستطيعين اصطحاب هؤلاء الصغار والابتعاد عنا... ويكفي ما حصل بسببكم؟».

ثم هتف بعتاب بنبرة أرق:

- «وأنت يا سيدي.. فيم كنت تفكر وأنت تغادر الفراش بهذه الحالة.. هيّا ارفعه معي يا جابر وسأستدعي الطيب فوراً».

وضاعت باقي كلماته مع الهواء والثلاثة يتعدون حتى اختفوا خلف البوابة الحديدية الضخمة..

التفت لأخويها بتنهيذة كبيرة:

-«يبدو أننا أصبح لدينا جيران يا شباب.. وكما ترون، صحبة غير ودودة».

هتف رامي بتأثر:

-«ولكن هذا الذي يدعونه بالسيد.. يبدو طيباً... ومريضاً جداً».

حدّقت بالفيلا التي تبدو كحالتها القديم، فلم يتأثر مظهرها المهجور بسكانها الجدد.

شاردة تعتصر ذاكرتها:

- «نعم.. ويبدو مألوفاً أيضاً».

ثم أردفت بنفحة ثقة محاولة إخراج أخويها من شرودهما:

- ولكنني لا أذكر أنني تعرفت على رجل يدعونه بالسيد وبصحبته حراسة خاصة، هل من الممكن أن يكون مديعاً أو ممثلاً؟».

هتف رامي:

-«ولمّ سيأتي المذيع والممثل هنا يا ذكّية؟، ربما كان من رجال المافيا وحصل

له حادث من عصابة منافسة، ف جاء هنا ليختبئ منهم حتى يتمالك قواه مرة أخرى».

صاحت باستياء:

- «رامي.. أنت تشاهد الكثير من الأفلام الهابطة».

التفتت نحو رائد الصّامت:

-«وأنت رائد.. ما رأيك؟».

أشاح بوجهه باتجاه منزلهم قائلاً باقتضاب:

-«رأيي أننا تأخرنا على المدرسة، لنرجع فوراً».

شهقت كروان متذكرة مواعيدها، ومهامها اليومية المتراكمة.. ركضت تلحق بأخويها وهي تحاول أن تنفض عن رأسها صدمة وجود ذلك الجار الجديد مستغربة من نفسها سر تأثرها الشديد به.. ربما لمظهره القوي، الذي لا يبدو معتاداً على الخضوع للمرض رغم هزيمته السّاحقة تحت سنابكه المتوحشة.. أو ربما للغموض المحيط به، والذي قد يثير فضول أيّ شخص آخر.. أم لأنها سريعة التأثير خاصة لمن هم بحاجة لمساعدة لا يطلبونها، ولا يسعون إليها.

على عجل ألقى الولدان التحية على والديهما، وهما يتناولان طعام الإفطار في الشرفة المواجهة للبحر، ثم أكملوا صاعدين بسرعة البرق.. جلست كروان بتنهيدة تراقبهم حتى اختفيا في العلية:

-«هل رأيتما ما حدث؟».

أوماً كلاهما ثم هتف والدها:

-«كنت على وشك التدخل لإنقاذكم. ولكن أمك ساعها الله...».

وجّه لزوجته نظرة ممتعضة فضحكت ساخرة:

-«نعم وأنا شاهدة، ولكن الروماتيزم الله لا يسامحه وقف حائلاً دون السرعة المطلوبة للموقف».

صاح والدها نزقاً:

-«ماذا تقصدين يا حاجة؟.. أنني أصبحت عجوزاً لا نفع مني... أألم تعترضني طريقي قبل أن أهب متوجهاً لذلك العملاق لأعلمه درساً في الأخلاق لن ينساه مدى حياته؟».

ضربت على صدرها بشهقة مداعبة:

-«حاشا لله يا حاج.. ينقطع لساني قبل أن أنطقها.. ولكن الأعمال بالنيّات يا أبا أولادي».

تنحنحت كروان:

-«صباح الفل يا عصافير الحب».

أكمل والدها غير عابئ بنظرات السخرية من زوجته وابنته:

-«ولكن الحمد لله أن ذلك الرجل تدخل في الوقت المناسب.. من يكون يا كروان؟».

أمسكت كوب الشاي الذي صبته والدتها وأخذت منه رشفة:

-«هذا يكون.. السيد...».

تساءل والدها في صوت واحد:

-«السيد...؟».

-«نعم.. إنه اللقب الذي يطلقانه عليه... وهو مالك الفيلا المجاورة... يبدو أنها سكنت أخيراً».

هممت والدتها بتفهم:

-«إذن، أصبح لكل تلك الجلبة والضوضاء التي سمعناها ليل أمس سبب مفهوم.. ولكن هل أخبرك أنه مالك الفيلا؟.. قد يكون مجرد مستأجر لفترة ما».

هزت كروان رأسها وهي ترشف رشفة أخرى من كوب الشاي وكأنها مستغرقة بتفكير عميق:

-«لا أعتقد.. تصرفات الرجلين اللذين بصحبته يؤكد أنه ليس مجرد مستأجر.. كما أنه يبدو رجلاً مهمماً ليعين حارساً خاصاً على فيلته، بالإضافة إلى أننا لم نبدأ الموسم الصيفي بعد.. آه ذكرتماني.. لا بد أن أصنع شيئاً قبل دخول الصيف.. وإلا لن نرى نزيراً واحداً في هذا الفندق الخرب... وملاحظة مهمة.. نحن بحاجة لخادمة، ولو لنصف الوقت فأنتما بالكاد تعيلان أنفسكما، ولا طاقة لكما بخدمة زبائن الصيف».

ربتت أمها على ساقها قائلة بحنان:

-«العبد في التفكير والرّب في التدبير».

أومات كروان:

-«نعم.. أنتِ على حق.. ربما سأبحث لي عن عمل جديد يدر لنا عائداً أكبر.. مصنع تعليب الأسماك الذي أعمل به بالكاد يكفي مصروفات الولدين... ظننا بعد الثورة أن أصحاب هذه المصانع سيعيدون النظر في مرتباتنا الهزيلة.. ولكن يبدو أنه لا فائدة.. لا بد أن يتحول كل الناس بقدرة قادر لرجال أعمال كي ينعموا بالحياة المستقرة بلا مشاكل».

ضحك والدها:

-«سنضع طلبك هذا في قائمة طلبات الثورة الثانية، لو أمد الله في أعمارنا ثلاثين سنة أخرى».

سايرته ساخرة بمرارة:

-«لا تنس أن يكون في أول القائمة».

- «بالطبع.. حتى كنوع من التجديد.. الثورة الأولى كانت تطالب بالعيش والحرية والعدالة الاجتماعية... ولكن في الثانية سيرتفع سقف الطلبات حتى يصل للطابق العاشر».

مصممت شفيتها:

-«ولكن هذا سيتطلب مصعدًا يا حاج... خاصة مع ركبتك خشنة المفاصل.. سأوافق على الطابق الخامس.. نحن الشعب المصري نرضى بقليله ومن رضى بقليله عاش... أ.. أ.. أتشووووو».

صاحت أمها بعتاب:

-«بالطبع لا بد أن تصابي بالبرد، فأنت كالعادة سبحت بمنامتك في هذا الطقس، وتتناولين إفطارك وأنت مبتلة حتى العظام».

-«سأكون بخير يا ماما... أنتظر فقط حتى ينتهي الولدان من الاستحمام، تعلمين أن الحمام الآخر بحاجة لإصلاح... يا إلهي ما كل هذه الإصلاحات المتراكمة؟».

أمسكت أمها يدها لتوقف ارتعاشها الذي تبرأ منه البرد:

-«توقفي يا كروان.. أنت بالفعل تبذلين ما بوسعك.. حبيبتي اليوم أربع وعشرين ساعة فقط... لا تنالين منها إلا أقل من أربع ساعات راحة.. انظري في المرأة... لقد ذبلت نضارتك، وأنت في ريعان شبابك».

أطرقت رأسها ساهمة:

-«الولدان يكبران واحتياجاتهما في ازدياد.. لن أقف مقيدة بينما يتنامى شعورهما بالنقص بالمقارنة بأقرانهما».

هتف والدها متأثراً:

-«كروان حبيبتى.. لا تدعي إحساسك بالذنب يؤثر على أحكامك، ويجعلك حساسة لأمر لا تحتاج منك لكل هذا...».

حُشرت الكلمة في حلقه، ثم نظر لها بأسى وأكمل بنبرة كسيرة:

- «أنت تؤذين نفسك حبيبتى بدرجة كبيرة.. سوف تندمين فيما بعد.. لا تنظري لي بهذا الشكل وكأنني عجوز خرف.. رغم مظهري، وشيبة شعري، وداء مفاصلي، ما يزال بإمكانني أن أكون ذا فائدة».

قفزت من مكانها تحتضن رأسها بقوة وتقبله:

-«بابا.. أرجوك لا تقل مثل هذا الكلام.. أنت وماما ساعدتاني كثيراً لدرجة أنني سأظل مدينة لكما طوال حياتي... وللأسف ليس في إمكاني أن أرد صنيعكما معي، إلا بأن أكفل لكم الراحة في ربيع عمركم... لا تقلقا بشأني.. سأتدبر أمري كما أفعل دائماً.. أتعلمان.. قد أتزوج وأضرب عصفورين بحجر واحد... من يدري».

اشربت الأعناق عندما ارتج السقف تحت وطأة زوجين من الأقدام الرَّاكضة فهبت واقفة بابتسامة رقيقة:

-«آه يبدو أن الولدان أنهما حمّاهما.. يكاد السقف يتحطم على رؤوسنا.. رغم أنني نبهتها مراراً ولكن...».

دفعتها أمها:

- «هيا أسرعي، واعتني بنفسك حبيبتي، واتركي أمر هذين الشقيين لي، سأقرص أذنيهما ليتعلما الرّكض داخل البيت كراقصات الباليه».

تعاقد حاجباها مزججة بمزاح:

-«ماما.. هل تسخرين مني؟».

أقرت بجديّة:

- «نعم أفعل.. هيا أسرعي قبل أن تصابي بالبرد.. لا تنسي.. كراقصات الباليه».

ضحكت كروان وهي تسير على أطراف أصابعها منسحبة، ثم هزت رأسها مشيحة بنظراتها الحزينة عنهما..

همّت بالذهاب عندما عادت لتضم كليهما لأحضانها وهي تهمس بدموع تأثر:

- «أحبكما كثيراً، الله لا يحرمني منكما».

بعد حمّام ساخن استجمعت شتات نفسها حتى إن شعورها أصبح أفضل بعد ارتدائها ثياباً جافّة.. قد لا تكون أنيقة وغالية الثمن.. بل على العكس فهي لم ترتد أيّ ملابس جديدة منذ سنوات، وتكتفي بما تجده ملائماً في سوق الثلاثاء للملابس المستعملة.. وذلك حتى توفر ثمن ملابس جديدة للتوأم، حيث تصر دائماً على ألا يرتديا، إلا كل ما هو جديد وغالٍ أيضاً..

ساوت القميص المجعد بيدها، وأغلقت سحاب البنطلون الجينز الحائل لونه من كثرة الاستعمال.. وضعت قدميها الصّغيرتين بسرعة في خف مسطح يكاد يتوسلها الرّحمة والتقاعد المبكر بعد خدمة طويلة شاقة، عندما ناداها رامي:

- «كروان.. أسرعي.. تأخرنا».

«حالا... في الطريق».

مطت شفيتها بامتعاض وهي تضفر شعرها المبتل على عجل.. ثم حملت حقيبتها القماش ومفاتيحها وأسرعت لتلحق بالصبيين.

تنهدت براحة عندما وجدتهما يقفان بانتباه واحترام أمام أمها، كانت توصيهما الوصايا العشر مثل كل يوم.. سحبتهما من كتفيهما تقاطعها باعتذار:

- «ماما.. لقد تأخرنا حقًا، لنؤجل حديث الثلاثاء إلى أيّ يوم آخر».

هتفت أمها بصوت عالٍ ليسمعوها وهم ينطلقون:

-«أنتِ تدلّين هذين الصبيين لدرجة الفساد يا آنسة... إياك أن أسمع شكواكٍ منهما».

كانوا قد وصلوا للمنعطف عندما بدأت خطواتهم تهدأ ليسيروا بشكل معتدل.. تبادلت النظرات المرححة مع رامي... ثم التفتت لرائد وانزعجت من ملاحظه المتجهمه.. سألته:

-«رائد.. حبيبي.. ماذا بك؟».

لم يرد وأصر على صمته حتى بعد إلحاحها.. ثم التفتت لرامي:

- «ماذا به أخيك؟».

رفع كتفيه دون أن يرد أيضًا عندما حدّجه رائد بنظرة قاسية، وكأنه يتوعده لو نطق.. ولكن إن كان شيء في الحياة يعشقه رامي فهو المشاغبة، ومناكدة أخيه التوأم:

- «كوكي.. أنا سأخبرك».

وأخرج لسانه بحركة طفولية لأخيه.

صرخ رائد:

- «رامي.. أقسم لو فعلتها سوف...».

بهدهوء تجاهل رامي تهديد أخيه ونظر لأخته:

«لقد أغضبه تدخلك في المشاجرة هذا الصّباح... حمايتك مفروضة علينا وليس العكس».

وانفلت غضب رائد أخيراً:

- «كما أنّني لست طفلاً صغيراً بانتظار فتاة لتساعدني، خاصة أنت بملابسك المبللة وال...».

اشتعلت عيناه بقوة وكان شعلة غضبه تزداد تأججاً... ولوّح بقبضته بتشوش دون أن يستطيع تفسير، كلماته فأكملت بهدهوء:

- «تقصد.. كانت ملتصقة بجسمي... أليس كذلك؟».

ركعت أرضاً لتصل مستوى رأسه، وأمسكت بوجهه لتجبره على النظر إليها:
- «رائد.. رائد.. انظر لي».

بصعوبة شديدة أطاعها دون أن تهدأ حدة نظراته فتنهدت:

- «هل تغار عليّ؟.. هل هذا هو السّبب؟.. أجني».

صرخ بتأثر لدرجة لمحت دموعه العاصية حبيسة أهدابه الصّغيرة:

- «ألم تلاحظي نظرات الرّجال لك.. يا إلهي لو كنتُ أكبر بعدة سنوات لغرزتُ أصابعي في أعينهم.. ولكن.. أنتِ السّبب في كل هذا، لو لم تتدخلي من البداية ما حدث أي شيء».

تنهدت مرة أخرى وقد شعرت بالرّغبة في البكاء من شدة تأثرها بمدى نضوج أخيها الصّغير:

- « حسنًا رائد... فهمت ما يضايقك... ولكنني لن أعدك بعدم التدخل لو حدث شيء مماثل في المستقبل، حتى يصل طولك لهذا».

ثم أشارت لكتفها وأردفت:

- «سأجلس في مقاعد المشاهدين وأنت تتصارع مع أيّ عملاق يصادفه سوء حظه الاصطدام بك... وحتى يحدث هذا... أعدك أن أكون أكثر حذرًا».

دفع يدها التي كانت تساوي خصلات شعره بحدة:

- «أنتِ تمزحين.. حسنًا إنه خطئي من البداية للدخول معك في محادثة لا يفهمها إلا الرجال... أما البنات فلا يفهمن أيّ شيء».

حدّقت به بذهول وهو يبتعد عنها.. رَبَّتْ رامي على كتفها وهي ما تزال راحة أرضًا تحدّق بأخيها بشرود:

- «لا تتضايقي.. بعد قليل سيندم على كل كلمة تفوه بها».

ثم أمسك بيدها حتى وقفت وأكمل:

- «المشكلة يا كروان أن والدنا عجوز لا يقوى على مجاراتنا في أيّ شيء... لا يلعب معنا كرة القدم، لا يأخذنا معه في رحلات، لا يوجهنا لأيّ شيء... مثل آباء أصدقائنا».

هتفت مدافعة:

- «ولكنني...».

قاطعها:

- «أنت لا تدخرين وسعًا كي لا ينقصنا أيّ شيء... ولكن هناك أشياء لا يستطيع عملها إلا الوالد فقط... وأنتِ...».

غمغمت وهي تغالب دموعها:

- «فتاة... والفتيات لا يحلن محل الأب».

أمسك بيدها يهزها بقوة:

- «كروان.. أرجوك لا تتضايقي من رائد.. عن نفسي أنا أفصلك عن كل آباء

الدنيا... ولكن رائد كما تعلمين غالبًا مزاجه نزق... وأحيانًا ضيق التفكير..

ولكنه يحبك كثيرًا. أقسم لك».

ساوت خصلات شعره الناعمة التي بعثرها هواء الصباح البارد:

- «أعلم يا حبيبي، لا داعي للتأكيد، ولكن الغريب في الأمر أننا لا نستطيع

أن نغير الواقع... أنتما ليس لديكما سوى هذا الأب العجوز... والأخت التي

هي أنا، والتي لا تحسن صنعًا مهما حاولت... ولكن أتعلمان.. يجب أن تتعلما

الاكتفاء بي».

غمغم بحزن:

- «حتى تتزوجي!!».

شهقت مصدومة:

- «ماذا قلت... رامي... لِمَ قلتَ ما قلتَه؟».

أطرق برأسه وقد احمرت أذنيه من الخجل:

- «سمعتك عفوا.. لِمَ أقصد التنصت.. وأنت تتحدثين مع ماما وبابا عن أنك

قد... قد تتزوجين لتحلي مشاكلنا».

غمغمت بتفهم:

- «ورائد سمع أيضًا؟!!!».

هز رأسه بصمت.. كانا قد وصلا لبوابة المدرسة.. ورائد ينتظره ثم أخذ يلوح لها وجرس المدرسة يعلن عن بداية الطّابور.

بادلته التلويح، وعندما التقت بعيني رائد اشتد تلويحها.. ولكن نظرتة الحزينة اخترقت قلبها بسهم مؤلر رغم بُعد المسافة.. وعندما انضم له رامي دخل معه المدرسة متجاهلاً خيبة أملها وذراعها المتهدلة جانبها.

لر تدرٍ كم مر من الوقت وهي واقفة غارقة في بحر متلاطم من الأفكار... إلى أن أفاقت فزعة على زمور سيارة كادت تدهسها.

بالكاد مرت من جوارها والسائق يعلو صوته يخترق أفكارها بسباب وشتائم. بتنهيدة طويلة بدأت يومها، بعد أن ألقّت نظرة أخيرة على بوابة المدرسة المغلقة... توجهت للمصنع على قدميها، فلم يكن يبعد سوى خمسة أميال فقط... ليس لأنها ترغب في تمرين قدميها، ولكن كي توفر أجرة السرفيس، فهي أولى بالقروش التي ستدفعها... والتي زادت كثيراً بعد الثورة... وكان هذه الثورة جاءت مطالبة بتجريد الشعب من جيوبهم بعد أن نفذت أرصدها... لقمة العيش أصبحت شحيحة، وإن وُجدت يعاف الدجاج نبشها... والحرية التي دفع شباب في سن الزهور فاتورتها من أرواحهم السّجينة خلف قضبان الفقر الصّدئة... والعدالة الاجتماعية صارت مجرد شعار، أو وهم يحلم به القادرون على النّوم ليلاً بأمان.

بعد انتهاء مناوبتها في المصنع توجهت للمطعم لتبدأ عملها مبكرة... كانت تأمل أن يضع ماهر في عينيه حصوة ملح ويتركها تغادر مبكرة هذه الليلة.

كان العمل على قدم وساق مثل كل ليلة.. أشار لها من بعيد ماهر على ساعته لتأخرها.. تبرمت وهي تدخل لتبدل ثيابها بسرعة... تعجبت معيدة النّظر

لساعتها... لم تتأخر أبداً.. وفي سرعة قياسية ارتدت ثياب العمل... التقت برويدا بعد خروجها من غرفة تبديل الملابس الضيقة، تستدعي الهواء لتجلي به صدرها بعد دقائق من استنشاق هواء الغرفة المكتمم العطن، المحتبس في الغرفة التي لا يتجدد هواؤها أبداً... جالت رويدا عليها بنظراتها الفاحصة:

- «مرحباً بالجميلة.. أسرعي فالأستاذ ماهر على آخره الليلة».

- «ولماذا.. لقد جئت مبكرة عن موعدى».

ضربت على أسنانها ناصعة البياض بأظافرها الطويلة المطلية قائلة بغمزة ماكرة:

- «ربما لأننا نعاني من نقص في صالة المطعم».

ازدادت حيرة كروان:

- «ومن الغائبة.. خيراً؟!!!».

ضحكت رويدا بشماتة:

- «ليست غائبة.. صديقتك هناك... ولكنه منعها من دخول الصالة كي لا يراها الزبائن بهذا المنظر، فيفرون رعباً بدون دفع الحساب».

التفتت بحدة تنظر باتجاه المطبخ، دون أن تفهم شيئاً!!

كانت حينئذ هناك تعمل بسرعة كما هي عاداتها وإن كان الفولت عالياً اليوم، كانت تتحرك كآلة موضوعة على أعلى سرعة.. تساءلت وهي تتجه ناحيتها عن سبب وجودها بالمطبخ ومكانها الطبيعي خدمة الموائد بالصالة.. أمسكت ذراعها:

- «حين...»!!

شهقت عندما التفتت لتصعق من الكدمات التي تغطي وجهها، وإحداها حولت عينيها لكرة منتفخة.. هذا غير السحجات والجروح بذراعيها...
تمتت بغيظ مكبوت:

- «زاهر مرة أخرى؟».

أشاحت حين بوجهها، فأمسكتها كروان بحدة وانفعال:

- «إلى متى؟».

تمتت حين بصوت مبحوح متألم:

- «اتركيني يا كروان».

- «كلا.. لن يحدث... لا بد أن نوقفه عند حده. لن أتركك ليقتلك في المرة القادمة، لماذا لم تعلمي له محضراً؟ لماذا تركته ينفذ بفعلة مرة أخرى؟».

سالت دموع حين، فأدركت كروان ما يدور في رأس صديقتها، ويمنعها من فعل أي شيء ضد زاهر:

- «لأن وليد هو مأمور القسم... أليس كذلك؟».

ثم تنهدت مرة أخرى عندما شهقت حين:

- «نعم بالطبع هو السبب ما غيره... أعلم... أعلم أنك صديقتي يا حين، وأحد أسباب ابتعادي عن وليد أنني أعلم بمشاعرك تجاهه».

- «إذن تعرفين أنني لن أذهب وأحرر محضراً ضد أخي وأعرض نفسي للوقوف أمامه بمنظري هذا... ليحولني للطبيب الشرعي، وأتحول من صديقة الفتاة التي يحبها، والتي تأمل يوماً ربما... ربما لو قررت الدنيا أن تبتمس لها من باب التغيير ويكون من نصيبي.. ثم أجدني أصبحت مجرد رقم محض في إحدى القضايا التي يعمل عليها حضرة الضابط».

احتضنتها كروان بقوة حتى انتفضت كلتاهما للصوت الساخر خلفهما:

- «ما شاء الله... ما رأيكما أنّ أحول المطعم لقاعة سينما، سأكسب ثروة، فالمشاهد العاطفية تترك أثرها لدى الجمهور، أكثر بكثير من وجبة دسمة».

التفتت له كروان تحدّجه بنظرات قاسية غير عابئة بغضبه وكزّت على أسنانها وهي تقرر لا تطلب:

- «لر يحدث شيء يا أستاذ ماهر.. سأقوم بعمل عملي وعمل حنين.. اتركها تعود لبيتها لترتاح دون أن تخصم اليوم من راتبها».

حك فكاهه وكأنه يفكر:

- «وما المقابل؟».

زفرت بحدة من بين أسنانها:

- «أخبرتكم.. سأقوم بعملها وعملي».

أمسكت حنين بذراعها ترجوها:

- «لا داعي يا كروان... أستطيع أن...».

دفعتها كروان:

- «اسكتي أنت... ماذا قلت يا أستاذ ماهر؟».

قلب شفثيه بلامبالاة ثم أجابها بريق ما كر في عينيه:

- «أوك... ولكن تذكرني أنك تدينين لي بخدمة».

التفتت لصديقتها بعد أن حدثت رب عملها بنظرة مشمئزة:

- «هيا حنين اخلي عنك هذه الثياب وعودي للبيت... ولا تعودي إلا وأنت بخير».

«ولكن...».

«بدون لكن... هيا أسرعي».

وانتظرت حتى ذهبت حنين وتجاهلت نظرات ماهر السّاخرة خلفها، وبدأت عملها المضني..

عند منتصف الليل كانت تجر جر قدميها نحو بيتها بإنهاك اعتادته، ولكنه يقرر كل يوم اختبار قوة تحمّلها.. وأخيراً لاح لها شبح البيت الرّابض في الظلام من بعيد، فبدأت تحلم بفراشها، واللحظة التي ستلقي بجسدها على حاشيته التي أكل الدهر عليها وشرب حتى الثّمالة، فأصبح يرضن عليها حتى بنوم مريح... كانت قد ازدادت اقتراباً عندما تسمرت مكانها، بعد أن رأت تحت ضوء القمر الشّحيح ما أوقف شعر رأسها، وجفف الدّماء في عروقها...



في البداية ظنتها مجرد تخيلات، أو خيالات صوّرها عقلها المنهك، ولكن مع اقترابها المطرد حتى وصلت أمام منزلها، وتأكدت أن الشّبحين الذين رأتهما يتسللان بخفة القروود إلى شرفة الفيلا المجاورة عبر تسلق الأعمدة الخشبية.. لم تكن مجرد خيالات صوّرها لها أنين مفاصلها وقدميها التي فقدت الشّعور بهما منذ وقت طويل.. حاولت الرّكض والنداء بصوت منخفض كي لا توقظ النّيام في الفيلا... ولكنها كانا قد اختفيا داخل الغرفة.

زجرت بحلق وهي تخلع حذاءها، متجاهلة أوجاعها أسرعت بتسلق الأعمدة كما فعلا، وهي مستمرة بالنداء بصوت كمواء القطط... كادت تهوي للأرض بعد أن أوشكت على الوصول عندما تشبثت لاهثة بسور الشّرفة بإحكام، أخذت تلعن كل لحظة فكرت فيها باللحاق بهما وهي تتمنى لو يجدهما الحارس العملاق ويلقنها درسًا قاسيًا... ولكن كانت مجرد أمنيات هوائية حذفتها فورًا بأمنيات مضادة، مثل... أن تصل إليهما قبل فوات الأوان... أو أن تمسكهما بنفسها وتلقنها الدّرس، عادت تنادي بأنين من آلام الجروح في يديها وقدميها المتسلخة... خرج إليها رامي مذهولاً:

- « كروان.. ماذا تفعلين هنا؟ ».

قفزت من السور لتقف أمامه وجذبتة من ذراعه وكل عرق فيها ينتفض من الغليان:

- «ماذا أفعل هنا؟ السؤال الصحيح هو ماذا تفعلان أنتما هنا؟ يا إلهي ماذا أفعل بكما؟.. ماذا لو وجد كما ذلك الحارس؟.. هل تملكان أيّ عقل داخل هذه الأدمغة الفارغة؟».

- «كوكي.. أقسم لك أن الأمر مختلف عما تظنين».

- «لا أريد معرفة أيّ شيء.. ادخل وهات أخاك من الداخل.. هيا قبل أن يفتن لوجودنا أحد من الفيلا».

أطل رائد برأسه ليستوعب الموقف بسرعة.. وقبل أن تبدأ بالهجوم بادرها بنبرة جادة:

- «كروان.. رائع، كنت أبحث عن طريقة لأصل لك، فأنت الوحيدة التي تستطيعين مساعدتنا هنا».

ضربت الأرض بقدميها:

- «حتى أنت يا رائد، وأنا التي ظننتك العاقل...».

دفعها رامي بنفاد صبر:

- «كفي عن الثثرة وانظري بنفسك».

وقبل أن تعترض من جديد وجدت نفسها داخل الغرفة.

تسمرت تكتم شهقتها من مشهد السيد صاحب الفيلا مسجى على الأرض فاقدًا للوعي.

نظرت إلى أخويها شاحبة باتهام:

- «هل أنتما السبب..؟».



هز الولدان رأسيهما بالنفي وهتف رائد:

- «هذا ما... ما دفعنا للقفز عبر الشرفة، لقد رأيناه من نافذتنا يترنح ثم يقع أرضاً.. انتظرنا بعض الوقت ولكن لمر يشعر به أحد... يا له من مسكين».

هتفت بعتاب:

- «فقررتما تمثيل دور ملائكة الرحمة».

صاح رامي:

- «هل ستستطيعين مساعدته.. نعم أم لا؟».

ركعت أمامه تحاول السيطرة على دقائق قلبها التي دخلت في ماراثون غريب.. ارتاحت عندما تأكدت من وجود نبض، ثم تأملت ملامحه القوية الحادة وأخذت أناملها تتلمس بشرته السمراء كلوحة سير يالية من الندوب في طور الالتئام.. تنهدت بقوة وهي تمسك بذراعيه:

- «هيا ساعداني.. أمسكا بقدميه».

وبعد القليل من المعاناة تمكنوا من تمديده على فراشه..

هتفت لاهثة:

- «رامي.. ناولني قنينة العطر».

انهمكت بتدليك جبهته، وأنفه بصبر وإحساس غريب، مألوف إلى حد كبير، ينمو داخلها كملاح هذا الشخص شبه المحطم:

- «كروان.. إنه يفيق».

ولثوانٍ تسمرت يدها على وجنته وعيناه تغوصان بعمق عينيها، ودار حوار طويل... طويل، كأنه بدأ منذ خلقت حواء من ضلع آدم، ولم ينته.



انتبهت للكزة رائد في خصرها، رفعت يدها بسرعة كمن مسّتها الكهرباء باعتذار:
- «آسفة... هل أنت بخير الآن؟».

تلّفت حوله كالمذهول يتأمل الولدين، وكأنه يتذكر أين وقعت عيناه عليهما
من قبل... ثم استدرك بتأوّه:
- «آه.. تذكرت.. أنتما مرة أخرى!!».

هتفت بدفاع:

- «أرجوك لا تغضب من تصرفهما... لقد شاهدك تسقط مغشياً عليك...
فقررنا التصرف بعنترية في محاولة لإنقاذك».
همهم بابتسامة منهكة:

- «فاقتحما الفيلا.. مرة أخرى... وأنت أيضاً!!».

هتفت بدفاع يائس:

- «أقسم لك أنهما لم يقصدا أي ضرر... وأنا لحقت بهما لأتأكد أنهما لن يقعا
بين يدي كنج كونج».
ردد بدهشة:

- «كنج كونج... أهذا وصفك لجابر حارسي الخاص؟».

قهقهه بإنهاك حتى وقعت عيناه على الجروح في يديها:

- «يبدو أنك أذيت نفسك... وهذا يعني أنكم لم تدخلوا من الباب».

هتف رامي بإحراج:

- «خشينا أن تكون في خطر، وذلك الغول الذي تضعه على بابك بالأسفل لن
يصدقنا».



أوماً الرَّجُل:

- «لا بأس، حسنًا فعلتم... أشكركم على مبادرتكم لإنقاذي».

رد رائد بنبرته الجادة:

- «فقط نرجو أن تكون قد أصبحت بخير سيدي».

- «الفضل بعد الله تعالى لكما، ولأكما الشجاعة».

ضج رامي بالضحك:

- «أمنًا... هل سمعت يا رائد؟.. يقول أمنًا».

ضاقت عينا الرجل مجيلاً النظرات بين الولدين الضاحكين والفتاة المحمّرة
بخجل حتى أذنيها:

-«عفوًا هل أخطأت؟».

أجاب رامي:

- «نعم، هذه تكون أختنا كروان... وأنا رامي وهذا توأمي رائد».

ظهر عليه عدم التصديق ثم هتف:

- «عفوًا.. ولكن انطباعي عنك في الصّباح وأنت تدافعين عنهما، والآن تهيين

خلفهما متسلقة الشّرفة.. اعتقدت بسهولة أنك...!!».

احمّرت وجنتاها مُطرقة بإحراج:

- «لا داعي للاعتذار... سنتركك لتتعم بعض الرّاحة.. هيّا بنا أيها الشقيان».

هم الثلاثة بالتحرك، عندما توقف رامي مشيرًا لصورة سيدة ومعها طفلة صغيرة

بجوار فراشه:

- «هل هذه زوجتك وابنتك؟».

داهمها إحساس ثقيل وكأن جداراً من الهموم انهار فجأة ليقوّض اللحظات التي
سمح فيها لنفسه أن ينسى... فانتهرت رامى بحدة:

- «يا لك من فضولي مزعج هيا بنا قبل أن...».

أوقفها صوت الرجل العميق:

- «سأجيب رامى.. نعم، هذه نرمين ابنتي.. كان عمرها خمسة أعوام فقط
عندما التقطت هذه الصورة».

سأله رائد بفضفاضة:

- «هل ماتت؟».

رغم أنّ السؤال كان على أطراف لسانها، ولكنها غضبت كثيراً من طريقة
رائد غير المراعية لمشاعر الرجل المكلوم... والذي رد بتنهيدة تمزقت لها نياط
قلبها:

- «كان حادثاً بشعاً أودى بحياتها، وحياة أمها وكاد أن...».

ولم تتمالك كروان نفسها:

- «هل كنت معهم؟».

السؤال لم يكن بحاجة لإجابة، فحطام الرجل الممدد أمامهم كانت خير إجابة،
بالإضافة لنظرة التحسر والفقد التي تسبح فيها عيناه... سأله رامى بهدوء:

- «لهذا السبب أنت هنا؟».

- «نعم رامى.. أردت الابتعاد عن القاهرة وكل ما يذكرني بالماضي... أبحث عن
سلواي بين الهدوء والبحر».

تمتت كروان مغممة بإحراج:

- «وبدلاً من ذلك التقيت بمشاكسين، يقتحمان حديقتك في الصّباح، وغرفتك في المساء».

نجح بأعجوبة في رسم بقايا ابتسامة، ربما كانت تزين شفّيته المذمومتين في الماضي بحبور، وتصرع أجمل النّساء في هواه:

- «قد تكون هذه وجهة نظر جابر، وعم عبد الحميد».

أردف عندما ضاقت عيون الثلاثة باستفهام:

- «عم عبد الحميد.. ذلك العجوز الذي...».

- «نعم.. نعم تذكرته...».

أردف الرّجل:

- «ولكن بالتأكيد هذا ليس رأيي... أنا أرحب برائد، ورامي في أيّ وقت».

سأله رائد متنازلاً عن صمته:

- «ولكن.. ألا يربعاك أحد هنا؟.. لولا أننا رأيناك من النّافذة، لظلت فاقداً الوعي للصباح».

أخرج زفرة بتنهيدة مجهدة:

- «هذا صحيح... جابر لا يدخل الفيلا... وعم عبد الحميد ينام مبكراً، بعد أن يطمئن على إعطائي كل الأدوية».

ولدهشة كروان هتف رائد:

- «لو سمحت لنا أن نطمئن عليك من آن لآخر».

- «آه، بالطبع.. سأترك خبراً لجابر، وعم عبد الحميد أن بإمكانكما زيارتي في أيّ وقت، ثم التفت لكروان:

- «وأنتِ معهم بالطبع...».

كانت ما تزال تنظر لأخويها محاولة فهم سر تعلقهما برجل بالكاد يعرفانه... وهي تعرفهما جيداً ليس من السهولة أن يقبلا بضم أي غريب لحيز صداقتهما الضيق..

كانت تتخبط في حيرتها، عندما اخترق كيانهما صوته الأَجَش وهو يؤكد رغبته في وجودها مع الولدين... اهتزت بعنف، وذلك الصوت، وتلك النبرة يلقيان بها في وادٍ سحيق من الذكريات المؤلمة غير مستوعبة بعد ما يحدث لها وأسبابه؟.. استدارت ببطء، وكأنها تعيد شريطاً سينمائياً قديماً بالأبيض والأسود... في نفس اللحظة التي ألقى رامي فيها بسؤاله البريء:

«سيدي.. لقد عرفت أسماءنا ولم نتعرف بك بعد؟».

قطب ما بين حاجبيه:

- «أحقاً... لقد ظننت أن جابر أخبركما عن هويتي.. على كل حال اسمي هو رائف.. رائف ثروت يزن».

استدار ثلاثتهم نحوها بقلق بعد الشهقة التي خرجت من أعماق حنجرتها، وهي تحملق في الرجل بعينين متسعيتين برعب، تحدق به وكأنه قد نبت له فجأة قرنان، أو تحول للرجل الأخضر.. وسألها رائف في محاولة للنهوض من فراشه، وقد ازداد قلقاً من شحوبها الذي سحب كل نقطة دم من وجهها:

- «هل أنتِ بخير يا آنسة؟».

هرع الولدان إليها يمسان بذراعيها:

- «كروان.. ماذا بك.. تحدثي معنا... كروان؟».

أزاحت عينيها بصعوبة شديدة عن وجه الرجل الذي ما يزال يحدجها

بمزيج من القلق والتساؤل... حاولت صنع مشروع ابتسامة فاشلة أظهرتها
كالهستيرية وهي تحاول إجبار عضلات وجهها لتكون طبيعية، ولكنها تعود
لتعبس متخذة وضع الاستعداد للانخراط في بكاء حاد:

- «أنا بخير... هيا بنا يا أولاد».

واتجهت معها للشرفة فنادها:

- «يا آنسة... من الأفضل أن تستخدمما الدرج في النزول».

ردت بحدة لا مبرر لها دون أن تكلف نفسها عناء النظر بوجهه:

- «لا.. سنغادر بالطريقة التي دخلنا بها.. رائد.. رامي.. هيا بنا».

سبقها الولدان، وقبل أن تحذو حذوها ألقى نظرة أخيرة من فوق كتفها على
الرجل الذي استمر بمراقبتها بنظرات لا تقل حيرة عن نظراتها..

ليلة من الماضي عادت بكل أشواكها وأوجاعها.. لم تغمض أجبانها لحظة...
حتى شروق صباح اليوم التالي، كانت أعصابها مشدودة كأوتار الكمان..
لم تحتمل مزاح الصبيين الصباحي فطردهما من غرفتها عندما حاولا دفعها
للذهاب معها في رحلتها اليومية... صرخت فيهما بغضب لم يتوقعاه فوقفا
يحدقان بها مصدومين.. لم تدّر ما تفعل ولم تستطع احتواءهما وإبلاغهما
أسفها... فصفقت الباب في وجهيهما.. ولأول مرة منذ بدأوا عاداتهم لا
تصاحبهم للسباحة معهم... للمرة الأولى كذلك يذهبان للمدرسة من
دونها..

بعد خروج الولدين سمعت طرقات رصينة على الباب.. تأوّتت بأنين وهي
تركض لتفتح... فوجئت الأم بابتها تلقي بنفسها على صدرها وصوت نشيجها
يكاد تهتز له جدران البيت المخدلة... ربت على رأسها بحنان تهدئها بنبرتها

المطمئنة والتي تهون كل صعاب الدنيا، وهي تتمنى من داخلها ألا تكون المصيبة التي انهارت بسببها هذه المرة ابنتها القويّة الصّامدة فوق طاقتها. رفعت رأسها لتحدث أمها بعينين منتفختين من البكاء، ووجه ممتقع من البكاء طوال الليل:

- «ماما.. هل تعرفين من يكون جارنا مالك الفيلا المهجورة؟ هل تصدقين كيف يمكن أن تكون الدنيا جائرة ظالمة.. هو.. هو يا ماما.. رائف ثروت يزن».

هزت أمها رأسها بدون تصديق:

- «ولكن.. هذا مستحيل.. كنتِ ستعرفينه... كيف أمكنك ألا تفعلي؟». مسحت دموعها بدون طائل، قائلة بعينين متسعيتين من الصدمة التي لمر تفق منها بعد:

«ليس من شكله... لقد اختلف تمامًا عن الرجل الوسيم الجميل الذي عرفته... الندوب التي تخطط ملامحه ولحيته الطويلة الكثّة... ولكن... كذبت إحساسي واتهمته بالجنون.. كيف يمكنني أن أتخيل أن الوسيم الثري المدلل يتحول لهذا الشكل... مجرد حطام إنسان».

سألته أمها بتعب وقد بدأت تستوعب المصيبة التي ألمت بابنتها:

- «ولكن.. كيف حدث له كل هذا؟».

- «منذ عدة أشهر قرأت عن الحادث الذي أودى بحياة زوجته وابنته... عندما زرع أحد الإرهابيين قنبلة في سيارته، نكايّة في والده ثروت بيه... سمعت أنه نجا بأعجوبة، ولكنني لمر أتخيل للحظة أنه يمكن أن يتغير لهذه الدرجة... ماما.. هل تعتقدين أن وجوده هنا مجرد صدفة؟».

- «حببتي.. اهدئي.. لقد مرت أعوام طويلة».

تأوهت كروان:

- «لا أدري.. أكاد أُجَنِّ... هل يعرف ثروت بيه عنوان ابنه؟ هل يعرف من

هم جيرانه؟».

شهقت أمها:

- «يا إلهي.. كروان... أهذا يعني وجود خطر على إخوتك؟».

- «لا أعلم.. حقًا لا أعلم. وهذا يزيد من جنوني... لو كان ثروت يعرف

بوجودي.. هل كان سيترك ابنه يقترب مني؟».

- «كروان.. ألم يظهر عليه أي إشارة.. أي شيء يدل على تعرّفه عليك؟».

هزت رأسها بالنفي مردفة بنظرة ساخرة:

- «لا شيء.. تمامًا كما حدث منذ عشر سنوات، عندما نظر لي بعينين فارغتين،

وكأنني مجرد وجه عابر مرّ في حياته لا يعني له أي شيء».

- «هذا غير منطقي.. كيف يمكنه أن ينسى؟!».

- «لا أعرف يا ماما.. لا أعرف... والده أكد لي يومها أنني كنت مجرد نزوة

عابرة في حياته، وهددني إن حاولت ملاحقته».

تركنا القاهرة وجئنا بلطيم بعيدًا عن كل من يعرفنا... كيف أمكنه أن يصل لي

هنا... كيف وهو لا يتذكرني.. إلا إذا كان...

سألتهما والدتها تستحثها:

- «ماذا يدور بالك؟».

امتقع لونها وعيناها تتسعان برعب:

- «أن يكون قد اكتشف السر؟».
- شاركتها أمها القلق بامتقاع:
- «من تقصدين... ثروت أم رائف؟».
- ازدردت لعابها بصعوبة:
- «لو كان ثروت، ما تركنا لحظة واحدة على قيد الحياة؛ فهو رجل داهية، خسيس، منزوعة الرحمة من قلبه.. أما رائف؟».
- هزت الأم رأسها بالنفي:
- «لا يمكن أن يعرف رائف... أنتِ أخبرتِ والده فقط.. ومن المستحيل أن يكون قد أخبر ابنه بعد أن تكبد كل هذا العناء ليمحو أثرك من حياته».
- أردفت أمها بعد زفرة ارتياح:
- «اطمئني.. ربما كل قلقك هذا لا مبرر له، ووجود رائف هنا مجرد صدفة».
- تأوهت كروان:
- «أيعقل أن تكون مجرد صدفة لعينة؟».
- «ربما لا...».
- نظرت لأمها باستغراب شديد:
- «ماذا تقصدين؟».
- «قصدي أنه ربما ما قطعه ثروت بيه منذ عشر سنوات بكل جبروت.. قد يعود للوصال بتدخل من القدر».
- «أتعني أن...».
- «نعم... ربما وجودك بجوار رائف يعيد له ذاكرته... إن كان قد فقدتها بالفعل... وإن كان يدعي... فوجوده يعني...».

أكملت كروان بشرود:

- «أنه يرغب بلقائي.. ولكنني نظرت في عينيه.. لم أر سوى الحيرة والحزن.. في الماضي عندما كنت أنظر بعينه كنت أراني... أسكنهما يظللني برموشه... هذه ليست مبالغة شعراء يا ماما... أنا كنت أرى نفسي حقًا داخل عينيه... ليس كما رأيته في آخر لقاء منذ عشر سنوات... وليس كما الآن».

وقفت تنظر من باب شرفتها المفتوح على هيكل الفيلا الذي لا يبتعد كثيرًا... يمكنها رؤية أي شخص يتحرك داخل الغرفة بسهولة شديدة.. ولكن الغرفة المقابلة لشرفتها خالية... غرفة رائف تقابل غرفة الأولاد.. يمكنهم رصد تحركاته في كل وقت..

لم تسمع صوت خطوات أمها وهي تغادر وتغلق الباب خلفها بهدوء.. كانت الذكريات تنهال عليها من كل حدب وصوب.. بعد أن اعتقدت أنها دفنتها في أعماق بئر سحيق... ولا سبيل لأن تعود للطفو مرة أخرى... ولكن ها هي الصور تتزاحم في عقلها وكأن السنوات العشر الماضية لم تكن.

رأت نفسها صبيّة في مقتبل العمر على أعتاب الثامنة عشرة.. بالكاد أطلقت ضفائرها وتذوقت لأول مرة أحمر الشفاه، لم تحرمها الطبيعة من الجمال في ملاحظها الجذابة، وبشرتها البيضاء الشفافة، والسحر الذي يتسلل من عينيها الخضراء البحرية... بالإضافة لشعرها الكستنائي الطويل الناعم، وقوامها الرشيق رشحها لأن تكون مثار حسد معظم زميلاتهن في المدرسة، لذلك اعتادت أن تصاحب دائماً من هم أكبر منها سنًا، وكانت تتمتع بحرية كبيرة وثقة أكبر من والديها، فقد أنجباها بعد أن تجاوزا سن الأربعين، لذلك عندما وصلت لسن المراهقة وجدت صعوبة كبيرة في مرافقتها مثل كل آباء صديقاتها..

كانت في السنة الأولى من كلية التجارة عندما دعته صديقتها في كلية الحقوق للاحتفال الذي تقيمه الكلية بمناسبة دفعة التخرج الجديدة... وهناك في زحام الحفل الذي يضم أكثر من ثلاثة آلاف مدعو.. رآته... كان مميزاً بين أقرانه، وكان هالة من الجاذبية والوسامة تحيط به في كل تحركاته... لم تصدق عينها... هل أسعدها حظها أخيراً أن تكون معه في مكان واحد... ذلك الشاب الذي شغل كل لحظة تفكير في حياتها منذ وقعت عينها عليه... في أول يوم لها في الجامعة... يومها سخرت من نفسها، لقد كانت تتصرف كمراهقة ثانوية تدخل الجامعة لأول مرة... وها هي تتعلق بشاب تراه للمرة الأولى... حاولت كثيراً تجاهل مشاعرها، خاصة أنها كانت تعيش على كوكب مختلف عن كوكبه... وعندما يئست من محاولات نسيانه رضخت لمشاعرها، واكتفت بحبه عن بعد... وكانت ستكتفي لآخر يوم في عمرها بهذا الحب الأحادي الطرف... ولكن شاء القدر أن يجمع بينهما أخيراً، رغم كل الظروف التي تحتم بقاء كل منهما في الاتجاه المضاد للآخر، تراقبه بشغف على مرمى حجر منها، تتنهد وتستمتع بهذا الاقتراب الذي لم ولن يحدث أبداً فيما بعد، حتى إنها شبّهت ما يحدث بالمعجزة الكونية، عندما يلتقي كوكب عملاق بمذنب صغير في الفضاء، قد يستغرق لقاؤهما ثواني فقط، ولكنه يعدو لقاءً معترفاً به، هكذا أطلقت مسمى «المعجزة» على هذا اللقاء اليتيم من وجهة نظرها.

لم تصدم كثيراً عندما اقتربت منها صديقتها ولاحظت نظراتها المسترقة من خلف كأس البرتقال الذي تتظاهر بارتشافه، ثم همست في أذنها تخبرها عن هويته، ابتلعت بعض العصير لتستطيع استيعاب المعلومة، كانت تظنه كوكباً عملاقاً، ربما حتى خيالاتها لم تستطع التحليق بها لأبعد، حتى اكتشفت أنه

الشمس نفسها، ذلك الكوكب العملاق الذي يهدد بالاحتراق كل من يفقد عقله بما فيه الكفاية ليفكر بالاقتراب.

حاولت الإشاحة بعينيها عن وجهه، بعد أن عرفت اسمه.. حتى الأحلام أصبحت محرمة، اسم «رائف ثروت يزن» هو أكثر من سياسي كبير من الأسياد، الذين يتحكمون بمقدرات البلد في جيوبهم المترهلة، على الأقل الأب، فالابن ما يزال يخطو خطوته الأخيرة في التعليم الجامعي.

انتضت فزعة فأسقطت كأس العصير من يديها عندما سمعت ذلك الصوت يخترق أفكارها، وأحلامها التي حرمتها للتو على نفسها، بل يقترب مهدداً بإحراقها حتى العظام:

- «هل تراقبيني؟».

تراجع بلامح مشمئة عندما تناثر على بنطلونه رذاذ العصير من الكأس المهشمة، شهقت شاحبة:

- «أنا آسفة، حقاً... لا أعرف... أنا...».

رفع يده مهدداً وقد ظنّها على وشك الإصابة بنوبة قلبية:

- لا بأس... أستحق بعضاً مما أصابني، لأنني أفزعتك».

وضعت يديها على وجنتيها تتأكد من احتراقهما:

- «أنت... أنت؟».

ضاقت عيناه يتأملها بمرح:

- «نعم، أنا... لاحظت أنك تنظرين لي منذ فترة.. هل أعرفك؟».

هزت رأسها بقوة تتوسل في سرها لو تأتي صديقتها لتنقذها من هذا الموقف

المخرج، في أقصى طموحاتها لم تتخيل أن تقف وجهًا لوجه تتحدث معه بهذه البساطة، أعاد سؤاله بطريقة أخرى وقد بدا متسليًا بإحراجها:

- «ربما تعرفيني، أنا رائف ثروت».

عادت تهز رأسها بقوة مرة أخرى فتراجع بخطوة ضاحكًا فكاد أن يسبب لها نوبة قلبية حقيقية:

- «أنا متأكد أنني سمعتك تتكلمين منذ لحظات، هل نسيت أن لك لسانًا... بالمناسبة مسموح لك باستخدامه، ولن أعضك لو فعلت، رغم الإغراء اللذيذ».

ضايقها مزاحه وهو يسخر منها، وعندما تأخرت نجدة الإنقاذ حاولت استعادة ثقتها بنفسها، أبعدت يديها عن وجنتيها رغم تأكدها أن احمرارهما لم يخف، ورفعت رأسها تحاول إخراج أي صوت.

أول محاولتين باءتا بالفشل الذريع، فقد خرجت أصوات أشبه بقرقرات الفئران، المحاولة الأخيرة كان لا بأس بها وإن لم تتعرف على صوتها فعلاً:

- «شكرًا رائف بيه على المعلومة، لا أعرف ماذا كنت أفعل لولاك، ظننت للحظة أنني نسيت في البيت».

ضاقت حدقتاه مرة أخرى متسائلًا بدهشة:

- «ما هو؟».

- «لساني بالطبع».

أخذ يقهقه مرة أخرى بقوة أكبر وهو يشير لها بإصبعه:

- «أنت رهيبة حقًا، جيد، تعجبنى الفتاة التي تأخذ بثأرها قبل أن يبرد».

أحاطت حقيبتها المسائية بيديها على صدرها وقد انتفخت أوداجها بإطرائه... تأملها لحظات قبل أن يناديه أصدقاؤه، نظر للخلف ولوّح لهم بذراعه، ثم عاد إليها:

- «هل تسمحين أن نتمشى معًا بالخارج بعيدًا عن هذه الضوضاء».

كادت تتقدم وتمسك بيده وتسلمه كل مقاليدها، عندما أوقفها التعقل الذي ما زالت تحمل بعضًا منه لحسن حظها.

تمسكت بحقيبتها على صدرها بقوة أكبر كأنها تتلمس منها الدعم:

- «لا.. كيف تطلب مني هذا الطلب؟، أنا لا أعرفك».

وضع يديه في جيبه متشدقًا بتعال:

- «كاذبة».

وضعت يدها على فمها لتمنع سيلاً من الاعتراضات عندما لاحظت ابتسامته المتسلية:

- «أنت تسخر مني مرة أخرى».

هز أكتافه بدون أن ينزع يديه من جيبي بنطاله:

- «فتاة جميلة مثلك لا تُخدع بسهولة، أليس كذلك؟ خمس دقائق فقط، أرغب بالتعرف عليك... وحدنا».

لماذا يتكلم بهذا الصوت الرّخيم الرّجولي، لماذا ينظر لها بهاتين العينين وكأنه يرغب في التهامها، لو طلب منها أن تذبح نفسها تحت قدميه في هذه اللحظة لن تتأخر في التنفيذ، هل سحرها فعلاً؟

أخرج إحدى يديه ليمسك بيدها ويوجهها كالمجذوبة للخارج، صوت أخذ يتردد كالصّدى في رأسها يناديها، ولكنها كانت في عالم آخر، تقنات روحها

من بريق عينيه، وحلمها الذي أخذ يقترب وعلى وشك أن يحتويها دون أن يحرقها كما توهمت.

يد خشنة أمسكت بيدها لتفريق من حلمها على صوت صديقتها:

- «كروان.. كروان... أله تسمعيني؟».

- «هل ناديتني؟».

استمرت صديقتها في جذبها بخشونة حتى أبعدتها عنه، ولدهشتها الشديدة وقفت حائلاً بينهما وانفجرت توجه له اتهامات، أخيراً بدأ ذهنها يصفو لتفاجأ بهجوم صديقتها الذي لم يكن موجّهاً لها كما ظنت في البداية:

- «هذه اللعبة السخيفة لا بد أن تتوقف يا رائف، كروان ليست من هذا الصنف من الفتيات».

أعاد وضع يديه في جيبه بنطاله محلّقاً بعينه في الفضاء:

- «أتعلمين، أنت مفسدة للمرح، كنت سأعيد صديقتك قطعة واحدة، أقسم لك بشرفي».

كتفت ذراعيها ساخرة:

- «نعم.. بعد أن تقبض الرهان».

تمتت كروان بصوت مختنق:

- «رهان؟!».

التفتت لها صديقتها:

- «نعم أيتها البلهاء، لقد راهن ابن الذوات أصدقاءه عليك، لو استطاع أن يصطحبك بالخارج ويقبلك في خمس دقائق، سيدفع له أصدقاؤه ثمن...».

حشها على أن تكمل بعينين مغرورقتين بالدموع:

- «أكملي... ثمن ماذا؟».

أطرت رأسها بخجل ثم رفعتها تحدجه باحتقار:

- «ثمن ليلة حمراء مع إحدى بنات الليل».

وضعت يدها على فمها لتكتم شهقة وجع قلبها الذيح... حدجته بنظرة من تسلّم الرّوح، فأشاح بوجهه عنها ممتعضاً متحسراً على فساد تسليته:

قاومت شعورها بالغثيان وهي تهز رأسها قائلة بشجاعة:

- «هل تعلم لماذا كنت أنظر لك من بعيد، لا أجرؤ على الاقتراب منك، هل

تعلم لماذا طاوعتك وجئت معك رغم أنّك لا تعرف اسمي، ولا أيّ شيء عني،

الإجابة على كل هذه الأسئلة كلمة واحدة: لأنني أحبك».

لر تكن مفاجأته أكثر من صديقتها، حدّق بها كلاهما مصدوماً، ثم نظرا

لبعضهما، ثم عادا ينظران إليها ولكنها كانت قد اختفت تماماً، شحب وجهه..

لر يصدق ما يحدث، أعاد شعره الكثيف للوراء بأصابعه، صرخت صديقتها:

- «انظر ماذا فعلت.. سمعت كثيراً عن حقارتك، وهذه المرة الأولى التي...».

أوقفها لاهثاً:

- «اصنعي معروفًا واصمتي.. أعطني عنوانها».

- «مستحيل... عليك أن تعيش مع ذنبك لآخر يوم في عمرك».

لر يؤرقه الموقف، ولا حتى دموعها، كل مشكلته انحصرت في سبب اعترافها

له بالحب، في موقف كهذا أقصى ما تفعله أن تتعد، ربما بعد أن تنقحه كلمتين

يتعلم بعدها أن ينضج، ولكنها بكل براءة اعترفت بحبها له وذابت.

وبعد شهر أو أكثر من المحاولات المضنية في البحث عنها، كاد أن يصاب بالجنون حتى وصل إليها عن طريق صديقتها ليكتشف أنها طالبة في كلية التجارة. وقف أمامها يعترض طريقها ليفاجأ بفتاة أخرى بعينين كالزجاج تنظر له وكأنها لا تعرفه:

- «كروان.. أنا...».

مطت شفيتها بفتور:

- «خيرًا يا رائف بيه، تُرى علامَ كان رهانك اليوم؟».

أطرق رأسه ثم رفعها بسؤاله المورق:

- «لماذا أخبرتني بحبك لي؟».

ردت دون تأخير وهي تحدق بعينه بثبات:

- «لأشفي منك».

شبح ابتسامة قاسية تلاعب شفيتها:

- «لا تتعجب يا رائف بيه، حتى نحن البسطاء لنا طرقنا الخاصة لتدجين

عواطفنا المتمردة، نعتقلها، نعذبها، ونلقيها في أكثر سجن معتم في عقولنا، وحتى

ننجح في هذا علينا إخراجها من صدرنا، الدليل الوحيد على جريمتنا».

أوماً بتفهم:

- «اعترافك بالحب هو الجريمة، اعترفت به لتسجني مشاعرك.. هل نجحت؟».

بثبات مهدد بدموع خائنة:

- «انتهى اللقاء يا رائف بيه».

- «هذا ما يصوره خيالك البريء يا كروان... ولكنني لم أبدأ بعد».

وكان عند وعده، استطاع بعد شهور قليلة أن يحطم كل عائق وضعته في طريقه، وكل سجن أسرت فيه مشاعرها، وكل قيد غلّ أحاسيسها، وأخرج حبه مرة أخرى للنور ليضيء عينيها مرة أخرى ويراها كما كانت في أول مرة.

ويوم إعلان نتيجة الفرقة الأولى وبعد تأكده من نجاحها بتفوق طلب منها أن يقابل والديها.

لم تكن صدمة والديها أقل من صدمتها... حتى رائف نفسه لم يُبَدِ أقل تراجع عندما رأى بعينه ظروف حياتها البسيطة، فوالدها موظف بسيط على المعاش، ووالدتها ربة بيت من الطراز الأول، وشقتها البسيطة في أحد أحياء القاهرة الفقيرة، كانت مثلاً حياً على النظافة ورقة الحال... كل هذا مر على رائف ذي التربية الأرستقراطية، الذي لم يدخل بيتاً في حياته كلها أقل من فيلا بحمام سباحة واحد على الأقل... كان بسيطاً متبسطاً، لدرجة أنه دخل قلب والديها كما فعل مع ابنتهما في وقت سابق... شرط واحد فقط أقلق والديها... أن يكون زواجه بكروان في السر... بإمكانهم أن يدعوا ما شاءوا من مدعوين ولكن لا أحد من طرفه ولا من أصدقائه المشتركين مع كروان... وافقت كروان دون تردد... ولكن والديها اختلفا معها شكلاً وموضوعاً.

كانت ابنتهما الوحيدة التي رُزقا بها بعد سنوات من الحرمان... ولن يقللا من قيمتها بنظر نفسها، ونظر الناس بزواج في السر دون رغبة أهل زوجها. انكسرت أجنحة قلبها الذي رفرf بالسعادة لبعض الوقت، ولم يخلق عالماً عندما أهداها رائف نظرة أخيرة قبل أن يغادر مكسور الخاطر... ولكن بوعد غير منطوق، أنه لن يتخلى عنها أبداً..

حبست نفسها في غرفتها في اعتصام مفتوح، مضربة عن أي طعام أو شراب... استمرت عدة أيام على هذا الحال، لم يرق قلبا والديها المفطوران عليها... وتصاعدت وتيرة الأمور عندما هددت بالانتحار... وخاف والداها أن تنفذ تهديدها وعلى غير ارتياح وافقا على الزواج... لم يصدق رائف الأخبار التي وصلته عبر الهاتف مغمسة بدموعها.

خلال أسبوع واحد أعد بيتهما.. كان أكبر بقليل من أن يسمّى بيتًا... بالنسبة لها على الأقل... كان منزلاً ذا طابق واحد في أحد الأحياء الجديدة في القاهرة... ملحق به حمام سباحة صغير... لن تنسى هذا اليوم في حياتها عندما قبّل يدها مُحَرَجًا:

- «أعدك قريبًا جدًا ستسكنين في قصر.. كما يليق بأميرة قلبي».

وعقد القران في نهاية الأسبوع، واصطحبها ليقضيا أجمل شهرين في حياتهما... مرت الأيام كالحلم الذي نأبى الاستيقاظ منه.

مرغمة استيقظت ذات يوم على أسوأ كابوس لا يمكن تخيُّله... عندما عثر والده عليها، اقتحموا غرفة نومهما في الصّباح الباكر.. قبل أن يستطيع رائف التصرف عاجله أحدهم بضربة على رأسه أفقدته الوعي فورًا... ولم يؤثر بهم صراخها المتواصل، والمقتحمون يجرونها مع زوجها الفاقد الوعي خارج الفيلا لتشاهد جنتها مشتعلة بالنيران... التفتت لزوجها لتجدهم قد اصطحبوه داخل أحد سياراتهم التي انطلقت عائدة في سرعة تتبعها عاصفة من الغبار... كما صارت إليه حياتها... وفي لحظة فقدت كل شيء.. زوجها، بيتها، حياتها الزوجية... احتضنها والداها دون أيّ عتاب أو لوم..

طال انتظارها... في كل يوم من لحظة شروق الشمس وحتى غروبها.. كانت

تنتظره أن يعود... أن يأتي مطالبًا بها هي زوجته... وقريبًا أم ابنه... ولكن طال انتظارها فقررت أن تذهب إليه... لن تتنازل دون معركة عن حبها وزوجها... لا بد أن تقتحم عرين الأسد بنفسه لتطالب بما هو لها..

ابتسمت لسذاجتها في هذا الوقت... فقد تخيلت أنها ستذهب لبيته أو فيلته الأقرب للقصر وستطرق على الباب فيفتحوه لها على مصراعيه مرحبين... وربما يدعوها على فنجان من الشاي... بعد المرور على العديد من الحراسات كانوا خمسة فرق عندما وصلت لمكتب ثروت بيه... فقد أكد لها الجميع أن رائف بيه غير موجود في الوقت الحالي... فقط ثروت بيه من يمكنها رؤيته... كاد عنقها يصاب بالالتواء وهي تحدق في العز والجاه الذي يحيط بها.. وأخذت تسأل نفسها كيف يمكن لأسرة واحدة مكونة من رجلين أن تعيش في كل هذا البذخ، بينما أسر من خمس وست أفراد يعيشون تحت خط الفقر المدقع في غرفة واحدة.. ولم لا؛ فهذا عصر الأسياد والعبيد... الفقراء يزدادون فقرًا.. والأغنياء حدث ولا حرج..

فتح الحارس الأخير في هذه المنظومة الباب:

- «تفضلي يا مدام.. البية بانتظارك».

وقفت مذهولة تحدق في وجه الرجل.. كان الشبه كبيرًا واضحًا، ربما رائف بعد عشرين سنة سيحمل مثل هذه التجعيدات.. ولكن لا... هذه العيون زجاجية براقه لا روح فيها ولا رحمة تتجلي من بين شرورها... أجلى الباشا صوته كما أطلق عليه حارسه وهو يستأذن لها بالدخول لكي ينبها لصمتها:

- «أخبروني أن اسمك...».

- «كروان... كروان مجد العربي».

تراجع الرَّجل المهيب ليستند بظهره على مكتبه الفخم يحك فكه بتفكير عميق:

- «لقد سمعت هذا الاسم من قبل... عفواً فذاكرتي لم تعد بعافيتها كالسابق».

هتفت بهجوم مباغت قبل أن تفقد شجاعتها:

- «أنا زوجة ابنك... رائف... جئت أبحث عنه».

انتفض واقفاً يحدق بها بنظرات محتقرة ساخطة:

- «ياللك من وقحة.. كيف بلغت بك الجرأة والحقارة لتأتي إلى هنا في بيتي بهذا الادعاء الجائر».

دمعت عيناها تتقدم نحوه بتوسل:

- «أنا لا أكذب.. رائف زوجي... اسأله... وأنا عندي ما يثبت».

أطلق الرَّجل ضحكة مرعبة رنانة:

- «يا إلهي.. لقد فعلها الملعون مرة أخرى.. هل تصدقيني لو قلت لك إن هذه

المرة الخامسة في هذا العام فقط، الذي تقترح فيه فتاة بعمر كـ مكتبي لتخبرني

بمثل هذا الخبر... ولمدة أربع سنوات متتالية... يبدو أنني أسأت تربية هذا

الولد حتى أصبح عبثه في شرف الفتيات عادة يصعب عليه التخلص منها».

هزت رأسها بدموع متجمدة:

- «أ... أنت تكذب».

صرخ بصوت غاضب زلزل الأرض من تحت قدميها:

- «هل صدقت حقاً أن رجلاً مثل ابني ينحدر من عائلة لها أصول تركية نسباً،

متجذرين في عالم السياسة، وبانتظاره مستقبل باهر، يقرن نفسه بفتاة من العامة... مثلك؟».

أجابته وهي تخرج بيدين مرتعشتين من حقيبتها ورقة مطوية:
- «رائف تزوجني... وهذا هو عقد الزواج».

لم ينظر للورقة وانتقل لخلف المكتب... فتح أحد الجوارير وأخرج رزمة من الأوراق التي تماثل في هيئتها الورقة التي تحملها في يدها المرتجفة... ثم ألقاها أمامها باحتقار:

- «يوجد في هذه الروزنامة أكثر من درزينة مماثلة للورقة التي تحملينها... كل فتاة تدخل من هذا الباب تسأل بدموع التماسيح عن زوجها رائف... ثم تريني الإثبات، فأمسح دموعها وأجد نفسي مجبراً لأخبرها الحقيقة، وكم هي مخدوعة، فلا تجد غير محفظتي التي تعيد الابتسامة لشفثيها الحزنتين... ولكن لا تقلقي بالتأكد لن أدعك تغادرين هذا المكان إلا وأنت راضية تماماً».

بصوت متقطع ناحب:

- «أتعني... أتعني أن رائف خدعني... وهذا العقد؟».
أوماً ثروت بيه:

- «نعم يا عزيزتي.. مع الأسف لا يساوي قيمة الخبر المكتوب به... تعالي يا عزيزتي وكفكفي دموعك على كتفي.. يا إلهي كم تحمّل هذا الكتف من دموع... وذلك العابث رائف لن أسمح له بأن يغرر بأي فتاة أخرى».

رفضت بحدة أن تصدق تعاطفه الزائف... أو أي كلمة في حق زوجها وحببها.. رائف لا يمكن أن يكون نذلاً وحقيراً لهذه الدرجة... رفعت رأسها بحدة ترفض التخاذل:

- «ثروت بيه... تُرى كيف تعاملت مع الأمور الأخرى؟».

سألها بحذر:

- «أيّ أمور أخرى؟».

- «تلك التي يترتب عليها زواج ابنك الزائف بالفتيات أمثالي».

ضاقت عيناه محاولاً سبر أغوارها مع تعمدتها الغموض لمر يصل لمرفئها:

- «لا أفهم».

عقدت ذراعيها على صدرها:

- «عجباً... هل هذه المرة الأولى التي تثمر فيها علاقة ابنك طفلاً».

لم ترَ في حياتها كائناً متوحشاً خارج حديقة الحيوان.. ولكن في هذا اليوم،

وبالذات في هذه اللحظة القائمة، كان هذا الوصف هو أقل ما توصف به

ملامح هذا الرجل البارد عديم المشاعر... عندما أسودت ملامحه والتمعت

عيناه ببريق مخيف، تكاد تقسم أنها لمحت أنيابه تستطيل من فمه، وهو يجتر

السؤال اجتراراً من حلقة بنبرة أشبه ما تكون بهدير ثور على وشك الانقضاء

على راية الميتادور الحمراء:

- «طفل.. هل قُلتَ طفل؟».

ثم حدّج ببطنها المسطحة بنظرة سوداء وأعاد السؤال:

- «أنت... حامل؟».

شمخت بأنفها:

- «نعم يا ثروت بيه.. أنا حامل بحفيدك».

اعتصرت قبضة يده الورقة التي تمسكها بيدها، ثم دفعها بوحشية لتصطدم

بالباب بعد عدة خطوات مترنحة للخلف... لمر يبال برعها وهو يتقدم نحوها مهدياً:

- «لو كنت تعرفين صالحك جيداً، وتفضلين لو امتد العمر بوالديك العجوزين ليموتا في فراشيهما ميتة طبيعية... لا تذكرى هذا الأمر لأى مخلوق... ولا حتى لنفسك في المرأة... سأعطيك من الأموال ما سيكفيك لتبدئي به حياة جديدة بعيداً عن القاهرة... اذهبي لأى محافظة بعيدة، لا أريد أن أسمع باسمك مرة أخرى... وسأعطيك أيضاً من المال ما يكفي لتتخلصي من هذا العار الذي تحملينه في أحشائك... وأقسم أنني لن أتردد لحظة واحدة لأدفنه حياً أمام عينيك، لو داعب عقلك الصغير مجرد فكرة البقاء عليه حتى يرى نور الحياة..»

تمت بارتعاش كاد أن يوقف قلبها:

- «لو عرف رائف؟».

صرخ بغضب لتنتفض مرة أخرى:

- «أيتها الحمقاء عديمة الفهم.. أنت مجرد نكرة في بحر علاقات رائف».

سحبت نفساً عميقاً لتصرخ بعذاب:

- «أنت تكذب».

زفر باحترق.. ثم ابتعد عنها ليترك مساحة لتجديد الهواء، عاد لمكتبه يعبث بمحتوياته حتى عثر على ضالته... مد لها يده بكارته مزخرف:

- «هل تجيدين القراءة أم أتهجاها لك؟».

تحايلت على الضعف الذي أخذ ينخر قواها ومدت يدها تأخذ الكارته... وقال بينما عيناها تلتهم الكلمات المكتوبة بماء الذهب:

- «هل قرأتِ؟... هذا كارت دعوة زفاف... زفاف رائف على فتاة من أعرق العائلات، نسباً وحسباً و... مالاً».

تراقصت الكلمات وهي تقرأها بصعوبة من خلال دموعها، لتستحيل عليها القراءة بعد أن تأكدت من اسم رائف مكتوباً في خانة العريس. شهقت واضعة يدها على فمها تهز رأسها دون وعي، لا تكاد تصدق ما قرأته بعينها... حوّلتها نظرات ثروت لفأر حبيس مصيدة تحيط به الققط الجائعة من كل جانب..

وضع بيدها ورقة أخرى لمر تستطع تبيان ما فيها ولكنه هتف:

- «هذا شيك... سيكفيك لتبدي بداية جديدة... هيا سأوصلك بنفسك للباب».

دون وعي قبضت بأصابعها على الشيك وهو يدفعها دفعاً باتجاه الباب يرغب في التخلص من أثرها، لتجد نفسها وجهاً لوجه معه... ولم يكن وحده!!

- «آه رائف عزيزي.. هل وصلتما بهذه السرعة.. هل انتقت سوزان الشبكة التي تعجبها».

هتفت الفتاة الشابة بصوت رقيق وهي لا تزال متعلقة بذراع رائف:

- «لا، ليس بعد يا عمي... لمر يعجبني أيّ شيء، اقترحت على رائف أن نسافر الليلة لباريس، هناك الأذواق أجمل بكثير».

كانت تحدّق بالرجل الذي ظلت طوال شهرين كاملين لا تغفو عيناها إلا وهي بين أمان ذراعيه... والآن يقف أمامها وكأنه لا يراها... تبادل مع والده النظرات المستفهمة فبادره والده:

- «هذه فتاة مسكينة جاءت تطلب مساعدة... ظروفها صعبة للغاية... لمر لا تعطيتها شيئاً يا رائف اعتبره صدقة يا بُني».

وضع رائف يده في جيبه وأخرج محفظته:

- «آه، بالطبع».

وأخرج بضع أوراق نقدية قدمها للفتاة المذهولة.. لم تمد يدها لتأخذ المال..

تأفت سوزان عندما طال الصمت بين الثلاثة:

- «حبيبي.. ألن ننتهي أكاد أختنق.. وما بال هذه الفتاة مسمرة وكأنها تحولت

لتمثال.. هل تترفعين عن الإعانة يا أنت.. لِمَ أنتِ هنا إذن؟».

أمسكت النقود تكورها بين يديها وألقته في وجهها غير عابئة بشهقة عروسه

المصدومة، ودفعت رائف بعيداً عنها، انسحب مدهوشاً وهو يحجج كروان

بنظرات حائرة لتصرفها الغريب، ودموعها الغزيرة تحكي بكلمات خرساء

حكاية حب لفظت لتوها آخر أنفاسها، مشاعر الذنب أحاطت به فالتف

إحساس مقبض حول رثتيه، يزيد شعوره بالاختناق.

كيف يمكن أن يكون قد نسيها وكأنه لم يعرفها قط.. هل يمكن أن يدعي

نسيانها بهذا التواضع... حتى لم يمنحها نظرة اعتذار على خداعه لها.



عادت لشاطئها الآمن بعد أن سبحت لأعماق ذكرياتها الأليمة أكثر مما

تحتمل.. شرعت بارتداء ملابسها على عجل... وانطلقت مهرولة تلوم نفسها

على الوقت الذي أضاعته بين أطلالها... حتى لم ترد على نداءات أمها، فأخر

ما ترغب فيه هو مواجهة ذكرياتها مرة أخرى..

انتهت من وردية المصنع، وقبل أن تذهب للمطعم فكرت في المرور على حنين

لتطمئن على أحوالها... خرجت من بوابة المصنع متجاهلة التثرثرة مع رفيقاتها،

فقد كان عقلها مشحوناً بالمتغيرات التي ستطرأ على حياتها.. وأخذت تعدد

القرارات التي ستتخذها، وستعلن عنها في المساء.. ربما سيعترض الولدان، ولكن عندما يدركان أنها تعمل لمصلحتها سيلتزمان الطاعة كعادتهما..

كانت شاردة تمامًا فلم تر السيارة التي اعترضت طريقها، ووقف سائقها ينتظرها، فوجئ باصطدامها بمقدمة سيارته المتوقفة.. شهقت من المفاجأة محدقة بذهول في السيارة التي نبتت من الفراغ تعترض طريقها.. بينما يقترب منها بتأتأة:

- «تؤ.. تؤ... لقد اصطدمت بسيارتي المسكينة».

وتحرك ليلمس المكان الذي اصطدمت به وشهق بمبالغة:

- «انظري.. انظري ماذا فعلت... هذه تعتبر حادثة سير يا آنسة... وسأطالبك بكل التعويضات».

كانت قد بدأت تستعيد أنفاسها المتلاحقة من المفاجأة عندما التفت لترى آخر رجل ترغب برؤيته في هذا التوقيت:

- «وليد بيه!!».

هز رأسه بالنفي وهو يرمقها بنظرات الإعجاب: «لأ... وليد بس... يا كروان».

أخذت نفسًا عميقًا آخر قبل أن تحتد نظراتها وهي تشمله مع سيارته بنظرة انزعاج:

- «حقًا.. هل تقطع علي الطريق يا وليد بيه؟».

ثم تلفتت حولها لتجد أنها أصبحت مثار نظرات المارة وأردفت:

- «أنت تعلم أننا في بلدة صغيرة... وأنت بوقوفك في طريقي ستترك الفرصة للقليل والقال ليلوكوا سمعتي».

خفض رأسه بشعره الأسود اللامع والممشط بعناية... كان وسيماً بحق... وأدركت سبب فتنة حنين به، فهو اختلاف صارخ بين الرجولة التي يمارسها عليها زاهر أخوها، والرجولة التي ينضح بها كل نفس من أنفاس وليد... حتى إنها بمجرد وقوفها في الشارع معه تشعر بالأمان والاحتواء... من نظراته الدافئة والحب العميق الساكن هذه العيون البنية الضيقة... تنهدت وفكرت... ليتها تستطيع فتح قلبها لأي رجل آخر... انتبهت لصوته العاتب:

- «وهل تظنين أنني بهذا الغباء... ويمكن أن أضعك في أي موقف محرج؟»
- «وماذا تسمي تصرفك هذا؟».

« كلمة واحدة منك تنهي جنوني... وأصبح رسمياً خطيبك، بعدها بأيام قليلة زوجك، ويكون لي كل الحق أن أحبسك في برج عالٍ، لا يستطيع أي أحد حتى اختلاس نظرة لرؤيتك... سأحميك من العالم... وستحميني من نفسي لو وافقت؟».

زفرت بانفعال:

- «آسفة يا وليد بيه... ما يزال طلبك مرفوضاً».

تجهّم متراجعاً:

- «لنفس السبب.. أخويك».

أومأت: «نعم».

- «أخبرتكَ ألف مرة، أن أخويك سيكونان بمثابة أبنائي، لن أتخلى عنهما، وسيكونان مسؤوليتي».

هتفت باندفاع هستيري:

- «ولكنهم مسؤوليتي أنا... ولن أتخلى عنها مقابل...».

- «تقصدين مقابلي أنا... لا أستحق بنظرك أن تتنازلي قليلاً عن سقف طموحاتك العالي... أم أنك لا تثقين بالتزامي بكلمتي».

- «وليد بيه.. صدقني... ليس هذا سبب رفضي... هناك أسباب كثيرة، إخوتي أحدها».

أخرج زفرة أخرى متمماً:

- «تقصدين حنين».

أخفت صدمتها وهي تنظر له بتعجب، فأردف بنبرة ساخرة:

- «المسألة لا تحتاج لحسبة بيرما... ولا دخل أيضاً لتحريات الشرطة، أرى تلك النظرة المتهمة في عينيك... لا المسألة ببساطة أنني رجل يحب فتاة لا تبالي بمشاعره... وأشعر بمن هم مثلي... أعلم أن حنين تحبني».

هزت رأسها بأسف:

- «لم يعد لديّ ما يقال... لو كنت آخر رجل في العالم لن أنظر لك إلا بنظرة الأخ الكبير... حنين بمثابة أختي، ولن أطعنها في ظهرها أبداً... ولو سألتني نصيحتي.. هي فتاة جيّدة جداً تستحق أن تعطىها فرصة... وتستحق أن تنقذها من أخيها زاهر... قبل أن يكون لقاؤنا الثاني أمام قبرها».

لوّح بقبضته وقد ازدادت ملامحه عبوساً:

- «ماذا حدث... هل آذاها؟».

- «أنت الضابط يا حضرة الضابط... وتعلم كل ما يحدث في بلدة صغيرة كبلدتنا... ولا أعتقد أن تصرفات زاهر الإجرامية تخفى عنكم... عن إذنك سأذهب لأطمئن عليها... آخر مرة رأيتها لم أتعرف عليها».

كان القلق قد بدأ يتحول لشيء آخر بعيد عن التعقل، وأسوأ المخاوف تتجسد

حيّة في مخيلتها عندما ظلت تطرق على الباب خمس عشرة دقيقة دون مجيب... إلى أن بدأت تسمع أصواتًا خافتة خلف الباب... شعرت بعودة الدماء تدريجيًا لرأسها بعد أن ساورتها أبشع الهواجس.. فُتح الباب لتجد حنين تلقى بنفسها في أحضانها بدموع سخية... ربت على ظهرها بلمسات مترددة... بعد لحظات أدركت كروان أن هناك شيئًا مريبًا يحدث..



دخل عبدالحميد يتفقد رائف ليجده واقفًا في الشرفة.. هز رأسه بأسف وهو يلحق به:

«لو تخبرني فيم وقوفك كل يوم في هذه الشرفة تتطلع على الطريق.. حتى إنك لا تنظر للبحر».

نظر رائف للساعة في يده وتنهى بانزعاج:

- «تأخر الوقت ولم تعد بعد».

تظاهر عبدالحميد بأنه لا يعرف ما يتحدث عنه رب عمله:

- «من تقصد؟.. هل استدعيت ممرضة لتعتني بك وترحمني من الرّكض خلفك بالدواء المر، كما كنت تفعل وأنت صغير بشورت المدرسة».

حدّجه رائف بنظرة ضيقة:

- «كلّ أيها العجوز الفصيح... بل أعني... هي.. كروان».

همهم العجوز:

- «كروان... تقصد تلك الصبيّة التي تسكن في المنزل المجاور».

التفت رائف بحدة:

- «وكيف تعرف؟».

- «سمعت الصبيين يناديان عليها... السؤال هو... كيف تعرفها أنت؟».

سرحت نظرات رائف على الطريق مرة أخرى وبعد لحظات صمت طويلة
تمتم بشروود:

- «لا أعرف... أعني... لا أعرفها بالتأكيد... ومن أين سأعرفها، لقد التقيت
بها أمس فقط».

أوماً عبد الحميد:

- «أنت محق... كيف ستعرفها وأنت لم تلتق بها إلا بالأمس فقط؟ استمع
لنصيحتي ولا تقف بالشرفة بانتظار شخص بالكاد تعرفه وأنت بهذه الحالة».
هتف متجاهلاً نصيحته:

- «انظر... هذان العجوزان يقفان بالشرفة أيضاً... هل محتمل أن يكونا
والديها؟».

استسلم عبد الحميد بعد أن أدرك أنه لا فائدة من محاولة زحزحته من مكانه:

- «فعلاً يبدو عليهما القلق لتأخرها».

«نعم.. ولكن ألا تظنهما عجوزين ليكونا والدي الصبيين التوأم؟».

تساءل عبد الحميد بدهشة:

- «كيف تعرف أنهما والدا الصبيين.. لقد اعتقدت أنهما...».

أوماً رائف بنظرات شاردة على الطريق:

- «لر أحك لك عن مغامرتي ليلة أمس؟».

- «كلا.. لر تفعل».

قلب شفّيته ببرود أمام نظرات عبد الحميد المتسائلة، ولمر يبدُ عليه أنه سيروي فضوله أبدًا..



- «هذا هو يا حاجة... ها هو يقف في الشرفة انظري إليه».
- «رأيتته يا حاج... ولمر أعرفه أيضًا... انظر له كيف يتطلع للطريق، وكأنه بانتظار شخص ما».
- «هل يعقل أن يكون بانتظارها؟».
- «ماذا بك يا حاج عربي؟.. لماذا تخيفني بهذا الحديث... كروان متأكدة أنه لا يتذكرها».
- «ولماذا هو هنا إذن؟... ولماذا يقف في شرفته وهو مريض كما سمعنا؟ لماذا؟».
- «الله أعلم».
- «ربنا يستر يا حاجة».



- «ماذا بك يا حنين؟.. لماذا ترتعشين ووجهك مصفر؟.. هل أنت مريضة؟».
- هتفت حنين بسرعة:
- «لا.. لا، أنا بخير صدقيني... شكرًا لك على الزيارة و...».
- ضاقت عينا كروان بتساؤل:
- «ألن تدعيني للدخول؟.. لقد جئت أطمئن عليك.. و...».
- اختلست حنين نظرة مرتبكة خلفها ثم التفت لكروان تعتصر يديها المتعرقتين في بعضهما قائلة بصوت متقطع وكلمات غير مترابطة:

- «لا، الموضوع أنني...».

ثم اختلست نظرة أخرى للخلف، وعادت لصديقتها تكاد تتوسل بدموعها التي تسيل من عينيها المكدومتين:

- «كروان.. أرجوك سأخبرك كل شيء فيما بعد الآن اذهبي... أرجوك».

وقفت كروان عاجزة عن فهم ما يحدث لصديقتها، وعاجزة عن تلبية طلبها.. لم تكن أبداً في أيّ مرحلة من عمرها مندفعة، خاصة بعد أن علمتها الدنيا وتركت عليها علامة فارقة... ولكنها في هذه اللحظة لم تدّر ما الذي دهاها لتدفع جسد صديقتها بإصرار وتدخل شقتها عنوةً لتقف مصعوقة أمام مشهد لم تتوقعه ولا في أحلامها..



أوقف وليد سيارته أسفل العمارة التي تسكنها حين.. قلبه يدق بجنون.. من خلال زجاج السيارة الأمامي رفع رأسه يتطلع للطابق الأخير.. أدرك أن ساكنة قلبه ما تزال هناك، فهو لا يدق بهذا الجنون إلا عندما يكون على مقربة منها. أمسك كرة الضّغط المطاطية، واستمر بالضغط عليها بأصابعه، بالتناوب بين يده اليمنى واليسرى يفرغ شحناته الزائدة من الانفعال.

رفض كروان له مرة أخرى كان صفة مؤلمة لكبريائه.. ولكن هذه المرة نالت الصّفة من كرامته أيضاً عندما تنازلت عن حبه وعشقه لها، لصديقتها، وكأنه بكل مشاعره الصادقة التي يكنها لها لا يساوي أيّ شيء... أيّ شيء... ضرب المقود بكتتا يديه بعد أن فشلت الكرة المطاطية في عملها، ورغم ذلك لم يشعر بأيّ تحسّن، ظلت النار المتأججة في أعماقه تزداد اشتعالاً حتى أوشكت على إحراق الأخضر واليابس داخله.

فتح باب سيارته عندما أحاطت به أنفاسه الخانقة وفشل في الحصول على أيّ هواء، وضع يديه على سقف السيارة وأخذ عدة أنفاس متتالية.

أضاءت فكرة فجأة كمصباح قوي في غرفة معتمة... وبيبطاء رفع رأسه للطابق الأخير.. وأخذت الفكرة تتشعب بتلايف عقله وتنتشر.. ورغم صعوبتها واحتمال الخسارة الكبير المتوقع ولكن... سيشفي غليله حتماً من تلك المغرورة التي تظن نفسها أفضل من أن تتواضع لحبه... ضرب سقف السيارة مرة أخيرة، وكأنه يختم على قراره، ثم صفق الباب واتجه بخطوات واسعة نحو البوابة، يقفز على الدرجات مثنى ورباع بثقة كبيرة وإصرار لا تراجع بعده..



شهقت كروان وهي تطالع المنظر الغريب أمامها... مجموعة من الشباب يفترشون أرض الصّالة على شكل دائرة، وبينهم زجاجات فارغة وقطع قماش ممزقة على هيئة سيور رفيعة... وفي الزاوية حاويات بلاستيكية كبيرة عرفت فوراً محتواها، فرائحته النفاذة كانت تصل لأنفها «بنزين» شهقت فأثارت انتباه كل الموجودين:

- «مولوتوف..».

قفز زاهر من مكانه قبل أن تستطيع حنين إنقاذ صديقتها، أمسك بذراعها بوحشية يجرها لداخل الشقة وهو يصرخ في أخته:

- «ألم أحذرك أيتها المأفونة عديمة العقل أن ترانا صديقتك».

أخذت تلطم خديها باكية متوسلة:

- «أرجوك يا زاهر.. اتركها تذهب، أتوسل إليك، كانت فقط ترغب بالاطمئنان علي».

اشتدت قبضاته على ذراعها وهو يهزها بوحشية:

- «ألا تعرفين إبعاد أنفك الطويل عن شئونا، أيتها الصديقة الصدوقة، أتعرفين ماذا فعل الفضول بالقطة... لبتك استمعت إليها وغربت عن وجوهنا».

تأوهت حنين وهي تحاول نزع ذراع صديقتها من بين مخالب أخيها:

- «أرجوك اتركها ترحل.. ولن تنطق بكلمة.. أقسم لك».

ضحك بتفكّه وعيناه تنطقان شرًا:

- «أحقًا.. أتركها ترحل هكذا بكل بساطة... لتبلغ عنا، فيزج بي في السجن، ويحلو لك الحياة دون أخيك الوحيد... أليس كذلك؟».

كانت كروان تحاول هي الأخرى التملص من يده المحكمة على معصمها بلا طائل، فهتفت بحنق:

- «أنت على حق، مثلك السجن خسارة فيه، أنت تستحق الإعدام، ما تفعله بأختك، والجرائم التي ترتكبها دون أي وازع من ضمير».

صرخت حنين باكية:

- «لا يا كروان.. أرجوك... زاهر.. اتركها أتوسل إليك... لن تنطق بكلمة... أعدك بشرفي... أخبريه يا كروان.. أخبريه أنك لن تبلغني عنه... أقسمي له بالله أنك لن تفعلها».

لم تعد تشعر بالألم من أصابع زاهر التي تزداد قبضتها وتعتصرها لدرجة الخدر.. الألم الذي أوجعها حقًا، كان لرؤيتها حنين صديقتها الوحيدة... صاحبة الشخصية القوية المحبوبة المرححة... فجأة تحولت للنقيض... شخصية مستسلمة يائسة حزينة على الدوام... لا تملك صفة واحدة من الشخصية الديناميكية التي كانت عليها... وكل هذا بسببه.

ألقت بنظراتها نحو زاهر تبلغه بعينها كم تكرهه وتحتقر كل من هم على شاكلته... قاطع حديثها الصامت صوت قميء من الخلف:

- « زاهر.. هل تواجه مشكلة مع الفتيات... أخبرني يا أخي.. تعلم أن صديقك (شكلمًا) يفوت في الحديد».

بادلها زاهر نظراتها بأخرى أكثر شراسة، أكثر شرًا من تخيلاتهما، وما تزال لا تصدق أنه زاهر الذي عرفته لسنوات... زاهر الرقيق المُجِدِّ، صاحب الطمّوحات التي وصلت للماجستير والدكتوراه.. وجدت نفسها تطرح أفكارها بصوت عالٍ:

- « كيف أصبحت بهذا الشكل؟.. كيف تحولت لهذا المسخ القميء... كيف أصبحت صحبتك هذه الحثالة... أتذكرك أيام الثورة كنت مناضلاً، حاملاً.. كيف تخلّيت عن مبادئك؟ لتكون... ماذا؟! أخبرني عن وصف يصفك كما تشعر بنفسك».

سخر بابتسامة كريهة:

- «أنت أيضًا تتفلسفين.. تظنين نفسك مثلها فوق البشر.. عن أيّ ثورة تتحدثين، وأيّ مبادئ، وأيّ مناضل، وأيّ أحلام.. هل صدّقت أنتِ الأخرى هذه الكذبة التي خُدعنا بها... ثورة... ثورة... يا لها من كلمة رنانة قوية تبعث على التفاؤل... ولكن نتيجتها الحتمية هي... لا شيء... الفراااغ، هوة سحيقة ابتلعت بلا رحمة كل أحلامنا الساذجة، ومعها أرواح أجرمت عندما اعتقدت أن من حقها أملاً.. أمل مجرد أمل بحياة كريهة، بلا إهانة وهوان».

جذب ذراعها المقيد بقبضته بشدة وأدارها ليَجبرها على النظر لصورة والديه على الحائط صارخًا بوحشية:

- «انظري.. انظري إليهما وأخبريهما أن دمهما الذي أهدرَ على الأسفلت كان لصالح قضية عظمى... الوطن... أخبريهما أن دمهما لم يضع هدراً... وأنا حصلنا على كل حقوقنا... حصلنا على الحرية... أصبحنا شعباً حرّاً بكل ما للكلمة من معنى... نفعل ما نريد وقتما نريد... نعترض ونقبل دون أي قيود، والعيش... كانوا يقصدون الخبز.. أليس كذلك؟».

نظر لرفاقه الضاحكين على نكته وعاد ينظر إليها بريق عينيه المخيف مردفاً:

- «ما رأيك بالخبز... يصلح ليتناوله بشر وليس للبهائم... أليس كذلك؟، أم أنهم يقصدون العيشة بكرامة، هل تعيشين بكرامة أيتها المدافعة عن راية الثورة، لا تكذبي على نفسك وأجبي بصدق، وماذا كانت الأخيرة... ذكرني يا شكلاً».

قهقهه شكلاً بصوته المترنح:

- «عدالة جماعية يا ريس».

قهقهه بدوره:

- «اسمها عدالة اجتماعية يا جاهل... كما سمعت شكلاً الجاهل... عدالة اجتماعية، لقد تساوت الرؤوس، أصبح الوزير والغفير سواسية أمام القانون، عندما يقفان معاً أمام القضاء العادل، يحصل الفقير على حقه المغتصب من صاحب النفوذ، انظري حولك لتعرفي أن كل أهداف الثورة التي ضحى والداي من أجلها تحققت... انظري».

هزت رأسها ترفض تصديق ما يقول:

- «على مر التاريخ لم تنجح ثورة دون ضحايا... أو إصرار وعزيمة... لن نستحق جني ثمارها إن لم نتعب ونبدل من دماننا، وأرواحنا في سبيلها».

- «هل تصدقين نفسك حقًا؟».

- «هل تصدق أنت نفسك... هل نظرت مرة لحالك ولر تتأسف، كيف كنت، وكيف أصبحت؟».

هتفت حينين بإعياء:

- «أرجوك يا زاهر اتركها.. أتوسل إليك».

صرخت فيها كروان:

- «لا تتوسلي إليه... وإلا ظن نفسه الأقوى، وهو أضعف من حشرة تقنات على دماء الأبرياء».

تحولت يدها من ذراعها لتقبض على عنقها واستمر يضغط حتى استنفرت عروقها وبدأت تتحشرج وسط قهقهات أصدقائه، وصرخات حينين المولولة..

فجأة اقتحم وليد الباب شاهراً سلاحه:

- «اتركها يا زاهر وإلا... أقسم أنني لن أتردد لحظة واحدة في إردائك».

ارتبك زاهر بينما وقف كل أصحابه رافعي أيديهم لأعلى، وهلت حينين رغم انهيارها الواضح، تحمد الله على تدخله في الوقت المناسب.. أمسك زاهر بكروان كدرع بشري أمام صدره متراجعا للخلف بخطوات محسوبة:

- «لا تقترب يا حضرة الضابط.. وإلا أنت تعلم... أنا لن أخسر شيئاً».

صرخ به وليد:

- «تعقل يا زاهر واتركها ولا تزد سوءاً لوضعك... دقائق وستجد قوات الأمن منتشرين في كل مكان... لن تجد ثقب إبرة لتهرب منه».

ثم دفع بقدمه عدة زجاجات فارغة مردفاً:

- «تكفيك قضية واحدة.. كن عاقلاً واستمع لي... عندما يصل الضابط شهاب هنا لن يعطيك فرصة كالتي أمنحها لك... أنت تعلم مثلي أنه لا يعرف التفاهم».

صرخت حنين: «أرجوك يا زاهر... أرجوك يا أخي هذا يكفي.. ولو من أجل عظام التربة... أتوسل إليك لا تفجعني فيك أنت أيضاً».

تهدل ذراعه مستسلماً، فأسرع ولید يلتقط كروان قبل أن يعود زاهر في قراره بالاستسلام... ثم دفعها باتجاه حنين دون أن يبعد السلاح عن زاهر وجماعته، وأمر الفتاتين:

- «أسرعا واختبئا لدى الجيران قبل أن تصل القوات الداعمة... حتى لا يأتي ذكر اسمكما معهم في القضية».

ارتبكت الفتاتان فعاد يصرخ:

- «قلت أسرعا... أسمعهم يصعدون الدرج».

أمسكت كروان بيد حنين وجذبتها عندما أدركت أن ولید يمنحها فرصة ذهبية... ترددت وهي تنظر لأخيها، ثم استسلمت لصديقتها تدفعها صعوداً لسطح العمارة..

احتضنتها بقوة تمتص نحيبها وشهقاتها على صدرها... متممة في أذنيها بتهويده كطفلة صغيرة كي لا تسمع الجلبة التي تحدث بأسفل... وبعد ما يزيد على نصف الساعة... سمعا صوت أقدام تصعد... شخصتا أبصارهما بفرع حتى طمأنهما ولید:

- «اطمئنا.. هذا أنا... لقد ذهبوا.. هل أنتما بخير؟».

هزت كروان رأسها بالنفي:

- «لا ندري... أكاد لا أستطيع الوقوف وتمالك أعصابي... وحين... كما ترى...».

أشاح بعينه بصعوبة عن وجه كروان الشاحب، تمنى لو تسمح له أن يدفع عنها كل لحظة شعور بالخوف، ويبدلها بأمان أحضانه... نظر لحنين... أمسك كتفها يجبرها على النظر لوجهه ولكنها قاومتها:

- «أفضل ألا تفعل... منظري ليس...».

أصر على أن تلتفت له:

- «حنين.. انظري لي...».

لم تستطع أن تخالف أمره خاصة وهو يحدثها بهذه النبوة القويّة الحنون، فالتفت له مطرقة الرأس... رفع وجهها وتأمل كدماتها ثم صر من بين أسنانه:

- «لماذا لم تخبريني؟ كنت سأوقفه عند حده قبل أن تتفاقم الأمور».

- «هو أخي... وأنت...».

نظر لكروان... وبنبرة حملت من الحدة ما بدد قدرته على إقناعها وهو يقرر:

- «وأنا سأكون زوجك يا... حنين».

شهقت حنين تنظر له ببله لا تصدق ما تفوه به... فجالت بنظراتها بينه وبين

كروان، التي وبجهد شديد حاولت شق ابتسامة لصديقتها التي هتفت:

- «أنت... أنت قلت... هل سمعت ما سمعت... كروان... هل سمعت ما

قال.. أم أنني...».

أمسك بيديها وضمهما لبعضهما وقبلهما بقوة، وعيناه كانتا تختلسان النظرات

الخفية لكروان من خلفها كأنه يوجه كلماتها لها:

- «سأكون زوجك يا حنين.. وسأحميك... تعلمين أن زاهر لن يبقى خلف القضببان طويلاً... ولن أتركك تعيشين تحت رحمته... أليس كذلك يا كروان؟».

تحدّاهما أن تعترض.. أن تخبر حنين أنه لا يحبها، ولن يسعدها أبداً، وعرضه للزواج لن يكون أبداً أكثر من وسيلة للنكاحية بها. وجدت نفسها تقع تحت وابل قبلات حنين التي منذ لحظات وجيزة فقط كانت منهارة بين يديها:

- «كروان.. وليد يريد الزواج بي.. لقد تحقق حلمي أخيراً».

ثم التفتت لوليد وقد بترت فرحتها فجأة وهي تجيل نظراتها المرتابة مرة أخرى بينهما:

- «ولكن.. كيف يحدث هذا؟ كنت منذ أيام قليلة تعشق كروان... فكيف...؟».

وضع يده على فمها وأكمل بنبرة صوته القويّة الواثقة التي أذابت بدون جهد كل شكوكها:

- «كنت أختبرك أيتها البلهاء؛ لأعرف مقدار حبي في قلبك... وتأكّدت اليوم فقط... أنني ما أحببت سواك».

- «أحقاً يا وليد؟».

«نعم وسأعمل على إسعادك طالما قلبي يدق في صدري... ولكن الآن سأكتب لك على عنوان مشفى، سأصل بهم ليحجزوا لك غرفة... لا تبالي بالتكاليف... أريدك أن تتعافي في أقرب وقت لتنتم زواجنا... هل ستذهبن معها يا كروان... لقد تأخرت عن عملي وسيتساءلون عن مكاني، وأنا المبلّغ عن العصابة».

استطاعت أن تدبر إيماءة خفيفة وهو يعطي حنين ورقة العنوان في يدها، ثم انطلق مغادراً بعد أن أكد عليهما ألا يحاولا دخول الشقة لأنها مغلقة بالشمع الأحمر لحين استكمال التحقيقات.. انتظرت الفتاتان حتى تأكدتا من ذهابه ثم تبادلتا النظر لبعضهما... حنين بنظرات مشرقة لا تكاد تصدق، في اللحظة التي فقدت فيها أخاها، عوضها الله برجل... وليس أيّ رجل، بل هو الرجل الوحيد الذي تمنته... وكروان بنظراتها المترددة تتمنى لو تخبر صديقتها بما تشعر به، ولكن الفرحة التي تكاد تقفز من عينيها أجمتها، وجعلتها تحتضنها وهي تتمنى أن تكون مخطئة وأن يدرك وليد أيّ قلب ذهبي هو قلب حنين.. ربتت على كتفها قائلة بنبرة مختنقة بالدموع:

- «أنتِ تستحقين كل الخير يا حنين».

شبهت حنين بدموع لمر تجف:

- «ولكن كيف أفرح، ولا أعلم مصير زاهر بعد؟».

«لا تقلقي يا صديقتي.. كما قال لك وليد.. سيخرج.. المسألة مسألة وقت.. محام شاطر سيستغل ثغرة أو ثغرتين ليعود زاهر ورفاقه يعيشون في الأرض فساداً... هيّا لأوصلك للمشفى، لمر أذهب للمطعم وتأخرت على البيت، ولكنني لن أتركك قبل أن أطمئن عليك».



3

بعد مغادرتها المشفى، كانت قد وصلت لنهاية صمودها، صورة حين مغمضة العينين بتلك الابتسامة على شفيتها تعصر قلبها، وعاد ضميرها يطن في أذنيها بإزعاج.

أوقفت سيارة أجرة متخلفة عن عاداتها في العودة مشياً على الأقدام مضحية ببضعة أوراق نقدية هي في أمس الحاجة إليها، ولكن ليس لدرجة حاجتها للراحة..

هب الرجل المنتظر في شرفته وقد ضاقت عيناه على السيارة التي نزلت منها جارته.. وتمتم: «غريب... لم تعد العودة بسيارة أجرة».

أجابه العجوز حائراً:

- «ربما غيرت عاداتها... ولكن كيف عرفت عاداتها ونحن هنا منذ يومين فقط».

هتف دون أن ينظر نحوه، فقد كان مشغولاً بكل حواسه بمراقبتها تتهادي بخطوات مترنحة حتى دخلت وأغلقت الباب خلفها.

تمتم بصوت منخفض:

- «تبدو مُتعبة».

جاءه الصّوت المنزعج من خلفه:

- «ليست وحدها... بما أنها عادت بالسلامة هل يمكنني أنا أيضًا الحصول على الرّاحة لعظامي العجوز».

التفت له رائف بحدة:

- «وما يبقيك أيها العجوز عديم النّفع... أنا لمر أمسك بك».

- «بلى... بعدم تناولك الدّواء تبقيني جوارك... لبتك استخدمت ممرضة بدلاً من...».

قاطعه بكلمة واحدة:

- «لا.. ولكنك على حق... لقد حان موعد دوائي.. هيّا بنا لأخلص من ثرثرتك ونقيقتك».

استلقى على فراشه متنهدًا حتى أعد له عبدالحميد مجموعة الأدوية في كوب بلاستيكي صغير... ناوله له ثم أعقبه بكوب ماء... وقبل أن يستدير فتح رائف الجارور ليخرج شريط دواء... اقترب حاجبا العجوز المشعثان من بعضهما، ولم يستطع إمساك لسانه هذه المرة وهو يطرح السّؤال المحشور في حلقه منذ وقت طويل:

- «ما هذا الدّواء... لم يكن من ضمن الأدوية التي...».

زجره رائف بنظرة غير متهاونة، وهو يلوّح بشريط الدّواء ثم تتم من بين أسنانه:

- «لا تتدخل فيما لا يعينك... لن أحتمل طويلاً تدخلاتك في شئوني.. أحترم كونك ربيّتي صغيرًا، ولكن حتى هذا له حدوده.. هل فهمت يا عبدالحميد؟».

تنهد عبد الحميد بضيق ثم هز رأسه عن غير اقتناع وغادر الغرفة.
وجدت والديها بانتظارها وعلامات القلق على وجهيهما، أقبلت متوجسة إن
كانت الأخبار وصلت إليهما عن مغامرتها الليلة... ولكن كيف وهي الاتصال
الوحيد بينهما وبين العالم الخارجي:
- «ماما.. بابا.. هل من خطب؟».

وقفت أمها تسألها:

- «لمر تعودي اليوم بعد وردية المصنع.. وساورنا القلق و...».

مطت كروان شفيتها:

- «هذه ليست المرة الأولى.. ماذا بكما حقاً؟».

تكلم والدها:

- «منذ عرفنا بوجود هذا الرجل رائف، ونحن لا يكاد يغمض لنا جفن...
خاصة وهو يقف في الشرفة وكأنه بانتظا...».

أكملت تستحته باستغراب:

- «تقصد... بانتظاري... أنا؟ من المؤكد أنكما تتخيلان أوهاماً لا أساس لها...
رائف لا يتذكرني... هو لا يدعي... أخبرتكما من قبل... ولا يمكن أن يهتم
بي، بالنسبة له نحن بالكاد نعرف بعضنا البعض.. أهذا ما أبقاكما مستيقظين
حتى هذا الوقت؟».

نظرت الأم لساعة الحائط ثم سألتها:

«الساعة العاشرة... كيف أفرج عنك ماهر مبكراً، لمر تحدث من قبل».

وضعت ذراعيها حول كتفي والديها:

-«ولن تحدث صدقيني، لكي أحكي لك ما حدث الليلة لا بد أن يكون ذهني صافياً تماماً، وهذا لن يحدث إلا إذا نلت قسطاً وافراً من النوم.. هل تسمحان لي يا أجمل والدين في الوجود».

قَبَل والدها جبينها:

- «بارك الله فيكِ يا حبيبتي... اذهبي لغرفتكِ وأنا وأمك سنعد لك العشاء ونحضره إليك».

- «لا.. حقيقة لا رغبة عندي في الطَّعام.. اتركاني أنام وسأستيقظ صباحاً بشهية مفتوحة... تصبحان على خير».

في صوت واحد:

- «وَأنتِ بخير».

رغم تعبها الشديد ولكنها استيقظت في وقت مبكر حتى قبل أن يأتي الولدان لغرفتها... جلست في فراشها تحديق في الفراغ تحاول ترتيب أفكارها... وانتهت لقرار لا تراجع عنه.

في موعدهما دخلا غرفتها يتسللان ففوجئتا بها بانتظارهما... ربتت على جانبيها على الفراش:

- «تعاليا هنا.. جوارى».

تبادل الصبيان النظرات المستغرِبة... ثم أطاعاها في صمت لإدراكهما أنهما على وشك الاستماع لأخبار مُهمّة... وبهدوء شديد بدأت بإطلاعهما على قرارها. عدم إمكانيتهما الاختلاط بالجوار الجديد، أو زيارته، أو التعامل معه تحت أيّ مسمّى..

صرخ الولدان في صوت واحد:

- «ولكن... هذا مستحيل».

أبقت نظراتها ثابتة للأمام دون أن تنظر لأيّهما:

- «ما هو المستحيل؟.. أن نختلط برجل لا نعرف عنه أيّ شيء، أم نبتعد عنه لأنه غريب تمامًا، ولا نعرف عنه أيّ شيء... قد يكون مجرمًا هاربًا من العدالة.. أو قاتلاً أو...».

هوى قلبها عندما لاحظت نظرات الولدين المكلومة، على الفيلا من نافذتها المفتوحة، وكأنهما يدركان بفطرتهما صعوبة التفكير في هذا الرجل بالطريقة التي تفرضها بها أختهما... اعترض رامي:

- «ولكن... لم نر من الرجل شيئًا سيئًا».

وأكمل رائد:

- «بالعكس... تعامله معنا كان لطيفًا للغاية».

كزت على أسنانها:

- «ما زلتما صغيرين ولا تعرفان الدنيا على حقيقتها... الرجال الأشرار ليسوا بالضرورة أن تكون عيونهم حمراء، وتنبت قرون في جبهاتهم كما تشاهدون في أفلام الرسوم المتحركة، كما أنني لا أتناقش معكما في هذا الأمر.. لقد أصدرت قراري وانتهى... أيّ علاقة لكما برائف هذا تنقطع فورًا».

نهض الصبيان متجهين للباب ثم التفتا لها وبدأ رائد بالهجوم:

- «أنتِ لا يمكنك أن تأمرينا».

وتابع رامي:

- «أنتِ لست أمنا... ولن تكوني أبدًا».

أخرجت زفرة طويلة وتمتت تواسي نفسها:

«مع الوقت سيدرك أنني أعمل لصالحهما... لا يمكن أن تنمو علاقة بينهما... مستحيل... وسأعمل على هذا بكل ما أوتيت من قوة... لن تكون لك أي علاقة بأولادي يا رائف.. أبداً».

ربما لو كانت تعرف أنها في خلال الدقائق التالية ستبدل رأيا 180 درجة لما أصرت كل هذا الإصرار على قرارها؟

نزلت الدرج بخطوات محبطة... كانت أمها بانتظارها في الأسفل لتسألها:

- «ماذا بهما الولدان... لم يلقيا تحية الصباح ولم يذهبا للسباحة... وأصرأ على الذهاب للمدرسة رغم أن الوقت ما يزال مبكراً؟».

- «لا تشغلي بالك يا ماما.. سيكونان بخير.. أين بابا؟».

بحماس غريب أجابت أمها:

- «يجلس على مائدة الطعام مع الضيف في المطبخ».

دق قلبها بعنف حتى شعرت بالألم في أضلاعها:

- «ضيف... أي ضيف؟».

ردت أمها بغموض:

- «اتبعيني وسترين بنفسك».

اغتاظت من تصرف والدتها وتعجبت، فتبعتها بفضول تتمنى ألا يكون هو... وليد!!

تبع أمها وعلامات الاستفهام تدور في حلقات حول رأسها.

تسمرت في مكانها ما إن وقعت عينها على الرجل الأشيب في عقر دارها... استنفرت خلاياها العصبية وقد تزامت بالمزيد من علامات الاستفهام؟

استفاقت من صدمتها على صوت والدها المرحب:

- «عزيزتي.. ما بكِ تقفين كالتمثال، تعالي ورحبي بضيضي.. باعتقادي أنك التقيت به من قبل، ولكنكما لم تتعرفا رسمياً بعد... هذا يكون...»
أكملت بنبرة تحد:

- «السيد عبد الحميد... مساعد السيد رائف يزن».

قفز العجوز برشاقة لا تناسب عمره الهرم وصافحها بحبور:

- «سُرت برؤيتك مرة أخرى يا آنسة... وأعتذر عما حدث من سوء تفاهم في اللقاء الأول... لا بد أنكِ تدركين الآن سبب حدتي و...»
ردت بنبرة عالية مستنكرة:

- «ماذا تعني أنني أصبحت مدركة... ما قصدك بهذه الجملة بالتحديد؟».

- «اهدئي يا آنسة... لقد أخبرني السيد رائف عن مغامرتكم أنتِ والصبيين ليلة أمس... عندما كنتُ نائمةً في غياهب كهفي... أنا مدين لك بالشكر... لولاكم كان الله وحده يعلم ما سيكون مصير رائف بيه؟».

أخرجت دفعة كبيرة من الهواء لتريح نفسها من التوتر بسبب وجود الرجل غير المرغوب بحضوره.

أحاطت صدرها بذراعيها قائلة بنبرة هادئة: «العفو... ولكنك لم تقطع المسافة من الفيلا وحتى منزلنا المتواضع لتخبرني بامتنانك... كيف أستطيع خدمتك لتعود لسيدك قبل أن تصيبه نوبة إغماء أخرى؟».

أزاح الرجل الحِملَ عن صدره وهو يخبرها بكل ما يريده في جملة واحدة... رغم نبرتها العدائية الواضحة:

- «أريدك أن توافقني على رعاية رائف بيه؟».

ربما تكون قد توقعت أيّ شيء... إلا هذا الطّلب... ويبدو أن الصّدمة كانت جليّة على ملاحظتها... ولكن ما صدمها حقًا أنها لم ترّ الاستغراب على وجهي والديها... وهذا يعني أن... سألتهاما بارتياب:

- «هل أنتما على معرفة سابقة ب... هذا الطّلب؟».

تجاهلت ردة فعلها المتواطئة، وعادت تنظر للرجل العجوز:

- «ولكنني اعتقدت أنك تقوم بهذه المهمة خير قيام».

- «نعم... في الواقع لقد اعتدت على هذا العمل منذ الحادث... ومنذ رفض الاستعانة بأيّ خدمات متخصصة... رائف بيه يحاول الإبقاء على سرّيّة مكان وجوده في الوقت الحالي... فهو رجل سياسي معروف تلاحقه الصّحف... ولو وصل لأنف أيّ صحفي أيّ خبر عن مكان وجوده سيتحول المكان لسيرك من القروود... لذلك اكتفى بي وبذلك العملاق الخالي من المخ في رأسه الأصلع».

أومات ببطء تستوعب كل ما قاله... فهو يعني الكثير.. وكعادتها كانت تفكر بصوت عالٍ ولم تدرك هذا إلا عندما أوماً بالإجابة:

- «لا، غير صحيح... ثروت بيه لا يعرف مكانه أيضًا وكان هذا أمرًا مباشرًا من رائف بيه.. رغم أنّ الأمر لن يطول كثيرًا فثروت بيه يجند كل قوته ليعثر على مكان اختفاء ابنه... كل ما يرغبه رائف بيه بعض الوقت، يستعيد نشاطه قبل أن يجد مكانًا آخر يبتعد فيه عن مخالاب والده».

ابتلعت لعابها قبل أن تقول:

- «أتعني أن وجودكم هنا... مجرد صدفة؟».

ضاقت عيناه متسائلًا: «عفوا؟!».

هبت والدتها لتجيب عنها:

- «الفيلا كانت مهجورة لسنوات... وفجأة ظهرت... فلم نعرف مالکها من قبل».

- «لا الفيلا ليست ملكاً للسيد لقد استأجرها... ولا أعرف سبب اختياره بلطيم بالذات، أو لهذه الفيلا الخالية تقريباً من الأثاث.. بالكاد حصلنا على الضروريات للإقامة فيها...».

في محاولة أخيرة للتملص أو لإقناع نفسها بضرورة الرّفص:

- «ولكن... أنا لا خبرة لي بالتمريض».

- «رائف بيه ليس بحاجة لعناية ممرضة محترفة بقدر حاجته لامرأة ودودة تصنع له حساء منزلياً، وتكون ابتسامتها الرقيقة بلسماً لآلامه بعد خسارته الفادحة... باختصار سيدي بحاجة للرفقة الناعمة بعد أن عانى طويلاً من رفقة الخناشير أمثالي وجابر الأصلع».

- «هل كان اقتراحك.. أم هو؟».

- «لقد عرضت عليه الأمر، ولم يُبدِ اعتراضاً، خاصة أنه معجب بأخويك الصّغيرين».

وكانه أطلق جرس الإنذار بذكره للتوأمين، فصرخت بحدة مبالغة:

- «لا.. مستحيل لا يمكن أن أقبل... أرجوك أبلغ سيدك أنني...».

قاطعها برجاء:

- «أرجوك يا آنسة... لا ترفضني... سيدي رائف قد يبدو صلباً غير متأثر بجراحه، ولكن له قلب طفل صغير يشواق للحنان وللکلمة الطيبة».

غامت عيناها بذكريات الماضي الأليم... لرائف الرّجل بقلب طفل... كان

دائماً يسعى لأن تحيطه بذراعيها، ولا ينام إلا وهي متوسدة صدره، يضمها بقوة وكأنه يحميها من شرور العالم، ولكنه في الحقيقة يستمد من وجودها معه الحنان الذي يفتقده في حياته.

بعد أن ماتت أمه وهو لا يزال طفلاً صغيراً في مرحلة الروضة، لم يبق له غير والدٍ قاسٍ غير متفرغ، لا يراه لشهور.. تناوبت على تربيته المربيات... ولا واحدة منهن أدركت احتياجه للحنان، وإحساس الأمومة.. وكأن والده يختارهن قساة، لا تعرف الرحمة طريقاً لقلوبهن..

أردف عبد الحميد غير مدرك دوامة الذكريات التي سحبتها لأعماقها:

- « كما أنك ستحصلين على مبلغ كبير نظير عملك، تستطيعين الاستعانة به للبدء في إصلاحات منزلكم... هو بحاجة للكثير من الإصلاحات بالمناسبة». رفعت أحد حاجبيها بعتاب لوالديها:

- « يبدو أن والدي العزيزين لم يدخرا وسعاً في شرح أوضاعنا المادية».

- « لا تلوميهما يا کروان... هل تسمحين لي برفع الألقاب.. ويمكنك مناداتي بعم عبده... كنت أقول.. والداك بطبيعة الحال قلقان بشأنك، وعملك في الفيلا سيمنحك الراحة المادية، حتى تتخلصي من كل التزاماتك».

تمتت بعناد:

- « اترك لي فرصة للتفكير».

لم تترك له فرصة للرد وخرجت للشرفة المواجهة للبحر فاختلطت دموعها برذاذ الهواء المالح المشبع بقطرات من مياه البحر، التي حملتها نسيمات هواء الصباح القوية، سلّمت للريح وجهها مستمتعة بلسعته الباردة... لم تشعر باقترابه حتى وضع يده الحانية على كتفها:

- «كروان.. هل أنت بخير؟».

مسحت دموعها بسرعة كي لا يلمحها:

- «نعم بابا.. أنا بخير.. هل تعرف لِمَ كان رامي ورائد غاضبين اليوم.. لأنني أطلعتهما على قرار لا رجعة فيه... كما كنت أتصور وقتها بالطبع... لقد منعتهما من الاتصال برائف بأي شكل من الأشكال.. هل تصدق؟.. لأوّل مرة منذ وُلدا يتمردا على قرار أتخذه.. ومن أجل مَنْ.. رجل غريب لا يعرفانه أبداً».

تنهد:

- «ربما حان الوقت ليتعرفا عليه يا كروان».

صرخت بحدة:

- «بابا.. لا تقل هذا أرجوك... حتى لو تغاضيت عن كل ما حصل في الماضي.. على خداعه لي... على نسيانه... على الزّواج المزيف... رائف حياته شائكة... كما أنّ والده لن يأخذ دور المشاهد وهو يراني أقترح حياة ابنه مرة أخرى لأدّمّر مستقبله السّياسي كما يدعي... لقد هددني منذ عشر سنوات.. هل تذكر؟».

- «حبيبتي.. كان هذا في الماضي.. ربما هو الآن أصبح رجلاً مختلفاً خاصة عندما يرى أحفاده ويفتخر بهما».

- «رائف ابنه الوحيد ولم يتردد لحظة للسيطرة عليه وقتل أحلامه والتخطيط لمستقبله بدلاً منه.. كما أنّك تنسى الخطر الآخر الذي راح ضحيته زوجته وابنته... من يعلم عندما ينتشر خبر وجود أولاد للسياسي المعروف رائف يزن... ربما يحاولون قتلهم أيضاً».

- «الآن أنتِ تفكرين بهستيرية.. أين نحن.. في غابة؟ ومع ذلك... القرار الأخير يعود لك وحدك، لن يجبرك أحد على أي شيء لا ترغبين فيه... رائد ورامي أولادك، وسرك بأمان معي أنا وأمك... ولن يخرج من بين ثلاثتنا، إلا بموافقتك الكاملة... إذا أردتِ الاستماع لنصيحتي.. اقبلي بالعمل لديه.. ستكون فرصة لتحسين أحوالك المادية على الأقل، حتى نفتح المنزل لاستقبال الزبائن مرة أخرى... فكري ملياً يا عزيزتي».

تنهدت بصوت مسموع:

- «سأفكر، ولكن في كل الأحوال لن أترك عملي في المطعم».

ثم أردفت بزفرة طويلة:

- «أخبر ذلك العجوز بموافقتي على أساس هذا الشرط، ولن أتخلي عنه.. وشيئاً آخر... لقد استخدمني وحدي... فلا دخل لرائد أو رامي بأي شيء يخصه».

أوماً والدها بارتياح هازاً رأسه بابتسامة مشفقة:

- «سأبلغه بكل شروطك».

عاد لها بعد لحظات:

- «لقد وافق... ويرغب أن تتسلمي العمل فوراً».

وافقت على مضمض... عادت للغرفة لتجد الرجل العجوز يتحدث مع أمها وكأنهما جيران منذ سنوات... انتبه لوجودها فالتفت لها:

- «شكراً لك.. لقد أزحتِ عبئاً عن كاهلي... تفضلي معي لأطلعك على واجباتك».

- «ولكنني لن أستطيع بدء العمل من اليوم.. لا بد أن أقدم استقالتي من المصنع أولاً... وسأبدأ من...».

قاطعها بجديّة:

- «الغد... لا فصال بعد الآن... أنتِ صعبة المراس يا آنسة».

غمغمت:

- «ليس كما يُخيّل لك... هيّا بنا... أرجو ألا تؤخرني عن موعد عملي... تقديم استقالتي لا يعني ألا أحترم مواعيدي».

مط شفّتيه بتقدير:

- «تروقني مبادئك... تفضلي».

سارت خلفه بهمة فاترة حتى وصلا لبوابة الفيلا... تطلع الحارس لها باستعداد وهو يسد المدخل فوبخه عبد الحميد بسخرية:

- «أليس لهذا الجسد العملاق ولو عقل صغير يفكر به دون مساعدة خارجية، الآنسة بصحبتني يا عقل العصفور، أم أنك لمر ترني بعد؟.. همهم جابر بكلمات غير مفهومة وهو ينتحي جانباً ليمر..

متأخرة كثيراً بدأت تشعر بخطأ قرارها بالقدوم هنا.

كانت الكآبة تعشعش في زوايا الفيلا المظلمة.. لا وجود لأثاث فخم، أو تُرّيّات معلقة.. كان العنكبوت هو الساكن الحقيقي لهذا المكان البائس.. التفتت مصدومة للرجل فأوماً:

- «قد أكون أبخست المكان حقه.. ولكننا لمر نهتم إلا بغرف النوم فقط والمطبخ.. أمّا باقي الفيلا... كما ترين خرائب مهجورة... ورائف بيه بالكاد يغادر غرفته... صعدت خلفه للطابق الثاني، لمر يختلف كثيراً عن الأوّل... الجدران الحائلة اللون والمقشرة في غالبها.. والزوايا الكئيبة للعنكبوت المسيطر على هذا الطابق أيضاً... وقف العجوز أمام أحد الغرف وتطلع لها:

- «انتظري هنا حتى أبلغه بوجودك».

بعد دخوله أخذت تدرس جدياً فكرة الهرب... تطلعت خلفها وبدأت تستدير ببطء والفكرة تتشعب برأسها حتى بدأت تحتل أطرافها لاتخاذ موضع التنفيذ..

- «تفضلي يا آنسة... رائف يبه بانتظارك».

أخرجت أنفاسها المحتبسة وتطلعت لعبد الحميد ببراءة، وكأنها لم تكن على وشك نقض اتفاقهما.

طنن من الأسمنت صب في قدميها على نحو مفاجئ... بالكاد كانت تستطيع نقل قدميها من موضع لآخر بتثاقل، وكأنها على وشك الدخول للمقصلة وليس لزوجها الذي خدعها منذ عشر سنوات.. أجفلت عندما أغلق عبد الحميد الباب خلفها.. تطلعت للباب المغلق وأدركت أن فكرة الهرب أصبحت هباءً منثوراً.

- «أستميحكِ عذراً... لا أستطيع الوقوف لاستقبالك».

بدت وكأنها نسيت حتى طريقة النطق... أغمضت عينيها بقوة ثم فتحتها، وبدأت بالكلام وهي لا تدري ما تقول، ولكن بلا شك أن لسانها لن يتواني عن أداء عمله كما كان منذ تعلمت النطق:

- «لست مضطراً... أنا مجرد عاملة لديك».

- «أنا ممتن لقبولك المهمة... عبد الحميد أخبرني أن إقناعك استلزم كل خبرته المعروفة عنه... هل أخافك... أم هددك؟».

هزت رأسها بقلّة اكتراث:

- «ليس كما يلزم فعلاً لأوّل الأديبار».

- «ربما يجب أن أقوم بالمهمة بنفسى.. مهمتك لن تكون سهلة.. أحياناً أتحوّل لرجل صعب المراس ولا يُطاق».

تأملته باستغراب.. وفكرت.. «صعب المراس.. ولا يُطاق... لا يمكن أن تكون الرجل الذي عرفته.. اللطيف الجذاب... لئن العريكة».

- «هل تعيدى حساباتك يا آنسة.. سأفهم موقفك حقاً؟».

زفرت بضيق:

- «من ضمن صفاتي السيئة أنني لا أراجع عن قراراتى بسهولة.. أخبرنى عن مهامى، وسأكون عند حسن ظنك بى».

- «هل تحملين شهادات جامعية؟».

أظلمت عيناها وهى تجيبه بصوت كان له مذاق عفن فى فمها:

- «لو كنت أحمل مثل هذه الشهادة، هل كنت سأعمل نادلة فى مطعم ليلًا وعاملة فى مصنع صباحًا».

-«ظروفك منعتك؟».

أطرت رأسها بقهر:

-«أخوای صغیران... أنا الوحيدة المسؤلة عنهما... كما أن عملى فى المطعم محترم وشريف».

- «عفوًا لم أقصد التقليل من شأنك... ولكننى سأعوضك عن أجرك بالمطعم، لو قررت التفرغ الكامل للعمل بالفيلا».

- «هذا لن يجدي معى... فأنت موجود بشكل مؤقت هنا... ولكن عملى موجود دائماً من أجلى».

- «فكري جيداً... سأجد لك عملاً محترماً بإحدى الشركات... وربما تستطيعين الحصول على شهادتك الجامعية».

ردت بعناد:

- «لا أحب أن أبدو وقحة، وناكرة الجميل... ولكن.. لا.. شكراً لك... وإن كان شرطك التفرغ الكامل، أستطيع تقديم استقالتي بكل حبور قبل أن أبدأ... وداعاً».

ظنت أنها أفلتت بفعلتها عندما أوقفها صوته الصّارم قبل أن تدير مقبض الباب:

- «انتظري عندك... أنا لمر أنته بعد».

- «أما أنا... فبلى».

تنهد بزفرة انزعاج:

- «حسناً، كما تشائين، ربما كنت من تلك النوعية من الفتيات اللاتي يفضلن الكفاح في أكثر الأعمال وضاعةً، ليصفق لهن الجميع بدموع المواساة والشفقة... لا بأس بذلك عندي، ولكن اسمحي لي، أنا لست من هواة التصفيق... أكثر ما أهتم به هو أن تكوني موجودة في موعدك بالتمام كل يوم».

- «أنا أيضاً أحب الانضباط في عملي».

نادى بصوت مرتفع على مساعده العجوز فدخل مسرعاً، وكأنه كان يستمع لمحادثتهما من خلف الباب:

- «تحت أمرك يا رائف يبه».

- «اصطحب الآنسة في جولة على الفيلا، وأخبرها بكل التعليمات».

وقفت مصدومة تجيل النظرات بكلا الرجلين... تجاهلت يد عبدالحميد التي كانت تشير لها لتقدمه وطرحت سؤالها:

- «عفوًا.. هل يمكن أن أستفسر عن طبيعة عملي؟».

تبادل الرجلان نظرات عدم الفهم، فأجابها رائف وكان سؤالها غريب بعد كل المناقشات التي دارت بينهما:

- «مدبرة منزل... بالطبع».

التفتت تحدق بالعجوز بنظرات حائقة فانسحب بارتباك واختفى في الحال.. انتبهت لتساؤل رائف الحائر:

- «لر أفهم... ما الذي يحدث بينكما؟».

أخرجت زفرة غليان وهتفت تتحاشى النظر نحوه:

- «لا.. لا شيء».

ثم أسرع خلف العجوز لتمسك به بعيدًا عن الغرفة:

- «انتظر عندك يا سيد عبدالحميد».

وقف متنهدًا:

- «اسمعي... أعرف أنه حدث سوء تفاهم بسيط، ولكن غير مقصود».

صرخت ساخطة:

- «سوء تفاهم بسيط؟ سيدك يظن أنني قبلت أن أكون خادمة في بيته، وهذا

من وجهة نظري أكثر بقليل من سوء تفاهم بسيط».

اعترض بشدة:

- «لا.. لر يقل خادمة.. بل مدبرة منزل».



- «أنت تتلاعب بي... أليس كذلك أيها العجوز الماكر؟ لماذا أخبرتني أن سيدك بحاجة لمن ترعاه؟».

- «آه.. في الواقع يا آنسة...».

تلقت حوله، وعندما تأكد أنها بأمان من أن يسمعها رائف أردف:

- «الحقيقة أن رائف يبه بحاجة ماسة لرعاية خاصة، لا أستطيع توفيرها له وأنا بهذا العمر، وهو شديد العناد فيما يتعلق بهذا الأمر».

هزت رأسها بتفهم وقد أدركت نواياه:

- «أي أنك تحايلت عليه ليوافق على وجودي كمديرة منزل... وهو سيقبل برعايتي له كجزء من عملي».

- «قد لا يكون الوضع بالسهولة التي ذكرتها... ولكن لا بأس بالمحاولة».
فاجأته بالسؤال:

- «هل تحبه لهذه الدرجة؟».

همس متنهداً بحنين يطل برفق من بريق عينيه:

- «هو ابني الذي بخلت به الدنيا علي».

تعجبت كيف لم يذكره رائف لها ضمن حكاياته عن طفولته:

- «يا آنسة.. هل ستقبلين العمل؟».

أومأت: «غداً سأخبرك بقراري».



4

حالة من الاستنفار والعداء كانت بانتظارها بعد عودتها من المطعم في وقت متأخر من الليل، وكان عداء ماهر لها طوال السهرة لا يكفيها، فلم يقتنع بحجتها في الغياب ليلة أمس، وأصر على خصم يوم من راتبها.. وكانت آخر من يغادر المطعم، من شدة غيظها تمت لو قبلت بعرض رائف وألصقت طلب استقالتها الذي قدمته في المصنع في الصباح بوجه ماهر، وابتسامته القميئة في المساء.. وجدت الولدين بانتظارها بعد أن أخبرتهما أمها أنها قبلت العمل في الفيلا.

كانا مصدومين، في الصباح قررت قطع العلاقات مع الجار، ليعودا في المساء ليجداها تعمل لديه... لم تجد ردًا مناسبًا.. كيف تخبرهما أنها مضطرة للقبول بهذا العمل، كي يصمد سقف البيت فوق رؤوسهم دون أن ينهار.. كيف تخبرهما أنها تفعل أي شيء من أجلهما، حتى لو ألفت بنفسها في جحيم رائف، الزوج والحبيب المخادع... الذي لا يتذكرها، كيف تخبرهما أنها تقف أمامه، لا تعرف إن كانت تكرهه أكثر مما كرهته طوال عشر سنوات، أو تشفق عليه، أم على نفسها لو عرف والده بوجودها هنا مع ابنه، وسرّها الذي لا يعرفه أحد..

جرت أقدامها جراً إلى غرفتها متجاهلة نظراتهما العاتبة... فتحت أمها بابها لتسألها بقلق:

«كروان.. تأخرت كثيراً يا حبيبتي... والدك كان قلقاً ولكنه لم يستطع الانتظار في البرد.. هل أنت بخير يا حبيبتي؟».

أومات غير قادرة على التطق فأردفت أمها: «كروان.. اطمئني.. لدي شعور جيد هذه الأيام.. أنت تعلمين أن حدسي لم يكذب أبداً، أنت صبرت كثيراً وكافحت طويلاً، وأن الأوان لترتاحي حبيبتي، وتلقي بأحمالك على أكتاف تتحمل قسوة الحياة».

هزت رأسها غير مصدقة ما تسمع:

- «ماما... أنت لا تفكرين في.. مستحيل لا يمكن.. حتى لو تذكرني رائف، حتى لو زالت الغمامة عن عينيه، أو ظهر على حقيقته واتضح أنه كان ممثلاً بارعاً يقوم بهذا الدور لسبب لا أعرفه ولا أرغب بمعرفته، من داخلي هذا الرجل انتهى، أيّاً كانت مبرراته... أو كانت ظروفه..

تنهدت الأم وهي تمسك بذراع ابنتها:

- «حبيبتي لو تهدي قليلاً، وتفكري بمستقبل الولدين».

في شبه صراخ:

- «يا رب السماوات... يا أمي أقسم لك أن مستقبلهما هو شاغلي الشاغل، وكل ما أفعله من أجلهما... ولو كان مستقبلهما مع والد لا يعرف بوجودهما من الأصل، لأخبرته وتركتهما لينعما بثرائه وبالحياة المنعمة التي لن تكون إلا معه، ولكنهما لن ينعما بحياتهما، إلا إذا ابتعدا عن كل عائلة يزن... لا أحب تذكرك بما حدث لزوجته وابنته... ولا أحب أن أتخيل أولادي في هذا الخطر المحقق بكل عائلة يزن».

راقبت ابنتها بقلب معتصر المأثرهول باكية حتى غرفتها.

كانت ليلة ككل ليلة أوجاع منذ سُكنت الفيلا المقابلة.

وقفت في الصّباح الباكر تراقب الولدين يلهوان على الشّاطئ.

لر يفتها أنهما تجاهلا المرور عليها هذا اليوم أيضًا... وجدت عينها تنتقلان إلى الشّرفة المجاورة وكأن قلبها حدثها بوجوده... وما أثار رعبها أنه لر يكن ينظر باتجاهها... بل..

تابعت مثار نظراته لتجد اهتمامه الشّديد بلهو الصّبيين وابتسامة خفيفة ترتسم على وجهه، تمسكت بستار الشّرفة تحاول تقوية نفسها، واجترار أحزانها من جديد، لتساعدها على الصّمود أمام كل أمواج الضّعف التي تهاجمها واحدة تلو الأخرى... اشتدت أصابعها على السّتار حتى كادت تمزقه، عندما تقدم الحارس العملاق من الولدين اللذين تحفزا للقتال، ثم استكانا عندما قدم لهما جابر البرتقالات الثلاث.. دق قلبها بخوف عندما أشار جابر لأعلى فرفع الولدان رأسيهما وبادلا رائف التلويح بالشّكر، ثم انهمكا في التهام البرتقالات.. استدار رائف يدخل فالتقت أعينهما للحظة وجيزة.. أوماً بتحيّة مقتضبة، ثم دخل غرفته حتى قبل أن يتأكد من إجابتها..

شدت عودها، وأغلقت السّتار، واستدارت لتبدل ثيابها مذكرة نفسها بمواعيد عملها الجديد.. لا بد أن تكون مستعدة وحذرة..



لر تستطيع مداراة خيبة الأمل التي تجتاحها منذ أن وصلت لهذا المكان، لر يأت أو حتى يتصل للاطمئنان عليها.. تنهدت بقوة تحاول استرجاع أجمل لحظة في حياتها.. رغم أنّها لر تكن بكل الرومانسيّة التي تمنّتها، ورغم كل شكوكها

السابقة، وبالرغم من ظروف القبض على أخيها في التوقيت نفسه، فإنها لم تبخل على نفسها بالشعور بالسعادة لأنها تستحقها فعلاً.

بعد كل هذه السنوات التي عاشتها في حب صامت يائس لا أمل منه، وكل العذاب الذي تكبدته عندما ظنته يحب كروان.. ولكن تبين أنه يحبها هي؛ فقد طلب منها هي فقط الزواج، وحجز لها في هذا المشفى ليتأكد أنها ستكون بخير.. ولكن عدم اطمئنانه عليها، ولو حتى عبر هذا التلفون الأخرس منذ دخولها، لا مبرر له.. قد يكون مشغولاً.. أو ربما مريضاً.. أو أسوأ..

هزت رأسها بقوة لتنفض عنها الأفكار السوداء:

- «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

دخلت الممرضة تسألها بابتسامة ملائكية:

- «هل ناديتِ يا آنسة حنين؟».

- «لا.. شكراً لك يا أحلام.. ألم يسأل عني أحد؟».

ضمت أحلام شفيتها بإحراج، فالمسكينة منذ دخولها أمس الأول لا تنفك تسأل هذا السؤال حتى أصبحت الإجابة بديهية في كل مرة ولكنها لم تدرك هذا بعد:

- «بالتأكيد سيتصل.. ربما مشغول بشيء مهم... عفواً لا أعني أنك غير مهمة له».

سألتها حنين بارتباك:

- «كيف تعرفين أنني أسأل عن رجل؟».

- «هذه حالنا كلنا يا عزيزتي، اللفظة في عينيك، ترقبك، وانتظارك.. كلها

علامات الحب.. بالإضافة إلى أن الرائد وليد عزت هو الذي يدفع فواتير المشفى.. أخبرني موظف الحسابات (زوجي)».

- «هل أخبرك متى جاء ليدفع؟».

- «في أول ليلة لوصولك وضع مبلغاً تحت الحساب.. هل أتصل به وأخبره أنك...».

شهمت حنين:

- «لا.. شكراً لك.. سأنام الآن.. أرجوك أسدلي الستار؛ لا أرغب بوجود أي ضوء في الغرفة».



لاحظ أنه يقرأ الكتاب منذ وقت طويل، ولم يقلب ولا صفحة واحدة...
تنح مرة، واثنين ليوقظه من أحلام يقظته... وأخيراً اضطر لمناداته:

- «خير يا حضرة الرائد... قضية جديدة، أم حب جديد؟».

انتفض وليد في مكانه فقفز الكتاب من بين يديه وكأن الحياة دبت في صفحاته فجأة.. أمسكه ووضع في حجره محاولاً التهدئة من انفعاله وهو يرد بهدوء مفتعل:

- «لا هذا ولا ذاك.. أنا أقرأ كما ترى».

اشرب بعنقه ليطالع الكتاب وسأله:

- «وما فكرة الكتاب؟».

فتح وليد الكتاب وأخذ يقلب في صفحاته:

- «لا شيء.. عادي...».

- «عادي.. ولكنه يبدو مملًا.. منذ ساعة كاملة لم تقلب الصفحة... كما أنّ الكتاب مقلوب الآن».

نظر وليد للكتاب ليجد أنه على حق... تنهد بعد أن كف عن الادعاء:
- «أنت على حق.. أنا لم أكن أقرأ».

- «إذن.. حب جديد!!»..

- «بل قديم... قديم جدًا، بابا.. في الحقيقة أنت الوحيد الذي ستساعدني في اتخاذ القرار الصائب».

وبعد أن استمع له للنهاية... استمر الصمت للحظات وكأنه يعيد تقييم الأمور:

- «أنت ترغب بسماع رأيي يا وليد... متأكد؟».

- «بالتأكيد يا بابا وإلا ما سألتك».

- «لقد خيبت أملي فيك.. أنا لم أربك نذلاً وجباناً... تصرف طفولي الذي دفعك لتتقدم من فتاة للزواج، وأنت لا تقصد الزواج بها.. هل علمت يوماً أن الرجل كلمة؟.. هل علمت يوماً أن شرف الرجل في كلمته؟، أنت ضربت كل هذه القيم عرض الحائط لتغيظ فتاة لا تفكر بك، ولم تُعطك أي أمل في أي يوم من الأيام... ثم سولت لك نفسك أن تعشم فتاة أخرى أنت متأكد من حبها لك بالزواج... ثم تركتها بهذه الطريقة الحقيرة، ولا حتى تملك الشجاعة الكافية لتقف أمامها وتراجع عن وعدك... أنت الرائد وليد عزت لا تراجع، ولكنك تنسحب كالجناء من ميدان المعركة... يا خسارة تربيتي... حمدًا لله أن أمك (رحمها الله) لم تعش لهذا اليوم، الذي ترى فيه ابنها بلا شرف، لأنه لم يحافظ على كلمته».

- «بابا.. افهمني أرجوك.. لو تعلم من يكون أخو الفتاة..».

- «هل كنت تعلم بظروفه عندما عرضت عليها الزواج؟».

أطرق رأسه: «نعم».

هز الأب رأسه بأسف:

- «سألتنى النصيحة.. والآن أنت تعرف رأيي بالموضوع... الكرة في ملعبك

يا.. وليديه».



كانت الفيلا ما تزال ترزح تحت هدوئها المقبض، حياها جابر بمرح استغربته، وفتح لها البوابة لتدخل:

- «صباح الخير يا أنسة».

«صباح الخير يا جابر... كيف حالك؟».

أوما لها وهو يعيد غلق البوابة ويجلس خلفها موجهًا وجهه ناحية البحر، وكان تحية الصباح هي المسموح بها فقط للحراس أمثاله... توجهت رأسًا للمطبخ.. كان شبه كامل إلا من الكماليات التي لا تهتم بوجودها فتاة عاملة مثلها... كغسالة الأطباق مثلاً... شرعت بغسيل تل من الصّحون المتسخة.

تلبّسها شيطان النشاط فأنهت عملها في وقت قياسي، وشرعت بتحضير الفطور للرجال الثلاثة، لكن حدث ما كانت تخشاه، فاستغلت الذكريات حبيسة أعماق البئر السحيق لحظات ضعفها التي تزداد عندما تكون قريبة منه، وبدأت بالهجوم... ولم تكن أيّ ذكريات بل أشدها ألمًا.. كانت حيّة لدرجة أنها كانت تشعر بأنفاسه التي لطالما اختلطت بأنفاسها، وهو يهمس لها بأرقّ الكلمات... حتى فقدت إدراكها في حبه.. خاصة وهو يتغزل فيها

بكل جرأة مكنته، بعد غزو قلبها، من أسر كل حواسها ومشاعرها لحسابه، أحبته... أحبت لمساته وطريقته في احتواء كيائها جسداً وروحاً... ذابت شخصيتها بكامل رضاها تحت هيمنته، ورجولته المسيطرة... كانت تستلذ بالشعور بكامل ضعفها وأنوثتها، كلما زاد عنفوانه الذكوري.. أفلت طبق زجاجي من يدها ولم تدرك إلا عندما لسعت ساقها شظياته المتناثرة على السيراميك:

- «انتبهي يا كروان.. هل أنت بخير؟».

رفعت رأسها بوجه ممتنع شاحب:

- «عم عبده... أنت هنا؟ أنا حقاً آسفة».

- «لا عليك.. هذا مجرد طبق.. المهم ابتعدي عن هذه الشظايا... أنا سأنظفها... أراكِ حضرتِ الفطور.. احلمي طعام رائف بيه، وتدبري أمرك معه... لقد وضعت قائمة بمواعيد أدويته على باب غرفته، وأنا سأنادي جابر بعد تنظيف المكان».

ترددت: «ولكن!!».

حدجها بنظرة متسائلة فأومأت تعض شفيتها:

- «حسنًا.. لا بأس..».

حملت صينية الطعام واستمدت قوتها بالتنفس بعمق عبر زفرات وشهقات طويلة... وعندما وصلت لباب الغرفة كانت قد نجحت في وضع قناع من البرودة لتشكل ستاراً عازلاً بين ذكرياتها التي ما زالت تموج في عقلها، وبين هذا الرجل الذي لا يفصل بينهما إلا... باب.

وقفت تقرأ الورقة الملصقة على الباب بمواعيد الأدوية، حفظتها عن ظهر

قلب، قبل أن تطرق الباب بطريقة خفيفة، عندما لم تصلها إجابة استمدت المزيد من الشجاعة من داخلها المرعوب، وهي تفتح الباب وتدخل متحفزة ومستعدة بكل أسلحتها، التي ما لبثت أن أنزلتها كلها عندما وجدته نائمًا على بطنه مستغرقًا في أحلامه... وكأنه نام بسرعة بعد انتهى من مراقبة الأولاد من الشرفة... ملاحه كانت منقبضة، أحيانًا متجهمة أو متألّمة.

داهمتها ذكرى من أطلالها.. كان دائمًا مبتسمًا أثناء نومه وعندما سألته عن السر أخبرها لأنها لا تفارق أحلامه.

وضعت حمولتها جانبًا، وركعت أمام فراشه تتأمل بحرية لم تُتَح لها سابقًا... منعت أناملها من أن تلمس ندوبه الملتئمة حديثًا... لم تنسَ المرة الأخيرة عندما ضبطها متلبسة.. كان وجهه غريبًا لم يكن بهذه النحافة من قبل... صدغاه لم يكونا غائرين بهذا الشكل، وكل هذه الندوب التي فشل شعر لحيته الكثيفة في مداراتها، لا عجب أنها لم تتعرف عليه، فكم يختلف عن الرجل الذي أحبت. [هل ما تعانيه هو القصاص العادل لما فعلته بي وبأولادك، ولكن حتى أنت لا تستحق كل هذا القدر من العذاب].

ظلت كلماتها مجرد أفكار، كانت تحلم باليوم الذي ستواجهه فيه وتصب عليه كل حصاد عذابها طوال السنوات الماضية، جفلت فزعة عندما تحرك الجسد المسترخي بشكل مفاجئ، وأخذ يتلوى ويصرخ كأنه يعاني كابوسًا مرعبًا.. خافت وتراجعت، فتح عينيه ليزداد خوفها.. كانتا محمرتين وكأنهما تنزفان... حدّق فيها بقوة وكأنه يحاول البحث عن اسمها بين خلايا مخه ولا يجده، تلفت حوله بضياح يستغرب وجودها، أو وجوده في المكان... صدره يعلو ويهبط بلهات متلاحق وكأنه يركض في سباق الماراثون... وصرخ بحدة يسألها:

- «مَنْ أنتِ؟.. وماذا تفعلين هنا؟».

جمّدها السّؤال لحظات ثم تذكرت اسمها:

- «أنا... كروان».

بدأ الهدوء يعود له بالتدرّج مرددًا اسمها في فمه ببطء وكأنه يتذوقه، أعاد رأسه للوسادة متمتمًا بجفاء:

- «تذكرتك.. كيف دخلت هنا بدون أن تطرقي الباب... ألا تخجلين من رؤيتي من دون ملابسني؟».

هتفت بحدة دون أن تترك له الفرصة لإرباكها:

- «ليست المرة الأولى أو الأخيرة التي أرى فيها رجلاً شبه عارٍ... كل الرجال في الصّيف يتخلون عن معظم ملابسهم... اعتدنا في بلطيم هذه المناظر، خاصة في موسم الصّيف».

- «لر أدوّن الوقاحة من ضمن متطلبات الوظيفة».

هتفت بتحدّ:

- «لك كامل الحرية بطردي، ولا تقلق لن أعود لأبكي على كتفك لتعيدني».

- «تبدين وكأنك واثقة من عدم طردي لك».

- «لر لا تفعل إذن وتثبت أن ثقّتي في غير محلها؟».

فكر لحظات، ثم قال بصوت منهك:

- «للأسف لا أستطيع... لو فعلت سيبحث عبد الحميد عن بديلة لك... قد تكونين وقحة ولكنك أفضل من أن أبلى بغيبية متملقة».

- «أتعني أنك على استعداد للتغاضي عن سلوكي السيئ، ما دمت لا أفكر بنشب

مخالبي النّهمة فيك؟.. لا تكن واثقًا تمامًا من نبل أخلاقي، في النّهاية لست سوى خادمة تعمل من أجل لقمة عيشها».

- «بل أنا متأكد أنك لا تحبينني كثيرًا... وهذا جلي الوضوح في عينيك منذ لقائنا الأول»..

تمت بشحوب:

- «لقاؤنا الأول!!»..

ثم أردفت بحدة زائدة:

- «أنت على حق.. أنا لا أحبك فعلاً.. ولا نيّة لي إلا في إنهاء عملي كما هو مطلوب مني، والذي أرجو أن ينتهي في أسرع وقت».

- «والصبيان؟».

التفتت بحدة:

- «وما عنهما؟.. أعني أنك استخدمتني وحدي من دون مشتملاتي، فلا تتوقع أن تشير بإصبعك ليدلّك لك أحدهما ظهرك، بينما يقطع لك الآخر أصابع قدميك».

هتف بحدة مماثلة متعجبًا من هجومها الشرس:

- «كلا يا آنسة كروان، أيًا كانت فكرتك عني فلست ذلك الإقطاعي الذي يخلو لخيالك الجامح تخيّل، بإمكانك الاحتفاظ بأخويك بعيدًا عن مخالبي وأنيابي القدرة».

وقفت مذهولة.. ليس من هجومه ولكن من تلك الأحاسيس التي صدمتها كإعصار ناري داخل عاصفة هوجاء، وقد امتزجت فيه المشاعر المتناقضة من الشّعور بالذنب إلى الرّغبة المتوحشة، وكأنها حبيسة بركان موشك على الانفجار:

- «أنا.. أنا سأعد لك دواء ما قبل الطعام».

وبحركات شبه آليّة بدأت بالتنفيذ.. لاحظت بنظرات مختلطة مقدار معاناته حتى تمكن من الجلوس في مكانه، راودتها نفسها أكثر من مرة أن تقدم له يد العون، ولكنها تراجعت مدركة أنه لن يتقبل منها أيّ مساعدة أبداً، ولو كانت حياته على المحك..

كان يحاول تنظيم أنفاسه حتى لا يظهر عليه أثر المجهود الذي بذله، فأخر ما يحتاجه نظرات الشفقة التي هو بغنى عنها، خاصة من ذلك القنفذ الشائك. قدمت له الدواء بملامح خالية من أيّ تأثير.. تناوله منها بزفرة ضيق، وأتبعه بكوب الماء.. وضعت صينية الطعام على ساقيه فدفعها باشمئزاز:

- «لا أريد طعاماً».

هزت أكتافها بقلّة اكتراث، رفعت الصينية ووضعتها جانباً وهي تمط شفتيها:

- «حسناً، كما تشاء».

ثم جلست باسترخاء على المقعد المقابل لفرشه وركزت عينيها عليه تحديق به بدون أن ترمش... بادلها النظرات لبعض الوقت، وكأنه يحاول فهم سر تصرفها.. ثم سألها:

- «هل من سبب وجيه لاحتلاك مقعدي، وتحديقك المستمر بي؟».

أجابته بصوت جاف دون أن تزيح عينيها عنه:

- «أنا أحدق بك أنت!!... أنت تطري نفسك... وكأنك تتمنى!!»..

مرت لحظات أخرى من التحديق المركز من جانبها، عاد يسألها بصبر على وشك النفاد:

- «أليس لديك أي عمل ما... هنا أو هناك؟».

أجابته باقتضاب دون أن تحيد:

- «بالطبع.. ولكنني أتبع جدولاً لا أتجاوزه، والآن وقت تقديم إفطارك، ولن أتزحزح قبل الانتهاء من هذا البند».

مرت لحظات أخرى كادت تشم رائحة احتراق أعصابه حتى صرخ بإذعان:
- «حسنًا.. أعطيني هذا الطعام».

نهضت ببرود وتثاقل وكان الأمر لا يعينها، أعادت الصينية على ساقيه.

مرة أو مرتين كادت تتخلي عن القناع الخشبي الذي يكسوها لتضحك من طريقته السريعة في التهام إفطاره... حتى انتهى في سرعة قياسية، دفع الصينية إليها صائحًا بنزق:

- «هاك... الآن يمكنك البحث عن عمل غيري؟».

أجابته باقتضاب:

- «لا.. ليس قبل تناول دواء ما بعد الطعام».

همس بعناد:

- «وإن رفضت تناوله.. هل ستجلسين أمامي تحدّقين بي طوال النهار؟».

- «طالما يستلزم الأمر.. نعم، سأفعل بسرور».

خرجت من الغرفة لتسمح لنفسها أخيرًا بظهور ملامح الانتصار على وجهها، تكتم فمها بيدها كي لا يسمع ضحكاتها، لتجد العجوز عبد الحميد مستلقيًا أرضًا من الضحك حتى تقطعت أنفاسه:

- «عم عبده!!».

همس بعينين دامعتين من كثرة الضحك:

- «هذه المرة الأولى التي أرى فيها رائف يبه يُجَبَّر على شيء لا يريد... ومن مَنْ؟ من فتاة.. والمدهش أنه لم يكن أمامه خيار إلا الإذعان».

أجابته بصوت جاد وهي تختلس النظرات للباب المغلق:

- «قريباً ستتوافر له الخيارات عندما تلتئم جروحها ويتمكن من الحركة بحرية أكبر».

- «أنت على حق.. ولكن حتى يحين الوقت سيكون قد قل اعتماده على الدواء؛ فلن يكون بحاجة إليه.. ولكن من أين تعلمت هذه الطريقة؟ لا ترمقيني بتلك النظرة تعلمين أنني أتحدث على الأبواب دائماً».

أجابته مبتسمة من صراحته:

- «رائف مثل كل رجل في وضعه، يأبى أن تحدّق به امرأة، خاصة وهو على هذه الحالة من الضعف، كما أنّ لديّ اثنتين من صنفه في البيت.. أعني... أعني إخوتي... عندما يمرضون يظنون أن رجولتهم على المحك ولا بد أن يحافظوا عليها لآخر رمق. بإذنك سأذهب لأنهي عملي».

راقبها بحيرة تهوّل متعثرة من شدة ارتباكها، وكأنها تهرب من شيء ما... حك فكه بيده مفكراً.. الآن فقط ازداد يقينه من وجود سر ما يجمع بين هذين الاثنتين... فليست مصادفة أن يستأجر رائف هذه الفيلا، التي وبالمصادفة أيضاً تسكن بجوارها فتاة كان يردد اسمها بشكل مستمر منذ أفاق من الغيبوبة التي أصابته بعد الحادث الأليم، الذي كاد أن يودي بحياته... كما أنّ الفتاة نفسها من أغرب الشخصيات التي قابلها في حياته... رغم رقة حالها، والضائقة المالية التي تعاني منها، لم تتشبث بفرصة العمل التي قدمها لها على طبق من ذهب،

بجوار رجل تعتبره معظم النساء حلم حياتهن... ولكنها وافقت على مفض
 وكأنها تمد يديها في جحر الثعابين..
 وكم كان محققاً في إحساسه هذا!!
 هز العجوز رأسه بنظرة تحدُّ وقد عقد عزمه على كشف النقاب عن كل هذه
 الأسرار... ولكن... من سيفضي بما في جعبته أولاً: السيد.. أم الفتاة؟



طريقة صغيرة على الباب جعلتها تنتفض من مكانها وهي تسوي فراشها وملابسها
 بارتباك، ثم هتفت بصوت متقطع:
 - «تف... تفضل بالدخول».

أطلت كروان برأسها من الباب، فزفرت حين الهواء المحتبس برئيتها وقد
 تكسرت ملامحها.

شعرت كروان بما انتابها، وكأنها بانتظار زائر غيرها... الأمر لم يحتج لذكاء
 لتعرف أن وليد لم يزرها حتى الآن... هتفت بنبرة حزينة:

- «هل يعني استقبالك هذا أن أعود من حيث أتيت؟».

لوحث لها بيدها لتدخل وهي تمسح دمعة سالت خلسة.

ركضت كروان نحوها واحتضنتها بقوة للحظات... ثم أبعدتها حين تحاول
 أن تتظاهر بالقوة:

- «أنا بخير أيتها البلهاء.. ولكن...».

سألته كروان عندما أوجعتها نظرتها الضائعة نحو الباب المغلق:

- «لم يأت.. أليس كذلك؟».

سألته حين بلهفة:

- «هل تحملين أخباراً منه؟ هل هو بخير؟».

أومات كروان بتردد:

- «بالطبع هو بخير. ولكنه بالتأكيد لم يتأخر عنك بمحض اختياره.. تعرفين عمل ضابط الشرطة، لقد... لقد أرسلوه في مهمة سرية.. استطاع أن يتصل بي ويخبرني لأطمئنك عليه».

تنهدت حين بزفرة راحة طويلة، والابتسامة تعود لشفيتها وعينيها المغرورقتين بالدموع:

- «كنت أعلم.. إنه رجل يمكن الاعتماد على وعوده.. لم تساورني به الشكوك أبداً... كروان.. هل أخبرك سراً، كنتُ دائماً بيني وبين نفسي أشعر أنه يتمناني أنا.. لا أريد أن تتهميني بالغرور.. أنتِ أجمل مني بالطبع، ولكن وليد هو نصيبي من الدنيا... كروان.. هل ضايقتِ كلامي؟».

هزت كروان رأسها بقوة تحاول التعبير عما تشعر به بالكلمات دون أن تفسد سعادة صديقتها، ولكن الغصة التي تجرت في حلقها منعها من الرد الفوري... انتظرت حتى بدأت تستعيد الهواء لرتبتها المنقبضتين، وهي تربت على يدي حنين:

- «وتنعتيني أنا بالبله؟.. ذكريني بلحظة واحدة فكرت فيها في وليد خاصتك هذا كزوج لي... هل فقدت الذاكرة مع عقلك؟».

تمت حين تستمتع بمذاق الكلمة:

- «وليد خاصتي».

ثم تنهدت بقوة وهي تعيد رأسها على الوسادة:

- «هذه أجمل كلمة خرجت من فمك.. طبعًا بالإضافة إلى أنك لم تفكري فيه كزوج.. هذه كانت جيدة أيضًا، لم تخبريني كيف حال المطعم.. هل تسير أموره بخير من دوني؟.. هل يفتقدني ماهر؟».

رسمت كروان بملاحظتها وجهًا يَخْتَنق:

- «لا تذكريني؛ لقد كاد أن يتجاوز حدوده أمس عندما ظن أنني سأتذلل له لغيابي في اليوم السابق.. ولكن يبدو أنه لا يعرف من هي كروان بعد».

نظرت حنين لساعة الحائط:

- «يجب أن تذهبي الآن كي لا تتأخري وتعطيه فرصة أخرى ليتناول عليك».

تمسكت كروان بالفرصة التي أتاحها لها صديقتها لتنتهي الزيارة فقبلتها على عجل:

- «أنتِ على حق.. لا تقلقي؛ سأحاول أن أمر عليك غدًا في وقت مبكر كي نقضي وقتًا أكبر في الترتبة... إلى اللقاء.. اعتني بنفسك».

تعجبت حنين فهي لم تُتَح لها الفرصة للرد وهي تُنتهي آخر جملة وتسرع نحو الباب... لوّحت لها للمرة الأخيرة فبادلتها التلويح، قبل أن تختفي وتعود وحيدة تحدّق في الجدران البيضاء التي تحيط بها... ولكن هذه المرة مع بارقة أمل جديدة.

استندت على الجدار بجوار غرفة حنين تتنفس بعمق وكأنها كانت تحبس أنفاسها طوال وجودها بالداخل، كان إحساسها في محله.. وليد لا يُكِنّ أيّ مشاعر لحنين.. ما يزال يحاول الوصول إليها ولكن هذه المرة بطريقة مراوغة.. ألقّت نظرة حزينة على الباب المغلق.. وتنهدت بقلب موجوع.

هَمَّت بالذهاب فاصطدمت بباقة من الزهور... اعتذرت لعدم انتباهها وهي تتطلع لأعلى فعلمت الكلمات في حلقها:
- «أعتذر لـ... أنت!!».



تطلع ماهر في ساعة يده بتوتر يشوبه غضب مستعر أسفل قناع وجهه الراقى، والذي يحرص دائماً أن يكون واجهة مثالية لزبائن المطعم، ضرب بيده على حافة مكتبة:

- «هل تختبرين صبري يا كروان هانم؟.. أم تقيسين مقدار حبي لك؟ هل تتلاعبين بي؟ لو كانت النتيجة كما أرغب فأهلاً بالألعاب... أما إن كان هدفك مختلفاً عن هدفي... فالويل لك».

ثم صرخ ينادي:

- «رويدا.. رويدا..».

دخلت رويدا المكتب مسرعة:

- «خيرًا يا أستاذ ماهر».

أشار لها بسببته:

- «أنتِ أخبرتني أن كروان تُكِنِّ لي عاطفة... أليس كذلك؟».

امتقع لونها وفركت يديها وهي تومئ بارتباك:

- «طبعًا.. هذا ما سمعته منها، ولماذا سأكذب عليك؟.. هي قالت لي بعظمة لسانها الطويل».

تنهد بارتياح وابتسامته تحل محل العبوس:

- «لو حصل المراد يا رويدا، سأرقيك لتكوني (متر دو تيل) المطعم».

اتسعت عينها بسعادة:

- «أحقًا يا أستاذ ماهر؟».

«بالطبع، وسأضعف راتبك، وكل طلباتك مجابة.. ولكن أخبرني صديقتك أن تخفف من دلالها قليلاً... فما عدتُ أحتمل».

- «حاضر.. حاضر يا أستاذ ماهر، سأخبرها وإن شاء الله سنبارك لكما قريباً». مد يديه في محفظته وأخرج ورقة نقدية من فئة المائة جنيه، أمسكتها بلهفة تحتضنها:

- «أدامك الله لنا يا ماهر بيه.. جزيل الشكر...».

أشار لها بيده لتخرج فتراجعت بظهرها حتى وصلت الباب.. ابتسمت باعتذار وخرجت تحدق في الورقة النقدية وكأنها تبثها عشقها.



من نافذة مكتبه التي يراقب منها المطعم رآها بين الموائد تدون طلبات الزبائن، نهض من فوره انتظرها حتى دخلت تسلم الطلبات للمطبخ:

- «كروان.. تأخرت اليوم!!».

- «قمت بالنيابة عنك بعمل واجب يا أستاذ ماهر».

تساءل بدهشة:

- «أيّ واجب هذا؟».

- «زيارة المريض، أخبرتك أمس أن حنين في المشفى.. لم تكلف خاطرِك بزيارتها كما فعلت كل البنات، وأنت أولى منا بهذا الواجب...».

أطرق قليلاً ثم رفع رأسه:

- «أنتِ على حق.. كيف فاتني هذا الواجب!!.. شكراً لك لأنك ذكّرتني...

أول مُهمّة سأقوم بها في الصّباح هي زيارتها».

أومأت برأسها باستغراب فقد كانت تتوقع شجاراً وتبادل ألفاظ، وآخر شيء

أمّلت فيه أن يوافقها ماهر بل يعدها بزيارة حنين... فكرت..

«لا بد أن هذا الرّجل شرب مشروباً أصفر أثر على قواه العقلية».

- «هل تتحدثين مع نفسك يا كروان؟».

- «من حقي يا ماهر بيه، فأنت تبدو مختلفاً تماماً عن الرّجل الذي خصم يوماً

من راتبي أمس».

لوّح بيده بحدة:

- «لم يحدث.. من أخبرك بهذا، وهل أنا رجل منزوع الرّحمة لأخصم من راتبك

وأنا أعلم بظروفك القاسية، أنتِ دائماً تظلميني يا كروان... لا بد أن تتيحي

لنفسك الفرصة لتعرفي أيّ رجل كريم هو أنا».

- «أعتقد أن زوجتك لديها فكرة واضحة عنك، وهي الوحيدة التي يحق لها

هذا.. أليس كذلك يا... أبو عمر».

تجاوزته لتكمل عملها غير مبالية، تكاد ترى الدخان يخرج من أذنيه كلما

وقعت نظراتها عليه، لكزتها رويداً أثناء استراحتها:

- «هل سينقص من لسانك قطعة لو بللت ريق الرّجل بكلمة، أو نظرة؟».

- «أيّ رجل؟».

- «الأستاذ ماهر طبعاً، الرّجل يلاطفك ويتمنى لك الرّضا، وأنتِ تعاملينه أسوأ

معاملة».

عقدت كروان ذراعيها على صدرها:

- «ولم لا تلاطفينه أنتِ يا آنسة لطافة؟».

- «يا ليت... ولكن الأستاذ لا يرى غير كروان.. وكأنها عملت له سحراً».

- «ما رأيك أن تعلمي أنتِ السحر، يمكن الأستاذ خاصتك يعتق رقبتني ويرحمني من لطفه الزائد.. والآن هل ستركيني أكمل عملي؟!».

احتقنت بغیظ بعد ذهابها:

- «قال كروان قال.. المفروض يسمونك غراب... ناس لها بخت، وناس لها عبدالصمد».

كان بודהا لو اعترضت على كرم ماهر الزائد عندما سمح لها أن تعود للبيت مبكراً هذه الليلة... شكرته باقتضاب وتحركت لتغيير ثيابها أمام نظرات زميلات الحاقدة.

استسلمت حنين لأحلامها، وقد بدأت تزهر بأمالها التي جددتها كروان.. وكان أحاسيسها تنبأت بوجوده قريباً منها.. ولكنها لم تجرؤ هذه المرة على التوقع واكتفت بتنهيده حب وخيالها يتلاعب بملامحه التي تحفظها عن ظهر قلب.

أمسك بمقبض الباب ثم تركه.. تكررت الحركة عدة مرات وفي كل مرة يجبن. اتجهت عيناه رغماً عنه حيث اختفت حبيبته في الرّواق الهادئ داخل المشفى.

كل كلمة وكل حرف تلفظت به يحفظه عن ظهر قلب ويطعن قلبه بسكين نالر.. لم يتوقع أن تواجهه بكل عيوبه.. أو تهاجمه بهذا العنف.. أخبرته رأيها فيه بصراحة، ولم يعجبه.. وكأنها أقحمت مرآة بوجهه ليرى داخل نفسه،

الوجه الآخر الذي لا يراه غيره، ورأته الإنسانية الوحيدة التي يعشقها.. وبدون أن يعترف حتى لنفسه أدرك أنها لا يمكن أن تكون زوجة له أبدًا... ورغم ذلك ظل الأمل يتلاعب به بوحشية.. وهو ما دفعه أخيرًا لينهي هذه التمثيلية السخيفة للأبد.

اتسعت عينا حين.. غازي أحلامها في صحوها ومنامها.. دخل غرفتها ووقف يسد فتحة الباب بطوله المهيب.. رأته وكأنه وسط غيمة كثيفة من الضباب.. وعيناه تتحدان مع عينيها بنظرات حب وشوق كبيرين.. أخبرها بلغة تخاطب العقول كم اشتاق إليها.. ردت عليه باللغة نفسها أنها ذابت كالشمعة بانتظاره، ولكنها توردت كوردة في موسم الربيع عندما هلَّ عليها بطلته المشرقة».

- «حين.. حين.. هل أنت بخير.. عينك مفتوحتان ولا تردين... حين».

انتبهت لصوته يخترق عالمها الوردي.. كان يأتيها من بعيد، واستمر بالاقتراب شيئًا فشيئًا، حتى شعرت بهزاته، وبوجهه قريبًا جدًا منها، بنظرته القلقة.. نظرت ليد الممسكة بيدها وشهقت:

- «وليد.. أنت حقيقي؟... أنا لا أحلم».

- «بالطبع لا تحلمين أيتها البلهاء.. ها أنا ذا أمامك».

بدون أن تتحرج مدت أناملها تلمس لحيته الخشنة.. ثم كتمت شهقتها قائلة بسعادة بالغة:

- «أنت هنا حقًا... لا أصدق نفسي... أنت لم تحلق لحيتك.. هل أتيت من مهمتك على هنا فورًا».

ارتبك.. فاندفعت دون أن تعطيه فرصة للرد:

- «أعلم.. أخبرتني كروان أنك كنت في مهمة خاصة، ولم تستطع الحضور

للاطمئنان عليّ.. أعذرك.. لا بأس هذا عمل ضباط الشرطة، وعلى زوجاتهم أن يتعلمن الحياة مع المخاطر أيضًا.. أليس كذلك؟»
أطرق رأسه وشدد على إمساكه ليديها بين يديه:
- «حين...».

هتفت تقاطعه بسعادة:

- «أخبرني الطيب أنني يمكن أن أغادر بعد يومين فقط.. أعلم أن الوقت ضيق، ولكنني لا أريد فرحًا ضخماً... أنت تكفيني عن الدنيا كلها».

عندما لاحظت صمته المتجهم.. وضعت يدها أسفل ذقنه المستندة على ثرقوته.. وتأملت ملامحه الرجولية بحب نطقت به نظراتها باللغة الوحيدة التي يتواصل بها البشر بدون كلام، بالإحساس.. كان يشعر بها، بسعادتها التي تطفو على ملامحها المكدومة... بعينيها المترقتين بدموع السعادة الشحيحة، التي لم تتقاطع مع طريق حياتها منذ وفاة والديها... كيف سيفعلها... هل يملك المرأة الكافية لديك أبراج فرحتها ويسويها بالأرض، ليطفئ ذلك البريق المتلألئ في عينيها.. دوى صوت والده في أذنيه كالصدى:

- «لقد خيبت أملي فيك... أنا لم أربك نذلاً ولا جباناً.. لقد خيبت أملي فيك... أنا لم أربك نذلاً وجباناً».

شعر بأصابعها تتخلل شعره بعد أن انكفأ بوجهه على يديها خجلاً من مواجهتها، وسمع صوتها المشروخ:

- «وليد.. لا بأس إن كنتَ لن توفي بوعدك لي بال... بالزواج».

رفع رأسه بزواية حادة وقد احتبست أنفاسه داخل صدره، وتعثرت بالخروج... كانت ملامحها كما هي لم تتغير... وأردفت بكذبة واهية لم يصدقها:

- لا بأس.. أنا أتفهّمك».

اللعنة لو كانت تفهم أيّ شيء، ولكن ها هي مرة أخرى تعيده أمام نفسه كما فعلت صديقتها من قبلها، ليراها وضيعة، وجبانة متشحة بأبعد صفة تخيلها بنفسه «الندالة» وجد نفسه يسألها باستغراب:

- ماذا تقولين؟ هل... هل تريدني أن أحلك من خطبتي؟ و... وهذا...».

أخرج من جيبه حلقة معدنية من الذهب مردفًا:

- «وهذه... ماذا أفعل بها؟».

اتسعت عينا حنين بشهقة كادت تفقدها النطق.. ضمت أصابعها العشرة لفمها تحدّق بالحلقة الذهبية تارة، وبوليد تارة أخرى، وهمست بخفوت وكأنها تخشى لو رفعت نبرة صوتها أن يتبدد حلمها الجميل:

- «هل.. هل هذا... لي... لي أنا؟».

تأمّله وليد ثم مط شفّيته:

- «لا يبدو على قياسي... أعطني إصبعك».

هتفت بسعادة:

- «لا... دعني أر ما كتبت عليه أولاً».

هم بالاعتراض ولكنها اختطفّت الدّبلة من يده:

- «حنين.. لا.. انتظري.. سوف...».

أمسكتها وأخذت تقرأ بصعوبة:

- إلى حب... يي... تي..

رفعت عينيها المغرورقتين بالدّموع إليه... ثم أكملت القراءة بصوت أجش:

- «إلى حبيبتى... حن...ين».

أمسكت بالدبلة وقبّلتها بقوة ثم مدت يدها له:

- «تفضل... ضعها في إصبعي».

ومدت أصابعها برشاقة... أخرج أنفاسه العالقة ببطء، أمسك بأناملها الرقيقة، ثم أدخل الخاتم في إصبعها والذي ناسبها تمامًا... وجد نفسه يطبع قلبه على الدبلة في إصبعها، ثم رفع رأسه إليها يتلقى دفعة من السعادة الخالصة من الضوء المبهر الذي يشع من وجهها الجميل، رغم الألوان المتدرجة فيه من الأزرق للبنفسجي للأصفر..

- «شكرًا لك... وآسفة لأنني ظلمتك».

شد على يديها:

- «لو كنت مكانك لشككت أيضًا... والدي كان يرغب بالتعرف بك».

شهقت بفرع:

- «وأنا بهذا الشكل».

ابتسامته الهادئة أعادت لها الطمأنينة:

- «لذلك أرجأت المقابلة... بعد يومين ستكونين بخير.. وما تبقى يمكن إخفاؤه بمستحضرات التجميل، سأزودك بجميع ما تحتاجين».

خبا توهجها دفعة واحدة، وهي تسأله وقلبها يقرقع في صدرها بضجيج مؤلم:

- «هل أخبرت والدك عني... وعن ظروفى؟... إياك أن تكون أخبرته أنني ابنة الوزير أو المحافظ... وليد؟».

ربت على يديها ضاحكًا:

- «لا تقلقي.. أخبرته بكل شيء عن والديك الشَّهيدين، وعن كل ظروفك».
قاطعته بحدة: «وزاهر؟».

أوماً بهزة خفيفة:

- «وزاهر أيضًا... ولا يزال يرغب في رؤيتك... لا تتعجبي؛ إنها إرادة الله».
دارت ضحكتها الخجولة خلف غطاء الفراش الأبيض، سألها بعتاب:

- «أهذا يعني أن موعد الزيارة انتهى؟».

- «لا.. لمر أقصد».

- «ومع ذلك لا بد أن أذهب؛ تأخرت على نوبة عملي، سأتصل بك... كوني بخير من أجلي».

- «وأنت أيضًا... كن بخير من أجلي».

قَبَل الدَّبْلَة فِي إِصْبَعِهَا مَرَّةً أُخْرَى ثُمَّ وَدَّعَهَا.

أغلق الباب خلفه في هدوء ووقف لحظات مستندًا عليه مغمض العينين...
حتى انتبه لصوت الممرضة:

- «هل أنت بخير يا أستاذ؟».

هز رأسه بارتباك وفي خطوات واسعة كان يبتعد عنها، وعن نفسه.

جلس في سيارته ساهمًا... تذكر كروان قبل أن يدخل لحين بقراره الذي اعتمده بعد تفكير... نظراتها واحتقارها كانا واضحين... لم تتفوه بكلمة واحدة، ولكنها وضعت يدها في حقيبتها وأخرجت الدَّبْلَة وأعطتها له:

- «أنا أعرف ما تنوي عمله.. أراه في عينيك، ولكنني أرجو أن تحكّم ضميرك قبل أن تتفوه بأيّ كلمة للمسكينة التي تنتظرك بالداخل».

أمسك الدبلة يتأملها بتساؤل:

- «وما هذا؟».

- «هذا... إذا كان لا يزال يوجد بقايا ضمير داخلك، ستعرف ما هذا... وعندما نلتقي المرة القادمة، إما أن تعيده لي... أو تعطيني ثمنه... وداعاً يا... وليد بيه؟».

أعاد رأسه للخلف متأوِّهاً:

- «لقد راهنت يا كروان، كسبت الرهان، وكسبت صديقتك زوجاً، خسرتك وخسرت قلبي، ولكنني رجل لا يعترف بالخسارة، وإن لم أجد السعادة سأعمل على ألا يجدها أي أحد... حتى أنت يا كروان!!».

حثت الخطى في الطريق المظلم، رغم عودتها مبكرة هذه الليلة، ولكنها كانت ما تزال تتوق للتمدد في فراشها لتتخلص من إرهاق يومها المشحون... تمت لو واتها الشجاعة لتتصل بحنين وتعرف منها الأخبار... ولكنها خافت أن ترد عليها صديقتها بنبرة الحزن والدموع في عينيها.. كادت تدفع الباب عندما التفتت فجأة وكأنها سمعت نداءً.

لهثت من الخوف.. كان الظلام فقط هو ما يحيط بها وبالفيلا الغارقة في عتمتها.. حاولت تجاهل النداء مرة أخرى ولكن شيئاً ما دفعها لأن تغلق باب منزلها وتستدير باتجاه الفيلا، وقف جابر يفتح لها البوابة.. أوامات له بالشكر.. وسألته:

- «هل رائف بيه مستيقظ؟».

- «نعم يا آنسة كروان... وترك لي تعليمات أن أفتح لك البوابة في أي وقت تعودين فيه».

هزت رأسها بتردد شاكرة وهي تتجاوزه للدخول.. اتجهت للمطبخ مباشرة..
تفكر..

«لا شك أنه جائع، عبد الحميد ينام مبكراً، ويتركه بدون طعام أو دواء... بدأت في التحضير السريع عندما سمعت أصوات أقدام تقترب... لم ترفع رأسها توقعت أن يكون جابر جائعاً هو الآخر:

- «حالا يا جابر.. ساعد العشاء للسيد، ثم ساعد عشاءك، لا شك أنه غاضب وجائع».

شعرت بتمدد جذور شعرها عندما أتاها صوته الجاف:

- «نظراً لأنه اليوم الأول فقط، أجد صعوبة كبيرة في كبح جماح غضبي... أما الجوع فقد اعتدت التعايش معه مؤخراً».

التفتت ببطء لتجده مستنداً بصعوبة على إطار الباب.. ودون تفكير واعٍ بنتائج مبادرتها، وجدت نفسها تسرع لمساندته.

أمسكت بذراعه وطوّقت به عنقها ولقّت ذراعها الثاني حول ظهره، حدّق بقمة رأسها التي توازي كتفه باندهاش.. ثم استسلم، وهي توجهه نحو أقرب مقعد.

جلس يكتّم تأوّهه من آلامه بصعوبة... هزت رأسها بعتاب:

- «لماذا غادرت فراشك... لماذا لم تستدع أحداً؟».

انقلبت شفّيته بامتعاض:

- «لا أحد يسمعي.. شعرت بالعطش.. نزلت أبحث عن ماء فقط».

ناولته كوب ماء مثلج من البراد قائلة بحدة:

- «لا بد أن نصنع شيئاً لهذا الأمر.. غداً سأشتري لك جرساً كهربائياً وأضعه بجوارك.. بإمكانك الضّغط عليه في حال كنت بحاجة لأيّ شيء».

تأمّلها لحظات، ثم لوحت ابتسامة شفّيته الملتويتين:

- جرس كهربائي!!.. يبدو لي اختراعاً مذهلاً.. كيف لم أفكر به من قبل؟.. وهل تستطيعين تركيبه؟».

- «ليس كاختراع الذرة.. بالطبع أستطيع.. الزمن علمني الاعتماد على نفسي في أشياء كثيرة لم أظن أبداً أنني سأتعلمها يوماً ما.. لو رأيتني منذ عشر سنوات...».

كتمت شهقة كادت تخرج منها وهي تلتفت له بوجه شاحب يتأملها بحيرة، ثم حثها على الإكمال:

- «ماذا كنتِ قبل عشر سنوات؟».

وضعت أمامه صينية الطّعام:

- «من الأفضل أن تتناول عشاءك في المطبخ، طالما أنك هنا على أيّ حال».

لاحظ انشغالها، فتوقف عن مضغ الطّعام لمراقبتها.. كانت تتصرف بعصبية كعادتها:

- ماذا تفعلين؟

- «أعد السّندوتشات لجابر.. ثواني سأعطيها له وأعود لأحضر لك الشاي».

عادت بعد دقائق، كانت قد استعادت أنفاسها.. راقبها مرة أخرى تتحرك كالبنّودول حتى أوقفها:

- «كروان.. هل تناولتِ عشاءك؟».

- «نعم.. تناولت بعض اللقيمات مع الفتيات في المطعم».
- «أمم... بعض اللقيمات لا تبدو لي كوجبة لائقة، أنت بحاجة لوجبة تستحق اسمها... ألا تنظرين لنفسك في المرأة؟».
- «حقًا، لستُ جائعة».
- «حاولي التظاهر.. لقد سئمت تناول وجباتي وحيدًا».
- ذلك الانكسار في صوته قوّض كل اعتراضاتها، فوجدت نفسها تجلس أمامه تشاركه الوجبة..
- انشغلت بتناول اللقيمات بسرعة لتنتهي محتتها بسرعة، فقد كانت تشعر بمراقبته لها في كل حركة.. حتى انحسرت إحدى اللقيمات في حلقها، لم تستطع ابتلاعها أو إخراجها، احتقن وجهها ودمعت عيناها وهي تحاول السعال دون جدوى.. على الفور انتبه لحالها فخبط على ظهرها بقبضته لينزلق ما هو محشور بحلقها، وتستعيد لونها وهي تتنفس بعمق... نظرت له بخجل:
- «آسفة».
- «هذا جزاء من يأكل طعامه بسرعة... امضغي الأكل قبل بلعه... لا شك أنك تنصحين إخوتك بهذه النصيحة».
- تأوهت بأنين:
- «في كل وجبة أقسم لك.. يكادان يفقداني عقلي في بعض الأحيان».
- ودون أن تشعر وجدت نفسها تحكي له عنهما كل تفصيلا من تفاصيل حياتهما... وكان يستمع لها في البداية لمجرد إضاعة الوقت، ثم بدأ اهتمامه يتخذ منحى آخر، خليطاً من الشغف والفضول، وشيئاً من الحنين لا يعرف سببه ولا مصدره.

أخيراً.. صمتت مُحَرَجَة وهي تنظر لساعة الحائط خلفه وتصيح بارتباك:

- «يا إلهي لقد تركتني ساعة كاملة أترثر دون أن توقفي».

- «كنتِ تتحدثين عنهما بشغف، وأنا مستمتع بوقتي؛ لم أرغب بأن تتوقفي...»

أردتك أن تتكلمي للأبد».

- «عفوًا.. هل ذكرك بابتك؟».

مسحة ألم عبرت كالوميض على وجهه، هز رأسه بالنفي:

- «لم تجمعني مع ابنتي أوقات أستطيع التحدث عنها بإسهاب كما فعلتِ في

الحديث عن أخويك، بالكاد جمعتني بها مناسبات تعد على أصابع اليد الواحدة،

لا تستغربي، هذه كانت حياتي.. بالكاد كنتُ أجد الوقت لأسرتي، حتى في

الإجازات التي أتوق لها لأقضي معها بعض الوقت... تصطحبها أمها للسفر

معها في رحلة لأوروبا، أو أمريكا، وعندما حصل الحادث كانت المرة الأولى

منذ سنتين التي اجتمع بهما في...».

أغمض عينيه بقوة ليتجرع الألم، لمست يده فجفل واقفًا:

- «أنا آسف... لم أقصد أن أسبب لك الحزن بمأساتي... سأصعد لغرفتي».

- «سأساعدك».

أوقفها بحدة:

- «لا داعي.. سأعود كما جئت».

أمسكت بيده لتضعها حول عنقها بإصرار:

- «هل تتحدثني أيها السيد؟».

غمغم بانهمزام:

- «يبدو أنني لن أفعل».

لاحظت ارتعاش جسده وتعرّقه أثناء صعودهما... اقتربا من الغرفة، كانت تساورها الشكوك في قدرتها على الوصول به لغرفته... فقد كان جسده ينتفض وكأنه محموم، عندما ساعدته ليستلقي على الفراش... وضعت يدها على جبهته وهتفت بفرع:

- «أنت محموم... يا ربي.. ماذا أفعل؟ سأنادي عبد الحميد».

أمسكها من يدها التي كانت لا تزال تمسح العرق عن جبينه وهمهم بكلمات متقطعة:

- «الدو... اء... الدواء في الدرج.. أس... رعي...».

- «حاضر... حاضر.. ولكن أي دواء؟».

فتحت الدرج لتجده يعج بجميع الأشكال والألوان من شرائط الأدوية... أشار بيده المرتعشة:

- «ستجدينه... هن... اك».

سألته بارتباك: - «ما اسمه، ما شكله؟».

دفعها بعنف وأخذ يبحث بنفسه حتى عثر على دوائه، رفض مساعدتها بخشونة وهو يتلعح حبتين دون ماء.

حاولت مناولته كوب الماء فلوح بيده رافضاً:

- «لا... لا أريد.. اتركيني... واخرجي».

أشارت للأدوية التي تمسك بها وهي تقرأ ما عليها:

- «هذا الدواء ليس موجوداً في الجدول الذي أعطاه لي عم عبده... ما هو؟!».

وبقوة لم تتوقع أن يتمتع بها جسده المنهك نهض من الفراش واستمر بدفعها حتى ألقاها خارج غرفته صارخاً:

- «ألم تسمعي... أمرتك أن تخرجي».

ثم صفق الباب غير عابئ بما أصابها عندما سقطت على ركبتيها، وهو مستمر بدفعها بخشونة وقسوة لم تتوقعها.

مسحت دموعها ونهضت بصعوبة تحددق بالباب المغلق بذهول، تتساءل ما الذي حصل له فجأة وكأن شيطاناً تلبّسه، وقعت عيناها على شريط الدواء الذي أعطته منه، وكان لا يزال في يدها، همت بالطرق على الباب لإعادته... ثم تراجعته خوفاً من أن يزداد غضبه لو أزعجته مرة أخرى.. جرّت قدميها يغمرها بؤس شديد.. تتذكر بأسى منذ دقائق فقط كانت تثرثر وهو يستمع لها بهدوء... ذكرها بالرجل الذي كان عليه، مختلفاً تماماً عن الرجل الذي دفعها خارج غرفته بكل قسوة... لم تسمع تحية جابر وهو يفتح لها الباب... ولم تشعر بنفسها حتى وصلت لغرفتها... أغلقت الباب وتركت لنفسها العنان تبكي مستعيدة صداقتها الوثيقة بدموعها منذ سنوات طويلة.

عادت مرة أخرى تتطلع لشريط الدواء الذي طلبه بلهفة.. والعجيب أنه لم يكن من ضمن أسماء الأدوية في القائمة التي أعطها لها عبد الحميد.. نهضت بخفة ودخلت غرفة الولدين.

اطمأنت لاستغراقها في النوم وفتحت جهاز الكمبيوتر الخاص بهم..

وضعت اسم الدواء في شريط البحث وجلست بانتظار النتيجة.. التي جاءت بعد ثوانٍ معدودة.. وكادت تسقط من المفاجأة الصادمة.

في الصباح أثناء عودتها للفيلا، كانت قد قررت مرة أخرى، وهذه المرة دون تراجع، لن تتورط عاطفياً مرة أخرى أبداً.

حضرت طعام الإفطار بعد عدة كلمات مقتضبة مع عبد الحميد.. راقبها بدهشة تصعد لغرفة رائف وكأنها إنسان آلي... بعد طريقة واحدة على الباب دخلت بقناع خشبي، وكأنه بانتظارها، حاول الكلام، لم تُعطه الفرصة.. وضعت صينية الطعام أمامه ثم التفتت لتعد دواءه... وضعت الحبات في كوب بلاستيكي صغير، ووضعت جواره، وجهزت كوب الماء.. كانت تلاحظ نظراته القلقة تتابعها.. ثم التفتت نحوه أخيراً:

- «هل من أوامر أخرى؟».

- «ألن تنتظري حتى تطمئني لتناولي دوائي وطعامي؟».

- «لا؛ أنت رجل كبير كفاية لتعرف صالحك.. بعد إذنك».

وصلت للباب ثم عادت له تمد يدها بشريط الدواء الذي تحتفظ به قائلة بنبرة اتهام:

- «ربما تبحث عن هذا.. أو ربما تحتفظ معك بالمئات منه.. لقد نسيتته معي عندما ألقيت بي أمس خارج غرفتك».

ثم ألقته أمامه ليقع بين أطباق الطعام.. أوقفها قبل أن تفتح الباب:

- «كروان.. انتظري... أنا...».

رفعت حاجبها باستهجان:

- «ماذا؟.. آسف، أنت لمر تخطئ بحقي، أنت مدين بالاعتذار لنفسك، فهي

التي تتحطم، وهي التي تقتلها ببطء، ودون أيّ وازع من ضمير».

دفع الصينية لتسقط كل الأطباق محطمة على الأرض:

- «أنت لا تحاكميني.. لا أحد يحق له محاكمتي».

ردت بهدوء متأملة الفوضى حولها:

- «أنت مُحق.. أنا لا أفعل... عن إذنك»..

أغلقت الباب خلفها بهدوء، تستمع بقلب مجروح لصراخه وهو يقلب الغرفة رأسًا على عقب محطماً كل ما تطاله يده.

التفتت لتصطدم بعبدالحميد.. مسحت دموعها بسرعة متأخرة كي لا يراها... هز رأسه مختلساً نظرة آسفة للباب المغلق:

- «كيف علمت؟».

- أنت تعرف؟!!

هز رأسه بضعف:

- «لا تُلقني بأصابع الاتهام نحوي يا آنسة... لقد علمت متأخراً، ولهم يكن بيدي شيء».

اختنقت بعبراتها:

- «إذن.. ستتركه يموت».

- «أنتِ تركته».

صرخت:

- «أنا لا أعرفه».

- «عجباً... ولماذا الاهتمام بأمره إذن؟».

استرقت نظرة على الباب وهزت رأسها بقوة:

- «لأنه... لأنه مجرد إنسان.. وهو بحاجة للمساعدة.. عليك أن تساعد..

لا بد أن تساعد».

غادرت الفيلا مسرعة قبل أن تزداد ضعفاً، وفعل الشيء الوحيد الذي لا ترغب بفعله حقاً، ولكنها تندفع نحوه بعشوائية ودون وعي.

وصلت للمشفى.. ألقى نظرة على المبنى الكبير قبل أن تخطو على درجاته بعد أن تسلحت بعدة دفعات من هواء الصباح المنعش... توقفت قبل أن تصل لمنتصف الدّرج وهي تسمع من ينادي باسمها.. التفت لتجد وليد بانتظارها... ولم يبدُ عليه أنه نال أيّ حظ من النوم هذه الليلة:
- «وليد بيه؟».

مد يده ببعض الورقات المالية من فئة الخمسين جنيهاً... حدّقت بالنقود ثم رفعت رأسها لتنظر لوجهه الخالي من أيّ تعبير بالفرح أو الحزن.. أخذت المال ووضعت في حقيبتها متنفسة بعمق... ثم ولّت ظهرها لتكمل صعودها، تشغلها فكرة واحدة.. لا بد أن حنين تطير من فرحتها الآن:
- «كروان..».

تجمدت الدّماء في أوردتها وهي تلتفت نحوه مرة أخرى:

- «أتمنى أن تكوني سعيدة، بسعادة صديقتك».

- «أنا متأكدة أنك اتخذت القرار الصحيح».

- «سنرى يا كروان... الزّمن وحده كفيل ليبين لنا إن كانت اختياراتنا صحيحة، أم ستكون سبباً آخر لتعاستنا».

قال كلماته المسمومة، وركب سيارته وانطلق بها وهي تقف تتابعه حتى اختفى وسط الزّحام.

كما توقعت كانت حنين تطير دون أجنحة... قضت معها معظم النّهار، فكانت لا ترغب في العودة للبيت أو الذهاب للمطعم مبكرة... اتفقت مع

صديقتها على المهام التي ستقومان بإنجازها في تحضيرات الزفاف الأيام القادمة،
لتجهيز العروس لعريسها..

لاحظت حنين شرود صديقتها فربتت على يدها تسألها بود:
- «عزيزتي.. ماذا يشغلك؟».

- «لا شيء.. أنت فقط... اعطني بنفسك».

- «كروان.. لن أتمتع بأي سعادة وأنا أراك مهمومة... أخبريني، أم أنها أخبار
غير سارة ولا ترغبين في التسبب بحزني، هل هي أخبار تتعلق بزاهر؟».
نفت كروان بشدة:

- «أنا لا أعرف عن زاهر أي شيء؛ اطمئني، الموضوع أنني... فكرت جيداً...
وقررت أن أعطي فرصة ل... لماهر».

شهقت حنين بشبه صراخ:

- «ماذا؟ أي ماهر... ماهر هذا... ماهر الذي نعرفه؟».

- «نعم يا حنين ماهر... أنت كنتِ تحاولين إقناعي منذ أيام قلائل.. أليس
كذلك؟».

- «وسترضين أن تكوني الزوجة الثانية؟.. أنت يا كروان؟».

هتفت دون اقتناع:

- «نعم.. ولير لا... طالما الرجل قادر على فتح بيتين، وعلى العدل بيننا... فلم لا
أفكر جدياً؟».

شدت حنين على يديها بقوة:

- «كروان.. انتبهي لأصابعك.. ماهر رجل ليس من السهل التلاعب معه، أو به».

أومات برأسها فهي تدرك جيداً أنها كمن يضع يده في جحر الثعابين، ولكنها لم تفكر إلا في التخلص من أحاسيس تومض حولها إشارات الخطر الحمراء... تحذر من خطر الاقتراب، وازداد شعورها بالخطر هذا الصباح، عندما وقفت عاجزة أمامه تراه بعينيها يدمر نفسه دون أن تستطيع منعه. لذلك قررت إعطاء نفسها فرصة للهروب من تلك المشاعر، والتخلص من لعنة رائف للأبد..

بدأت بتوزيع ابتساماتها هنا وهناك... وخصت ماهر ببعضها، لم يصدق عينيه، ظن أنه يحلم، حتى إنه استدعى رويدا لمكتبه يسألها... فنصحته أن يدق على الحديد وهو ساخن... ثم أخذت منه نفحة أخرى (حلوان) اقترابه من تحقيق حلمه.

بعد انصراف كل زبائن المطعم بدأت الفتيات في التنظيف، فوجئت به يقف على باب المطبخ:

- «كروان.. هل انتهيت من عملك؟».

ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تلتفت لترسم ابتسامة رقيقة مغتصبة:
- «ليس بعد يا أستاذ ماهر».

اتسعت عيناه بسعادة وهو يلوح بيده في لهفة:

- «اتركي كل شيء بيدك، وهيا لأوصلك لبيتك بسيارتى... الشوارع خطيرة في هذا الوقت من الليل».

- «وما الجديد؟.. هذا هو حالى كل يوم يا أستاذ ماهر».

- «لا بأس، سأنظر فى أمر تعديل مواعيد العمل... هيا بدلى ثيابك بسرعة، ومنذ اليوم ناديني بـ (ماهر) فقط».

سرحت بتأمله وهو يقود سيارته الشيفروليه القديمة بفخر، وكأنه يمتلك السيارة الوحيدة على كوكب الأرض.

قد لا يكون بوسامة رائف، من عدم الإنصاف وضع رائف كنموذج للمقارنة مع كل رجل تتعرف عليه، فقد سبق أن خسر وليد في المقارنة، وها هو ماهر على وشك الخسارة بجدارة، فأعادت التفكير في الحياة الآمنة التي سيوفرها لها ماهر... وهو الشيء الوحيد الذي لم يستطع رائف تقديمه لها.

- «فيم أنت سارحة يا كروانتي.. أئن تغردي لي؟».

التفتت لتغضب ابتسامة:

- «بك أنت، ومن غيرك سيشغل أفكاري؟».

- «أهذا يعني الضوء الأخضر أخيراً!!».

- «لا تتعجل يا أستاذ... أعني يا ماهر».

سألها بزمجرة:

- «ماذا تعنين؟ لقد ظننت أنك أخيراً بادلتني مشاعري».

- «لا، في الحقيقة.. لقد بدأت أفكر بك على نحو مختلف، لا تفهمني خطأ،

ولكن هذا لا يعني أنني وقعت في حبك في ليلة وضحاها».

زفر مزردداً لعبه بصعوبة وعيناه تكاد تلتهمانها:

- «لقد صبرتُ عليكِ كثيراً يا كروان».

بدأت تحتد مع توقف السيارة أمام بيتها:

- «اسمع يا أستاذ ماهر.. كل شيء في الدنيا يمكن تسويته بالحناق، إلا مسائل

الزّواج لا بد أن تكون بالاتفاق ورضا الطرفين، ولن أسمح لك بمقابلة والدي قبل أن...».

قاطعها بسخرية لاذعة:

- «والدك..؟ ولماذا سأقابل والدك؟... لا أتذكر أيّ أسباب تدعوني لهذا العمل... إلا إذا كنتُ أُصِبتُ بالجنون».

رددت كلمته بصدمة:

- «جنون...!! المتعارف عليه في بلدنا يا سيد ماهر عندما يطلب الرّجل يد المرأة للزواج...».

قاطعها مرة أخرى بسخرية أكبر:

- «أيّ زواج تتحدثين عنه... أنا لمر أتقدم بأيّ عرض زواج!!».

تلجلجت:

- «نعم... ليس بعد... ولكنها النهاية الطّبيعية لأيّ...».

حاول إمساك يديها فأفلتت منه لتسمعه يتشدق مسبلاً عينيه:

- «علاقتنا ستكون مختلفة يا كروان... سرّية، خاصّة، بعيدة عن العيون،

بعيدة عن النّاس.. فقط أنا وأنتِ... وهذا هو كل ما يهمننا حبيبتى».

تمتت بذهول:

- «عُرفي... أهذا ما تقصده يا ماهر؟».

أعاد شعرها للخلف بحركة حميمية وهو يقترب منها بنّية واضحة لتقبيلها:

- «اتركي لنفسك الفرصة لتفكري بالأمر ملياً ستجدين أنني مُحق... علاقتنا

ستكون خياليّة، لن أحرملك من أيّ شيء، الشّقة ستكون باسمك، كل



المجوهرات والملابس التي تحبين، أخواك لن ينقصهم أي شيء، سأعيد بناء منزلكم هذا ليعيش فيه والداك معززين مكرمين، لن ينقصهم أي شيء».

ابتلعت دموعها وهي تسأله بصوت مخنوق:

- «هل أنت جاد يا ماهر؟... أهذا هو كل ما تقدمه لي؟».

- «وأكثر يا كروان وأكثر... فقط وافقي.. وسأفرش الدنيا تحت قدميك».



رمقته بنظرة محتقرة شملته من رأسه لقدميه.. فتحت باب السيارة وهمت بالخروج، أمسك يدها يمنعا وسألها بتهديد:

- «أهذا يعني الرفض؟».

نزعت يدها من أصابعه بكلمات مندفة:

- «أنت لا تستحق أن أرد عليك، حتى رفض عرضك المخزي سيعطيك قيمة لا تستحقها».

شهقت بأنفاس متتالية بعد خروجها من السيارة لتنظف رثتها من هوائها الفاسد، لتفاجأ بلحاقه بها. وقف أمامها يلوح بإصبعه في وجهها:

- «كوني عاقلة يا كروان، وفكري في مصلحتك ومصلحة أخويك وأهلك».

- «لو كان العقل في الموافقة على طلبك يا أستاذ ماهر، فأنا أكبر مجنونة في العالم، ومن فضلك لا تُهن نفسك بالتدلل لي، لأنني لن أغير قرارتي».

نشب أصابعه في ذراعها يجذبها بقوة وعيناه تقدحان شرراً:

- «من تظنين نفسك لترفضيني أنا؟.. أنا ماهر زيدان، وأنت مجرد نادلة حقيرة تعملين في مطعمي، لو خصمت يوماً من راتبك ستأكلين من القمامة أنت وأهلك».

حاولت نزع ذراعها المتألم من أصابعه بلا جدوى وهي تصرخ:
- «ربما تكون مكبات القمامة أشرف لي من التطلع لوجهك المقيت، والاستماع لعرضك القذر».

دفعها على السيارة وهاجمها يحاول عناقها بقبلة لزجة، من فرط شعورها بالقرف شعرت أن الحرق بالنار لن يكون كافياً لتطهيرها من لمساته.
نجحت في دفعه أخيراً وهي تبصق في وجهه:

- «أقسم لو لم تذهب من هنا فوراً، سأصرخ وأعمل لك فضيحة في كل بلطيم...
لنر ماذا ستفعل بك زوجتك عندما تعلم بعروضك المخزية بعد أوقات العمل
الرسمية... ربما منعت عنك المصروف يا... يا ماهر بيه».
تراجع لاهثاً يداري ارتباكاه:

- «لا بأس يا كروان.. ستكون لنا جولات أخرى.. أقسم أن أجعلك تدفعين
الثلث».

تعثر وهو يتراجع ساخطاً، استدرك نفسه ووقف ينفض ملابسه وهو يرمقها
باشمئزاز، فتح باب سيارته، وقادها مبتعداً.

انهارت على ركبتها تشهق بالبكاء بعد أن فرغت شحنتها من المقاومة...
جفلت عندما شعرت بلمسات على كتفيها ويدين قويتين تحاولان رفعها.
ظنت لوهلة أن ماهر عاد، تشنجت وهمت بدفعه عندما سمعت صوته
المطمئن:

- «لا بأس.. هذا أنا».

كان صوته الهادئ الداعم، ضمادة ناعمة لمشاعرها الجريحة.

كان الرجل الذي أرادت الابتعاد عنه لآخر الأرض، والوحيد الذي ما اشتاقت إلا لقربه، والذي خطف قلبها الغض من أول نظرة.

استكانت بين ذراعيه مستسلمة بضعف، وهو يحملها بخفة، أغمضت عينها مستمتعة بقربه بعيداً عن عنادها، وكبريائها، وكل فكرة سوداء قد تكون السبب في بعباده عنها، أرادت لحظة.. مجرد لحظة خاطفة من غدر الزمان، تستمتع فيها بما ضنت عليها به الحياة، رائف: حبها الأول، والوحيد.

ساعدها برفق لتجلس على المقعد في المطبخ.. ركع أمامها ورفع رأسها ليطالع وجهها المغسول بدموع المهانة والقهر:

- «ستكونين بخير».

ناولها كوب ماء:

- «اشربي لتستعيدي هدوءك».

أمسكت بكوب الماء ثم سكبته على وجهها، وأخذت تحك وجهها بيديها بقوة، خاصةً شفيتها حتى أدمتها... أمسك يديها ليمنعها من أذية نفسها:

- «توقفي.. توقفي... لقد أصبح نظيفاً».

هزت رأسها بالنفي قائلة بنشيج باكٍ:

- «لا.. لا يا رائف.. أشعر بالقذارة تغمرني.. لا أستطيع التخلص منها..

ساعدني يا رائف.. ساعدني أرجوك».

تجمد مكانه مصدوماً عاجزاً عن التفكير في التصرف الصائب.. وجد نفسه يفتح ذراعيه يضم جسدها المرتجف. ولكن أكثر ما صدمه هو تقبلها لقربه، وكأنها اعتادت إلقاء أحمالها على هذا الصدر دائماً، ألقت برأسها على كتفه بنشيجها المتقطع:

- «ضُمّني بقوة أرجوك يا رائف؛ لقد تعبت... تعبت».

أغمض عينيه وجسدها يستكين على صدره، وشعور هائل من الراحة يغمره.. وكأنه لقاء بصديق قديم يستعيد الإحساس به، أو جديد يشعر نحوه بألفة غريبة، وكأنه اعتاد السكن داخل تجاويف قلبه، بحق الملكية.

فجأة وجدت نفسها حيث لا يجب أن تكون أبدًا، ولكن هذه اللحظة راودتها كثيرًا في أحلامها، ها هي تتحقق، وما كان يجب أن تحدث أبدًا.. أبدًا.

مصدومًا، بدأت تدفعه لبيتعد عنها، بتردد في البداية... ثم ازدادت إصرارًا عندما تباطأ في التخلي عنها... كان أول من قطع الصمت:

- «كروان».

انتفضت واقفة تحاول الهروب بعينها:

- «أنا آسفة... صدقني لم أحاول توريطك بشيء».

جلس على المقعد مكانها بعد أن وقفت وولت ظهرها له:

- «لا بأس.. لا داعي لهذا التفكير.. لقد رأيتُ ما حدث لك من الشرفه..

حاولتُ الوصول بأسرع ما أمكنني لإنقاذك...».

أطرق رأسه متابعًا بسخرية من نفسه:

- «ولكنني مع الأسف.. الاعتذار واجب مني أنا... كان يجب أن أصل لك

لأنقذك من ذلك الرجل.. كان هذا واجبي».

انتفضت بحدّة:

- «لا.. ليس واجبك يا رائف بيه.. أنا وحدي.. يجب أن أعني بنفسي».

رفعت عينها تلتقي بعينه لتموت كل الكلمات على لسانها، وكل هذا العذاب يُطل من بين رموشه الكثيفة.

وبّخت نفسها بقوة: «لا.. لا.. لا تفعلي هذا؛ هو الجاني وأنتِ الضّحية.. لا تروئي بحاله.. لا تُشفقي عليه.. كنتِ تمرّين بلحظة ضعف، وذهبت ولن تعود.. نعم.. لن تعود».

لم تعلم أنها كانت تفكر بصوت مسموع عندما سألتها:

- «ما هي التي لن تعود؟».

تنفست بعمق:

- «سيد رائف.. ما يربطنا ببعض هو علاقة العمل فقط.. لا تتيح لك التدخل في شئوني... أشكرُك لأنك ساعدتني، ولكن لا بد أن تتوقف عند هذا الحد، يجب أن تتوقف.. أرجوك».

أحنت كتفيها بانهمزام.. فجأة، ودون سبب، قفزت لرأسها صورة زوجته وابنته التي يحتفظ بها بجوار فراشه.. كانت لا تزال تحتفظ ببعض تلك الفراشات المدغدغة لحواسها عندما كانت بين ذراعيه، مما دفع الأنثى، أسيرة خيوط العنكبوت، لتصيح باندفاع ندمت عليه فوراً:

- «هل كنت تحبها لهذه الدرجة.. زوجتك.. لتتحول لرجل كافر بكل معاني الحياة، بعد فراقها؟.. هل أنت مخلص لأحبائك كما تحب أن تظهر؟».

كاد لا يصدق التناقض في تصرفها.. كانت تتبادل الأدوار بين امرأة رافضة لأيّ اهتمام، أو أيّ مشاعر دافئة، وامرأة تقذف حمم غيرة بشراسة؟، تحرق فيه لاهثة بانتظار إجابته، وكأن داخل هذا الصدر المزيد من الثورات بانتظار فقط شرارة البدء.

وقفت تحرق به لاهثة لا تصدق ما تفوهت به للتو... ولماذا... وكيف؟.

لم تنتظر رده وانطلقت تغادر المكان دون أن تحاول النظر له مرة أخرى..
تخزن أمنية تتمنى ألا تتحقق، ألا تعود إليه أبدًا... أبدًا.

ليلة أخرى خاصم فيها النوم أجفانها حتى الصباح، بدت كفزاعة بمنظرها
المزري، وعينيها المحمرتين من البكاء، والسهر.

جلست على مائدة الإفطار بعد إيماءة بتحيةة الصباح دون أن تفتح فمها.. كانت
شاردة الذهن فلم تلاحظ حركات الولدين للفت انتباهها... نظرت لأمها
بتساؤل... فهمست لها في أذنها تذكّرها بما نسيت في خضم مشاكلها الخاصة.

شهقت مصدومة تلوم نفسها على نسيانها هذا اليوم المميز، لقد أعطتها
وعدها، وأكدت لهما أنها لا يمكن أن تنساه، كيف تنسى اليوم الذي رُزقت فيه
بأغلى هديتين من الرجل الوحيد الذي أحبّت.

أتقنت دورها ببراعة وهي ترسم ابتسامة عابثة على أركان شفيتها، فهبّ رامي
يصيح بابتهاج:

- « كنت أعلم أنك لا يمكن أن تنسى، لقد راهنت عليكِ.»

تمتم رائد يداري انفعاله بمهارة كعادته:

- «أخبرتكم أننا أصبحنا شابين ناضجين... ولا نرغب أن تكلفني نفسك حفلة
عيد ميلاد، تليق بالأطفال أكثر.»

ارتشفت من كوب الشاي.. وهزت رأسها بتفهم:

- «حتى الشباب الكبار بحاجة لبعض الترفيه من حين لآخر.»

أمسك رائد بيد أخيه:

- «هيا رامي... سنتأخر عن المدرسة.. أخبرتك أن تحفظ لسانك، ولكنك لا
تستطيع إغلاق هذا الفم أبدًا... أخ منك.»



همت بالوقوف:

- «انتظرا... سأرتدي ثيابي وأوصلكما».

حدجها رائد بنظرة غاضبة:

- «منذ لحظة واحدة فقط أخبرتك أننا ما عدنا صغاراً».

هتفت أمها توبّخه:

- «رائد.. أحسن معاملتك لأختك الكبيرة.. ليس خطأها أنها ترغب في الاطمئنان عليكما».

ربت على يد أمها:

- «لا بأس يا ماما.. أتفهم رغبة رائد في أن يعتمد على نفسه... لا بأس.. اذهبا... لا إله إلا الله».

ردد الولدان أثناء ذهابهما: - «محمد رسول الله».

بعد تأكدها من مغادرتهم انهار تماسكها فأخفت وجهها بين يديها تبكي بالر:

- «كيف أمكنني؟.. كيف يمكن أن أنسى هذا اليوم؟».

ربت والدها عليها بحنان:

- «هوّني على نفسك يا كروان... اسمعي، لقد ادخرت مبلغاً... ليس كبيراً، ولكنه سوف...».

أوقفته كروان بصرامة وهي تمسح دموعها الغزيرة بمنديلها:

- «بابا.. شكراً لك... سأتدبر أمري... أولادي مسئوليتي وحدي، وأنا سأتكفل بكل احتياجاتهما».

هتفت أمها بعتاب:

- «لا تكوني بهذا العناد يا عزيزتي».

انتفضت من مكانها باعتذار:

- «سامحاني.. ولكنني لا أقدر، يكفي ما تفعلاه أنت وبابا للتعويض عليهما..

لقد تأخرت على موعد إفطار السيد».

وانطلقت مسرعة بخطوات تكاد لا ترى أمامها، للمكان الذي أقسمت ليلة أمس أنها لن تعود إليه أبدًا، ولكن في هذه اللحظة لا تجد ملجأ أمامها سواه، فهي لا تعرف إلى أين تذهب، أو ماذا تفعل... حتمًا كانت تدرك أن مظهرها هذا الصّباح غير جدير بالمشاهدة، بعينيها المنتفختين شديديّ الاحمرار، من السّهر والبكاء طوال الليل، إضافة للهالات السوداء التي تحيط بعينيها الغائرتين.

لم تهتم كثيرًا لنظرات جابر وهي تدلف من جواره بتحيّة مقتضبة... كانت تشغلها فكرة واحدة، كيف ستحصل على المال اللازم لعمل حفلة عيد ميلاد للتوأم، حتى المال الذي أعطاه لها وليد ليلة أمس كانت قد اقترضته من إحدى زميلاتها في المطعم، وأعادته لها فورًا، لو كانت تذكرت وقتها لأعادته لها في وقت لاحق بعد أن تتدبر أمورها.

هل ستخيب آمالهما؟.. تلك النظرة المنكسرة التي أصبحت ملازمة لهما، تعذبها في كل لحظة، ذنبهما الذي تحمله على عاتقها، بالإضافة لإحساسهما باليتم، وكأنهما يفتقدان شيئًا مهمًا في حياتهما.. أو ربما هو شعورها بالذنب الذي يدفعها لمحاولة رأب صدع غير موجود، إلا في مخيلتها وحدها.. أيًا كانت الأسباب، لا بد أن تحاول إسعادهما، يكفي أنهما يعانيان بسببها، وبسبب اختيارها الخاطيء من البداية..

كانت تتحرك في المطبخ هنا وهناك كآلة... تحضر الطعام تارة، وتارة تغسل الأطباق، ثم تتركها قبل أن تنتهي منها.

كانت أفكارها تدور بدوامات صاخبة برأسها فلم تشعر بوجوده، يقف مستندًا بإهمال على إطار الباب، يراقبها بصمت، وقد أدهشه عدم انتباهها لحضوره رغم وقوفه منذ دخولها تقريبًا.. لم يفته حالها المزري، تساءل إن كان هو السبب في حالتها هذه؟ بسبب ما حدث بينهما أمس، أم أنه ذلك الرجل الذي كان يحاول عناقها بالقوة.

فرك أصابعه في قبضته المتوترة وإحساسه بالفوران يعود إليه مرة أخرى، عندما رآها تحاول التخلص من تحرشه بها ليلة أمس، وكم تمنى وقتها لو يملك اللياقة اللازمة ليقفز من سور الشرفة ويخلصها منه، ولكنه بالكاد وصل لها بعد ذهاب الرجل، أخذ يحدث نفسه ويتساءل: «تُرى من أنت يا كروان؟.. لماذا تظهر صورتك في رأسي وكأنني أعرفك من قبل، ليست مجرد صور، بل مشاهد في غاية الحميمية، لا تجمع إلا بين الرجل وزوجته، أو... عشيقته... وكان ما بيننا كان أكبر من أن ينساه كلانا... كيف لا أتذكر؟ وكيف لا يبدو عليك أنك تتذكرين أيضًا، إلا من تلك الومضات الخاطفة في عينيك.. وأكاد أقسم وقتها أنني على وشك الإمساك بتلك الذكرى الهاربة... وفجأة تعودين لذلك القناع الخالي من أي ملامح بشرية».

فكر بصوت مسموع وهو لا يزال يراقب: «انتبهي».

وأدرك أن الكارثة قادمة لا محالة، رغم إصراره نحوها، لكن ليس بالسرعة الكافية ليبعد يدها عن إبريق الشاي المغلي، الذي مال على جانبه عندما وضعتة بشرود على سطح مائل دون أن تنتبه، رفع يدها متأخرًا جدًّا، وهي تصرخ من الألم الصادم، وراحة يدها تنبض بالألم... ولكن أكثر ما صدمها هو ذلك

الرجل الذي ظهر من العدم وأمسك بيدها المحترقة وضعها أسفل زخات المياه الباردة رغم احتجاجاتها:

- «اهدئي يا آنسة.. لقد تسببت لنفسك بهذا بسبب إهمالك... شاردات الذهن فقط تقع لهن الحوادث المؤسفة».

حاولت التملص منه مجددًا:

- «سيد رائف.. أنا بخير».

أحكم الإمساك بها دون أن يفلتها، والمياه الباردة تنهال على يدها تبرد حريقها.

كانت تسعى بجهد للتحرر من أسره لجسدها... فالحرق في يدها كان وجعه أكثر تحملاً من النار التي تشتعل بكامل جسدها لاقترابه منها، متجاوزاً كل الخطوط الحمراء ومحطماً كل العوائق التي وضعتها لنفسها.. ولكنه لم يتركها، واستمر بجربها معه خارج المطبخ بعد أن لف يدها بفوطة مبللة:

- «تعالني معي.. عبدالحميد يحتفظ بصندوق للإسعافات الأولية في مكان ما هنا».

اعترضت بضعف:

- «ولكنني لست.. حقاً أنا...».

عاد ليخرسها بنظراته الصارمة:

- «يا إلهي... متى تكفين عن الاعتراض... هل يقلل من كبريائك العتيد أن تكوني تحت رحمتي، ولو في ظرف طارئ كهذا!!... مثلما كنت تحت رحمتك طوال الأيام الماضية؟».

لاحظ ارتجافة شفثتها التي خطفت أنفاسه للحظة، وخيل إليه أن عقارب الزمن

توقفت، وهو يتأمل تلك الرّعدة، وخطا بقدميه أحد أحلامه، رأى نفسه ينحني على تلك الشّفاة يقضمها بشقاوة، وهي تصرخ مستغيثة بمزاح. تمت بغصة فقد رأت تلك النّظرة من قبل.. عاشت عليها تقرّيباً مدة شهرين، قبل أن تستيقظ على كابوس مخيف وحقيقة أكثر رعباً:

- «رائف... را... سيد رائف... سي...».

وكان ثعباناً لدغه، فأبعدها مجفلاً، يحدق بوجهها لاهثاً... يكاد يلتقط أنفاسه بصعوبة، نوبة اللهاث انتقلت عدواها لها، وهي ترى نفسها في بؤبؤي عينيه... كما كان في الماضي، كتمت شهقة وتراجعت يتابعها بعينيه، وفجأة تتم وهو يغادر غرفته التي أدخلها فيها منذ دقائق فقط:

- «أنا... آسف... لم أقصد إخافتك... سأحضر صندوق الإسعـ...».

واختفى حتى قبل أن يكمل جملته... وكأنها نسيت كيف تتنفس... ألم موجع في صدرها أخذ يضرب أضلاعها، يكاد يحطمها شظايا، وتدرجياً بدأ الألم يزول مع انتظام أنفاسها، وهي تحاول طمأنة نفسها أنه لن يتذكرها... لن يتذكر ما فعله بها... لن تضطر لمواجهته، وتوجيه كل ما ترغب من اتهامات له... فقط كي لا يعرف والده بوجودها.. ستفعل أيّ شيء.

عاد أكثر هدوءاً متجنباً النّظر نحوها، ركع أمامها... وضع يدها الملفوفة على ركبته... قاومت بصعوبة كي لا تنزع يدها من بين يديه، ثم اتسعت عيناها بذعر عندما رأت جلد يدها المحترق... اختلس نظرة نحوها ثم همهم برقة:

- «أغمضي عينيك».

- «لماذا.. ماذا ستفعل؟».

- «لن أقطعها لا تخافي... خذي هذه...».

ناولها حبة حمراء... حدجتها باستهجان فحتها بانزعاج:

- «لا تكوني متشككة بهذا الشكل... هذا فقط مسكن».

فتحت فمها ليضع الحبة بين شفثيها... ذكريات أخرى عن تلك الشفاه شبه المنفرجة هاجمته بصراوة، مصطحبة معها أصوات ضحكات ناعمة.

هز رأسه بعنف وهو يدهن يدها بلطف بمادة مضادة للحروق... بينما غرق لأذنيه في ذكريات وومضات غريبة... كانت تحدق بقمة رأسه وتكاد تستسلم للذة الشعور بتمرير وجهها في شعره كما كانت تفعل في الماضي، تمتع بدغدغات شعره على بشرتها الناعمة.

انتفضت شاهقة عندما رفع رأسه يضبطها تحلم به.. جاءها صوته من خلال غمامتها الوردية:

- «لر تنالي قسطاً من النوم أنت أيضاً هذه الليلة؟».

مرت لحظات حتى بدأ عقلها يترجم كلماته، ثم هزت رأسها:

- «نعم... نعم... أنت أيضاً؟».

أعاد يدها المضمدة لحضنها:

- «تفضلي... عادت كالجديدة».

ارتعشت كمن أصابته موجة صقيع باردة... فسألها بقلق:

- «هل تسببتُ لكِ بالر؟».

رغبت أن تصرخ بكل خلية في جسدها: «نعم... أنت تسببت لي بالكثير، الكثير من الألم... والآن تقف أمامي، ولا أستطيع أن آخذ بثأري منك، ومما فعلته بي وبأولادك».

ولكنها أجابته بابتسامة باهتة:

- «الألم ضروري كالحياة نفسها... إن لم تشعر به بين الحين والآخر؛ لن تشعر بالمتعة الحقيقية في عدم وجوده».

- «أنت فيلسوفة أيضاً... ومن أكسبك هذه الفلسفة؟.. الحياة.. أم رجل ما؟».

أجابته بصراحة:

- «رجل».

- «كم هو تعيس الحظ، لأنه لم يستطع الاحتفاظ بك».

- «هل تظن أنه يشاركك شعورك هذا؟».

- «لو كان رجلاً بحق، لا بد أن يجتر المראה في كل يوم من حياته بعيداً عنك».

- «كلامك غريب يا سيد رائف.. رجل مثلك من عائلة عريقة في عالم السياسة.. يفكر بفتاة مثلي من أسرة بسيطة.. تكذب بيديها لتوفر لهم حياة بسيطة.. أبسط بكثير من أن تشغل أفكار رجل في مركزك».

- «بسيطة لدرجة الشرود ومحاوله إحراق نفسك.. في اعتقادي أن أفكار الناس البسطاء، كما تسمين أسرتك، تدخل في مهام الساسة، كما تطلقين علي.. أخبريني يا كروان.. ماذا يشغلك؟.. أحب أن أعرف».

- «لو فكرت قليلاً، ستعرف أن ما يشغلي هو الشيء الوحيد الذي يشغل كل الطبقة العاملة في بلدنا».

أخرج زفرة بتنهيدة طويلة:

- «أنت بحاجة للمال.. أليس كذلك؟».

أطلقت ضحكة دامعة وهي تتمتم ساخطة:

- «ومن ليس بحاجة له؟.. حتى الأغنياء أمثالكم لا يكتفون أبداً، مهما تضخمت أرصدهم في البنوك.. دائماً تسعون للمزيد.. ولكن المشكلة تتضخم عندما يحتاج الفقير المزيد من المال... أكثر مما يحصل عليه شهرياً من راتبه... فلماذا يحتاج مثله لأكثر مما يمكنه الحصول عليه.. ألا يأكل، ويشرب وينام، ويعمل؟.. ما أهمية شيء تافه كعيد ميلاد الأولاد مثلاً؟.. لماذا يفكر حتى في الترفيه عن أولاده؟.. ليس من حقه، لأن ماله الذي يتقاضاه لقاء عمله طوال الشهر لا بد أن يكفيه طوال ثلاثين يوماً.. ليس محسوباً للمرض، والترفيه...».

وقفت باحتجاج على نفسها لتجاوزها:

- «أنا آسفة... يبدو أنني ثرثرت كثيراً... سأذهب».

- «انتظري».

التفتت له لتفاجأ بنظرته الحزينة:

- نرمين كانت تعشق حفلات الميлад، ولكنها لم تحظْ بأيّ عيد ميلاد.. أمها كانت مشغولة بحفلاتها الخاصة، أكثر من اهتمامها بابتها ذات الأعوام الخمسة.. في آخر مرة، أخبرتني أنها تريد حفلاً كبيراً في عيد ميلادها هذه السنة، وأنا وعدتها، ولكن القدر لم يمهلي أن أبرّ بوعدتي.. رأيت يا كروان.. حتى الأغنياء لا يحتفلون بأعياد ميلاد أولادهم، كل أموالهم لم تستطع دفع الموت عنها.. ماتت وأنا أحاول حمايتها.. ماتت على صدري يا... كروان».

سالت دموعها، وتماسكت بصعوبة كي لا تحتضن دموعه على صدرها:

- «أنا آسفة؛ لم أقصد... لا بد أنك تعاني أكثر بكثير مما...».

قاطعها متأوِّهاً:

- «كالجحيم.. شعوري كالجحيم».

- «لذلك أدمنت المسكنات؟».

أغمض عينيَّ بقوة وفتحتهما:

- «أنا رجل.. كانت نرمين السَّبب الوحيد الذي يبقيني حيًّا.. كانت بعيدة

معظم الوقت.. ولكنها حية.. كنت أتصل بها طوال الوقت.. تمنيت ترك

السياسة، وكل هذا العالم العفن لأبقى جوار ابنتي».

- «وما منعك؟».

زجر بعذاب: - «هو لم يسمح لي».

كانت تعرف من يقصد.. فلم ترد ذر الملح على جرحه لتسأله عن يقصد.

نظر لها وشكر بصمت عدم سؤالها... وفاجأها بطلبه:

- «مما فهمته منك أن سبب كل هذا أن عيد ميلاد الأولاد اليوم».

وجدت نفسها تومئ له بضعف.. فتابع بنبرة أقوى لا تقبل بالجدل:

- «أنا سأتكفل بكل مصاريف الحفل.. لو سمحت لي؟».

هزت رأسها باعتراض.. ولكن نظرة الانكسار في عينيه، والألم الواضح في

ملاحظه.. كانت تعد نفسها للاعتراض:

- «أنت..؟».

- «أرجوك.. امنحني هذه الفرصة.. أنا لا أقدم لك أيّ خدمة.. العكس هو

الصحيح.. أنتِ تساعديني على الشفاء.. دعيني أَرَّ الفرحة التي حُرِّمْتُ منها في

عينيَّ نرمين، اسمحي لي أن أراها في عينيَّ رائد، ورامي».

وكان آخر احتمال للرفض قد سقط هو الآخر.. ووجدت نفسها تهز رأسها بالموافقة رغم مئات الأفكار التي تتلاعب بالرفض في عقلها.. ارتاحت أساريره العابسة فجأة، وتألقت عيناه فوجدت معدتها تطير بفراشات السعادة.. أمسكت بمقبض الباب وهمت بالهروب قبل أن تقدم على فعل تندم عليه للأبد، فأوقفها:

- «كروان.. من فضلك أرسلني لي عبد الحميد وجابر، وأنت بإمكانك الانصراف الآن لتخبري والديك أن يستعدا لاستقبال العمال الذين سأرسلهم لتجهيز الحفل الليلة».

رددت ببلاهة وكأنها لا تفهم نصف كلامه:

- «تجهيز الحفل.. آه، تقصد في بيتنا؟.. حسناً.. سأخبرهما».

أشار لها بمزاح: «وعبد الحميد وجابر».

- «لن أنساهما كذلك... آه.. سيد رائف... شكراً لك».

رددت أمها كلماتها بعدم تصديق بينما التزم والدها الصمت محققاً فيها مرتبة متعصبة:

- «ماذا قلت؟ السيد رائف سيقوم حفل عيد ميلاد الأولاد على حسابه؟.. كيف، ولماذا؟.. وكيف وافقت؟».

رفعت يديها للسماء ثم أنزلتهما مع تهدل كتفيها:

- «لا أعرف.. حقاً ماما لا أعرف... كيف أخبرته.. وكيف عرض الفكرة... وكيف وافقت، ولماذا، ولكن لو سألتهماني... أنا بالطبع نادمة، وأفكر بالعودة للفيلا وأخبره أن يصرف نظر عن الفكرة برمتها».

تكلم والدها لأول مرة:

- «السبب الذي دفعك للموافقة لا يجب أن تتجاهليه بهذه البساطة».

أخرجت زفرة سريعة وهي تتبادل مع والدها نظرات ذات معنى، ثم تذكرت ما دفعها للموافقة فعادت كتفاها تتهدلان:

- «أنت محق... أكاد لا أستطيع تخيل نفسي في مكانه.. لو أصيب أحد الأولاد بأي جرح، أكاد أصاب بالجنون، والمسكين فقد طفله أمام عينيه، ويحاول التسرية على نفسه.. حسناً... ولكن لا تساوركما أي أفكار أخرى... على الأقل سيسكن ضميري المتعب عندما ينفق الوالد بعض من ماله على أولاده المحرومين حتى من معرفته».

سألتها أمها فجأة:

- «كروان.. هل ساحتته؟».

أطرقت رأسها لحظة ثم رفعت:

- «الرجل الذي كرهته بكل قطرة دم تسيل في عروقي كل هذه السنوات لم أره، لم يعد لأفرغ فيه كل غضبي، ولأخبره كم أحتره، وأني لا يمكن أن أسامحه أبداً... الرجل الذي يسكن الفيلا رجل آخر كل جريمته بنظري أنه لا يتذكرني.. ربما الحادث الذي كاد أن يقضي فيه نحبه أثر على ذاكرته.. وربما من وجهة نظره لا أستحق أن يتذكرني، ولكن ما أنا متأكدة منه أنه يشعر نحوي بمشاعر مختلفة... وأحياناً أشعر أنه يتذكرني... ولكنها تكون بمثابة ومضة وتعود لحالها.. هذا كل شيء».

اكتفت من كل الضغوط المحيطة بها فركضت للخارج بعد أن أوصت أمها أن تستقبل منظمي الحفل، بينما تزور صديقتها حنين في المشفى.

دخلت غرفة حنين باندفاع ترسم ملامح السعادة التي لا تملك منها سهماً...

صديقتها تستحق بعضاً منها، حتى لو كان إحساسها مختلفاً لمستقبلها الغامض مع وليد.

سبب واحد فقط منعها من أن تقوّض أحلام حنين بمستقبل رومانسي مع وليد.. أنها واثقة من حبها الكبير له.. والحب يصنع المعجزات، ليس لأنها ما تزال تؤمن بهذه المقولة.. ولكن حنين من حقها فرصة.

وقفت مشدوّهة أمام الفراش النظيف، المرتب، والخالي... وقع قلبها من بين أضلاعها وهي تتلفت حولها ربما تجد صديقتها تقف هنا أو هناك، وربما في الحمام الصغير الملحق بالغرفة!!

ازداد خوفها عندما وجدت المكان خالياً تماماً، غادرت الغرفة تبحث بعينها عندما رأت الممرضة التي كانت تتابع حالتها... أوقفتها بلهفة:

- «انتظري.. أين ذهبت صديقتي... حنين؟».

مطت الممرضة شفيتها فعاتت كروان بنبرة حادة:

- «تذكري أرجوك.. كانت تسكن هذه الغرفة».

نظرت الممرضة للغرفة ثم أومأت:

- «نعم.. تذكرت.. جاء خطيبها اليوم صباحاً، ودفع الحساب واصطحبها معه».

- «ولكن.. كيف.. أخبرتني أنها ستبقى يومين آخرين... كيف تخرج دون أن أعرف؟».

- «لا أدري».

راقبت الممرضة تعدو في ردهة المشفى عندما ارتفع صوت في مكبرات الصوت يطلب من الممرضات الوجود في قسم الطوارئ.

أمسكت هاتفها تتصل بحنين... وعاد الإحباط يضرب مرة أخرى في المكان نفسه، وهي تسمع الصوت الآلي يخبرها أن الهاتف مغلق أو غير متاح.

عادت أدراجها تسير في الشوارع بغير هدى... تفكر بصديقتها، لا تعرف كيف تصل إليها، وعن السبب الذي دفع وليد لهذا التصرف... جمعت يديها أمام قلبها تدعو بصمت: «أرجو أن تكوني بخير يا حنين.. طمئيني عليك حبيبتي».

تبقى أمامها مشكلة أخرى.. دخلت مكتبة لبيع الأدوات المدرسية لثوانٍ ثم خرجت ببريق النّصر يلمع بعينها... أوقفت ميني باص ليوصلها لأطراف المدينة حيث مطعم ماهر، ستقوم بالتصرف الصحيح الذي كان لا بد من عمله منذ فترة طويلة جدًا.. والآن وجدت الشّجاعة سبيلها إليها.

فوجئ ماهر بدخولها مكتبه دون استئذان.. اتسعت ابتسامته التي أسقمتها، وتمنت لو بصقت بوجهه لتغير معالمة:

- «حبيبتي.. كنت أعلم أنك عاقلة، وعندما تمنحين نفسك وقتًا للتفكير؛ لن تجدي أفضل من عرضي.. تفضلي بالجلوس لتفاهم، أم تحبين لو ذهبنا لشقتنا فورًا.. عفوًا أقصد شقتك».

اقتربت منه بعد أن وضعت يدها في حقيبتها خلسة دون أن يفتن إليها، كانت ابتسامته تزداد اتساعًا حتى ظنت أن وجهه سيتشقق نصفين.. ثم جلست أمامه على طرف المكتب تراقبه بتسلية وهي تسكب الحبر الأحمر السائل على رأسه.. شهق عندما شعر بما يتساقط منه، وازداد رعبًا عندما امتلأت يده بالسائل الأحمر، وصرخ بها وهي تتبعد:

- «ماذا فعلت بي؟.. أنت أيتها ال... غبية».

ودعته بنظرة مشمئزة دون أن تنطق بحرف واحد، في حين وصل صوته الصّارخ بكل اللعنات والشّتائم لأذان كل رواد المطعم.

لم تستطع كتم ضحكاتنا أكثر، فمنظره والحبر الأحمر يتخلل شعره ليسيل على وجهه ويديه، وبذلته الغالية، كان منظرًا يستحق التضحية بكل غالٍ ونفيس.

بترت ضحكاتنا فجأة عندما افتقدت صديقتها الوحيدة، كانت تشاركها هذه اللحظات من المرح.. حتى في أحلك أوقات حياتهما.



في وقت مبكر من هذا الصّباح..

اتسعت حدقتنا حين عندما طالعت بفرح الوجه الجميل الذي أيقظها.. كان معها في الحلم وها هو أوّل وجه تراه في الصّباح.. تمتت بذهول:

- «هل ما زلت أحلم؟».

- «كلا حبيبتي.. أنت مستيقظة تمامًا».

- «وليد.. أحقًا هو أنت... لا أصدق.. ولكن، هل حدث شيء خاطئ؟».

تضايق من عبوسها المفاجئ:

- «ولم هذا السّؤال؟».

أجابته بحذر:

- «لأنك لست معتادًا على مفاجأتي بهذا الشكل.. ولم تخبرني أنك ستأتي..

أخبرني أرجوك لو كان خبرًا سيئًا أخبرني به فورًا، ولا تؤجله.. أنا قويّة

وأستطيع...».

- «حين.. حين.. اهدئي حبيتي.. الأمر هو...».

قاطعته مصعوقة:

- «هل قلت حبيتي؟.. وليد...!!».

أمسك بيديها وضمهما لبعضهما وطبع قبلة:

- «طبعاً حبيتي، وخطيبي، وقريباً جداً جداً زوجتي، وهذا أيتها المتشائمة هو الخبر السيئ الذي جاء بي في الصباح.. ظننت أنني أصنع لك مفاجأة.. ولكنك مثل كل فتاة مصرية أصيلة تتشائم من كل تجديد ومن كل خبر مفاجئ، حتى قبل أن تعرف ما هو».

- «أتعني أنك جئت الآن لكي... لكي...».

- «نعم.. سأشتري لك كل ما تحتاجين.. دبرتُ لك موعداً مع صالون التجميل.. بالطبع أنت لست بحاجة لأيّ زينة، ولكنني أرغب أن تكوني كاملة، ولا تشعرني بأي شيء ينقصك، وعندما نكتب كتابنا هذا المساء...».

شهقت بصدمة:

- «هل سنكتب ال... أحقاً... وليد.. ألا تمزح معي؟».

قبل يديها مرة أخرى:

- «وحياة حين.. كل ما أخبرتك به سيحدث اليوم.. أمّا إذا كنتِ ترغبين بالتأجيل...».

انتفضت من مكانها تزيح الغطاء عنها:

- «من يرغب بالتأجيل.. أنا؟! بالتأكيد أرغب بجناحين لأطير بهما من فرط السعادة... سأكون جاهزة في ثوانٍ».

وقفت فجأة وبارتباك ظاهر سألته:

- «ولكننا نسينا أمرًا مهمًا.. لقد أخبرتُ كروان أن الموعد بعد يومين!!».

- «ما المشكلة؟ سأتصل بها وأخبرها بالتغييرات، ستدبر أمرها.. لا تقلقي، المهم أن تكوني سعيدة».

راقبها تختفي في الحمام الملحق ترنم بنغمات فرحة.

تطلع حوله حتى عثر على ضالته، أمسك هاتفها وأغلقه ثم وضعه في جيبه، انتظر خروجها بنظرات غامضة.



بدأت تستعيد ثقتها بنفسها، وبقراراتها عندما عادت للبيت منهكة، لتجده وقد تحول لمدينة ملاءٍ صغيرة.. ازدانت الجدران بالورق الملون ، وامتلات أرضياتها بالعلب والهدايا، والحلويات بجميع أشكالها تغطي المائدة الكبيرة التي تتوسط القاعة.

كل هذا لم يترك أدنى تأثير لديها، إلا عندما رأت الفرحة تطل من عيني رائد ورامي، وعلى الأخص رائد الذي ضاع كل تماسكه، وشخصيته المتزنة التي يحاول فرضها، الآن فقط عرفت المذاق الحقيقي للسعادة، والفرحة تتفاخر مع قفزاتهما وهما يركضان نحوها يعانقانها مغًا.

ركعت أرضًا تتلقفهما والدموع تتسابق مع قهقهاتهما، وكلمات الشكر الكثيرة التي لم تسمع منها حرفًا، عجز لسانها عن النطق بأيّ كلمات.

نظرت لأعلى لترى تأثير جابر الذي ظنته مجرد عضلات بلا مشاعر، وبجواره عبد الحميد يهز رأسه بابتسامة تقدير.

تمت من فوق رأسي الولدين بكلمات شكر صادقة، ولكن عبد الحميد رد



عليها بنظرات عينيه المتلعبة وهو يشير برأسه للخارج... فهمت ما يرغب بقوله.

أبعدت الولدين بعد أن قبّلتها وتمنّت لهما عيد ميلاد سعيداً.. انتحت بعبد الحميد جانباً وسألته:

- «أين رائف بيه.. أئن يأتي؟».

تنحنح بمكر:

- «هو لمر يتلق دعوة؟».

تلفت حولها غير مصدقة:

- هل تمزح؟، كل هذا من صنعه، كيف يكون بانتظار دعوة؟، هو ملك الحفل اليوم!!».

رفع أكتافه بقلة حيلة:

- «أنا عبد المأمور يا كروان».

التفتت لتنظر للولدين لاهيين باللعب بألعابها الجديدة.. اعتصرت كل مقاومتها ونادتهما:

- «رائد.. رامي..».

قفزا إليها في صوت واحد:

- «أمرك يا أجمل أخت في العالم».

عبأت صدرها بالهواء بعد أن استمدت نظرة دعم من عبد الحميد، نظرت لهما وتأوهت بصمت.. كم يشبهانه، كيف لمر يلاحظ هذا الشبه بينه وبينهم؟.. سألها رائد بقلق:

- «كروان.. هل أنت بخير؟».

- «نعم.. نعم.. أعتقد أنكما ترغبان بتوجيه الشكر للرجل الذي أرسل لكما

كل هذه الهدايا والحلويات!!».

تبادل الولدان النظرات المستفهمة:

- «ولكننا ظنناك أنت التي...».

هزت رأسها بالنفي:

- «كان بإمكانني شراء قالب حلوى صغير، وربما هديتين متواضعتين، على

حسب إمكانياتي البسيطة، ولكن كل هذا... أعتقد أنكما بذكائكما أدركتما

أنني لست الفاعلة... أم أنكما تتذاكيان أيها المشاكسان... خاصة في وجود عم

عبد الحميد وجابر».

أطرقاً رأسيهما يخفيان المكر بنظراتهما، فضحكت:

- «حسنًا.. لِمَ لا تذهبان للسيد رائف وتقدمان له الشكر، والدعوة ليحتفل

معنا؟».

شهق الاثنان بصوت واحد:

- «أحقًا ستسمحين لنا بدعوته؟.. أنت أجمل أخت».

وركضا خارج البيت حتى قبل أن تنطق بكلمة أخرى.. كان والداها يقفان

بعيدًا يراقبان ما يحدث بنظرات مشفقة.

احتدت نظراتها رغم مشاعرها الممزقة، بين عنادها ومنظر الصبيين وهما

يركضان بلهفة لدعوة رائف.

استمرت تدعو بصمت ألا يستجيب لطلبهما.. أن يتحجج بأي حجة، أو يكون

مريضًا.. اتسعت عيناها برعب عندما تذكرت منظره عندما كان بحاجة لدوائه المخدر، كان مهتاجًا، وكيف ألقى بها بقسوة خارج بابه دون وعي.. همت باللحاق بهما عندما وقف عبدالحميد بطريقها:
- «ماذا يقلقك الآن؟».

كانت نظراتها حائرة بين الرجل المعترض طريقها، والطريق الخالي خارج المنزل وهي تصيح بدعر:
- «ماذا لو كان تحت تأثير ال...».
هز رأسه يقاطعها:

- «لن يؤذيها.. ثقي بي.. سيفضل الموت على أن يصيبها مكروه».
تراجعت بدقات قلب يكاد يخترق صدرها:
- «لماذا؟».

- «أنت تعرفين السبب».
دافعت عن نفسها بحدة:
- «أنا لا أعرف شيئًا».

- «بل تعرفين.. رجل مثل رائف لن يؤذي ولدين صغيرين».
- «ليس وهو في وعيه... ولكن ماذا لو...».

ابتلعت كلماتها باطمئنان، عندما رأت من بعيد رائد، ورامي يغادران الفيلا... ولم تكد تستمتع بشعور الراحة حتى رأت رامي يمسك بيده ويستحته على السير، ورائف يتبعهما بنظرات مشبعة حنان و... عاطفة أخرى مبهمة وحدها تعرف سرها».

أوماً عبد الحميد بنظرة وكأنه يقول لها:

- «أخبرتك... لا داعي للقلق».

أفسحت تتيح للثلاثة الدّخول... وقف رائف أمامها يحدجها بنظرة امتنان:

- «شكراً لك».

رفعت أكتافها بلامبالاة:

- «أنا لمر أفعل شيئاً.. أنت رجل اليوم... كما أنك لا بد أن تتذوق كعكة عيد

الميلاد، وتتمنى للولدين حياة سعيدة».

همّ بالاعتراض عندما جذبته الولدان من يديه بصخب ليلعب معهما، ورغم

علامات الإجهاد المرسومة على وجهه، انسجم معهما رغم خشونة حركاتهما،

ودفعهما لبعضهما بعضاً باستمرار... كادت تنادي عليهما ليترفقا به، ولكن

السعادة على وجهه والتي ذكّرتها بالماضي في أول لقاء لهما، عندما كان وجهه

دائم الابتسام، وعيناه تلمعان ببريق الشقاوة والمرح:

- «سيكون بخير يا عزيزتي.. جميعهم سيكونون بخير».

التفتت لوالدها المراقب لما يحدث برضا، وكأنه كان بانتظار هذه اللحظة من

سنوات طويلة.. عادت تنظر إليهم برعب هذه المرة.. لقد طرحاه أرضاً هذه

المرة، لم يعترض ولم يتأفف.. كان يبادلها اللعب الخشن والولدان يقهقهان

بفرح بالغ، اختنق حلقها بالعبرات، ولم يسمع أحد شهقتها وهي تهزول

مسرعة للمطبخ».

- «الصبيان بحاجة لوالديا كروان».

التفتت لتواجه والدها، هزت رأسها بأسمى آيات العذاب النفسي محفورة على

أخايد وجهها مع دموعها:

- «مستحيل.. وجوده في حياتهم يعني دمارهم.. ولا أعني على أيدي الإرهابيين الذين تسببوا بقتل زوجته وابنته، بل القاتل سيكون من لحمهم ودمهم، لقد هددني.. لو اكتشف أنني استعملت ماله الذي أعطاه لي لأخرجهم للحياة بدلاً من وأدهم كما طلب مني، لا أكاد أتخيل ماذا يمكن أن يفعل بهم.. أنت لا تتخيل جبروت هذا الرجل.. بابا.. أرجوك لا تزد على... ماذا بيدي أن أفعل؟».

- «ألم يخطر ببالك أن رائف سيحميهم؟».

صرحت بعذاب:

- «رائف عجز عن حمايتي وحماية نفسه، انظر إليه.. أب مع أولاده لا يستطيع التعرف عليهم.. ولا يذكر اليوم الذي التقى فيه بأهمهم، ولا يتذكر خداعه وعقد الزواج المزيف الذي تزوجني به».

- أنتِ تفترضين أشياء كثيرة، قد تكون كلها نابعة من مخاوفك فقط، ولا وجود لها على أرض الواقع».

- «حاضر بابا.. سأكون معك للنهاية.. سأخبر رائف أنهم أولاده، وأني زوجته التي خدعها.. هل ستضمن لي أنه لن يتهمني بالجنون، وبمحاولة استغلال فقدانه للذاكرة لألّفق له قصة حب وزواج وأولاد؟ هل ستضمن لي هذا بابا؟ خاصة أن عقد الزواج من الأصل مزيف، ما الدليل على ادعائي؟».

هز رأسه يميناً ويساراً بلامح الحزن تكتسي وجهه، أخرجت زفرة قوية ورفرفت برموشها، كي تمنع الدموع من الانهيار.. تمت بصوت مختنق:

- «هيا بنا ندخل قبل أن يفتقدونا، وقبل أن يشعر ضيفنا أنه غير مرغوب في وجوده».

سبقت للخارج ثم توقفت مشدوهة أمام منظر رائف يحتضن الولدين بقوة،

وعيناه تفيضان بدموع عاصية.. ذكرتها برائد في بعض الأوقات. هتفت تنادي
الولدين:

- «رامي.. رائد.. ألا تظنان أنكما أنهكما السيد، وما يزال في فترة النقاهة؟»
ضاقت عيناه وهو يحدجها بنظرة قلقة، ثم عبث بشعرهما وهما ينسحبان،
اقترب منها قائلاً:

- «أخواك لمر يتعباني فعلاً.. منذ شهور لمر أشعر بكل هذا النشاط، والمدهش
أنني أشعر بأني بخير فعلاً.. شكراً لك... أعلم مقدار الصعوبة التي واجهتها
لاتخاذك قرار وجودي هنا بينكم».

وضعت يدها على فمه لتمنعه من الاسترسال:

- «لا بأس.. أنا لا شيء لأحكم على تصرفاتك.. كما أنها مجرد ليلة...».

كانت يداها ما تزال تلامس شفتيه، عندما هاجمه هذا الإحساس المرعب
برغبته المحرقة في تقبيل هذه الأنامل، حتى تذوب نعومتها بين شفتيه.
انتبهت فجأة لإغماضه عينيه، ورأسه الآخذ بالانحناء على يدها، وقد بدأت
شفته بمشروع تذوقها.

ازدادت خفقات قلبها سرعةً، بضجيج المعارضة، حتى ظنته سيقفز خارج جسدها..
علاطين في أذنيها، وغامت عينها، كأنها تتوسل هذه اللحظة منذ الأزل.

- «كروان.. كروان.. هيا لنطفئ الشموع... سيد رائف.. هل ستأتي؟».

وصلهما نداء رامي كهزيم رعد في ليلة ساكنة مظلمة، لينتفض كلاهما مجفلين،
وقد تملك أحدهما الحيرة والتساؤل، والآخر يكاد الخجل والارتباك يسحقانه.

ابتعدت بسرعة متحاشية نظراته الملتهبة، واثقة من الحيرة المعذبة تطل منها
بصمت.

دقت ساعة الحائط العتيقة اثنتي عشرة دقة منتظمة رتيبة.. أبدى الولدان تكاسلاً في تنفيذ أمرها بالتوجه فوراً لغرفتهما، يصران على عدم إنهاء هذه الليلة المميزة من حياتهما، التي أصبح لها مذاق مختلف بوجوده معهما.. وإن كانت مجرد ليلة واحدة!!

كانت نظراتهما متسمة عليه أثناء صعودهما السلم بإحباط، وكأنهما يستخلصان منه وعداً أن يبقى ولا يذهب أبداً... هتفت كروان بغیظ:
- «أسرعاً... ليس أمامنا الليل بأكمله».

التفت لها رائف بعد اختفاء الصبيين في أعلى الدرج:
- «أكرر شكري العميق لسماحك لي بمشاركتكم هذه الليلة.. لا تعرفين كم يعني لي وجودي هنا الليلة معك... أعني مع الأولاد».
لوّحت بيديها بامتنان:

- «الشكر لك.. لولا تبرعك السخي ما...».
ابتلعت كلماتها بخجل عندما لمس ذقنها بخفة يرفع رأسها إليه، يتأمل ما تحاول الهروب به.

صدمها بموجة مدمرة من المشاعر والأحاسيس تكاد تشتعل في الفراغ القليل بينهما.. والذي أخذ بالتناقص بدون أن تعرف السبب، وبغياب وعيها داخل الصرح الهائج في أمواج عينيه، وجدت نفسها تزداد اقتراباً، حتى بدأت ذراعاه تحتوي جسدها على صدره، ملهوفة لهذا الوعد بعناق يسلب الروح من الوجدان، يروي أرضاً جذباء شققها العطش لسنوات طويلة عجاف.. يرويها بعاطفة فياضة أعادت لقلبها نضارته الغائبة منذ سنوات، وأخيراً عاد إليها شعورها الفقيد: أنها.. «أنثى».

دفعت صدره بيديها تشهق بذعر، أمسك بتلابيب أعصابها المتشنجة:

- «لا.. هذا خطأ.. لا يمكن أن نسمح لعواطفنا أن تجرفنا وننسى أنفسنا و...».

وضع إصبعه على شفثيها لتصمت، فامتثلت بأنفاس لاهثة:

- «تصبحين على خير يا كروان.. أحلامًا سعيدة».

لقد ذهب.. كالحلم الجميل الذي تستيقظ منه متمنية أن يكون حقيقة، ولكنه في كل مرة يكون، وسيكون دائماً، مجرد حلم.

في الصباح اقتحمت الفيلا بخطوات ثابتة، لقد توصلت لقرار آخر، ولا بد من تنفيذه فوراً.. قبل أن يجدد في الأمور ما يصعب التراجع عنه فيما بعد.. لا بد أن تروى لرائف، لا بد أن يعرف أن ما حدث ليلة أمس من تهور غير محسوب في مشاعرهما كان نتيجة للحظة جنون عابرة، وأن ما حدث لا يجب أن يؤثر في علاقتهما المستقبلية، كخادمة ومخدوم، وبدأت قراراتها التي استهلكت منها طوال الليل في إعدادها بالذوبان كقطعة من الثلج فوق صفيح ساخن، عندما وجدته أمامها في المطبخ بابتسامته التي أضاعت وجهه، والتمعت بها عيناه، اقتربت منه بسيقان مرتعشة، فبادرها ملاحظاً توترها غير المتوقع:

- «صباح الخير يا كروان.. صباح جميل.. أليس كذلك؟».

- «أنا... أنا...».

وضاعت منها الكلمات.. ضاقت عيناه وهو يسألها:

- «ماذا بك؟.. هل أنت بخير؟».

أجابته بسرعة، متوسلة لشبح الضعف وسيطرة مشاعره الاستحواذية أن يبتعدا:

- «نعم.. نعم... ماذا تفعل في المطبخ؟».

قلب شفتيه بغير اقتناع لردها، ومحاولتها للتماسك لـر تغب عنه:

- « كما ترين.. أستعيد مهاراتي في صنع الإفطار.. لا تقلقي؛ لـر أتعدّ على اختصاصاتك... وهذا العرض الخاص لليوم فقط.»
سألته وشعورها بالضيق يتسع ليشمل كل كيانه الهش:
- «ولكن.. لماذا؟».

رفع رأسه للسقف متأففاً:

- «يا للنساء.. يمكنك أن تكوني ممتنة من باب التغيير.»
هتفت بحدة تعمدت أن تكون مطابقة لما تشعر به من غليان:
- «سيد رائف.. بالنسبة لما حصل بيننا في نهاية السهرة أمس، أنا لا أرغب أن...».

اشتد ارتباكها عندما أغلق فمها بوضع الملعقة فيه، يطلب منها بمرح أن تتذوق صنع يديه:

- «ما رأيك.. هل هو مالح.. أم...».

ابتلعت ما وضعه في فمها دون أن تستطيع تمييز أي مذاق له، عقدت يديها على صدرها تطلق شرارات من الغضب بعينيها.. ولدهشتها لـر تترك عليه أي تأثير يُذكر؛ مما حداها لتسأل نفسها عن السبب، ولماذا يبدو مختلفاً اليوم؟ حتى فوجئت به يأمرها بجديّة:

- «اجلسي وتناولي فطورك.»

أجابته بإحباط:

- «أنا أتناول إفطاري مع بابا وماما.»

دفعها من كتفيها لتجلس، وضع طبق بيض العيون أمامها وأشار لها بتهديد:
- «ستلتهمين كل طعامك.. دون (لكن).. ودون أي مبررات.. وبعد أن نملأ معدتنا، يمكننا الدخول في أي مناقشة.. الكلام على معدة فارغة يسبب لي عسر الهضم».

أخرجت زفرة لتجلي صدرها من الانقباض الذي يثقله كحجر صوان، كانت تنظر للطعام دون أن تراه حقًا... بدأ يتناول حصته بتلذذ شديد، رغم شعوره بكل الذبذبات المرتبكة والغاضبة التي تصدر منها.. ثم سأها فجأة:

- «هل تقدمون أطعمة بحرية في المطعم الذي تعملين فيه؟».

حمدت الله أنها لم تضع شيئًا في فمها، وإلا كانت اغتصت به... رفعت عينيها إليه:

- «نعم.. نقدم كل أنواع المأكولات البحرية.. ولكن، لماذا تسأل؟... أنت لا تفكر ب... لا يمكن».

«وما الذي يمنع؟ ألا تريدني مني رؤيتك أثناء عملك؟».

«أنت مخطئ... كما أنك حر، تذهب في أي مكان تشاء، والمطعم مفتوح للجميع، عن إذنك لقد تأخرت.. سيذهب الأولاد من دوني».

- «كروان..».

نظرت ليده التي تمسك بمعصمها، ثم رفعت عينيها بتساؤل في محاولة مضنية لمداراة الصّراع الدائر داخلها، لجزء من لحظة خيّل إليها أن نظرته أصبحت فجأة مختلفة، وكأنها انتقلت في جزء من الثانية عبر ثقب دودي في الزمن إلى الماضي، ضاعت بين ثورات مشاعرها المتضاربة، هل تقفز فرحًا أم تصرخ من الخوف.



ترك معصمها فجأة، وقد اغتمت عيناه بعد صفائهما، وأشاح بوجهه قائلاً، وكأنه يصارع وحشاً غير مرئي:

- «لقد اتفقت مع الأولاد كي أصطحبهم من المدرسة اليوم.. بالطبع إن لم يكن لديك مانع».

قفزت كل أنواع صرخات الاعتراض على لسانها، ولكنها ألجمتها فوراً، فقد احتدت نظراته عندما كشفت نفسها بردة فعلها، تمتت قبل أن تهزول خارجة:

- «أرجو أن يكون هذا العرض الكريم ليوم واحد فقط».

وقبل أن تتعد تماماً أوقفها صوته العنيد:

- «ماذا لو كان اليوم، وكل يوم؟».

أجابت بوجوم دون أن تضطر للالتفات نحوه:

- «أرى أننا نصل لجدار يستحيل عبوره».

وأكملت سيرها باستقامة، وكان تحديده المبطن لم يحرك بها شعرة.



6

طوال اليوم لم تنطق بكلمة واحدة... حاول كلا والديها دفعها للحديث، ولكن كل محاولاتها باءت بالفشل، فتركها في أفكارها الشاردة تحدق في البحر.. أفكار كثيرة تشغلها: أولادها، زوجها الذي لا تعرف إن كان يجب أن تهرب منه، أو تلقي بنفسها وأسرارها وكل همومها في أحضانها، التي اشتاقت لها كتوق المحكوم عليه بالإعدام لأمنية أخيرة.

وتضيف مشكلة حنين هماً جديداً لجمال همومها.



أمام بحر الساحل الشمالي وقفت من شرفة الشاليه المستأجر تتأمل الأفق اللانهائي الممتد حتى نهاية الأرض... تنهيدة رضا عبّرت بدون حروف عن السعادة المطلقة التي تعيشها.

ألقت نظرة خاطفة من فوق كتفها.. تعجبت.. لا توجد أجنحة.. إذن، لماذا تشعر أنها تكاد تطير!!.. كل شيء مر بسرعة... من اللحظة التي صمم فيها وليد على إخراجها من المشفى، ثم ذهب بها لشقة فخمة، سخرت من نفسها لارتياها الساذج عندما فتح الباب، وأشار لها لتقدمه بالدخول.

ترددت لحظات وهي تجيل النظر بينه وبين الباب المفتوح، ثم قررت أن تثق بحدسها وتغامر.. لن تخسر أكثر مما خسرت.. أغمضت عينيها، وخطت داخل

الشقة وفتحها لتجد بانتظارها مجموعة من الفتيات.. التفتت لوليد بتساؤل صامت.. هز رأسه بنظرة ساخرة، فأدركت بخجل أنه قرأ نظرة الارتياب التي حاولت إخفاءها، كانت هذه مفاجأة سارة أخرى، أن حبيبها يقرأها ككتاب مفتوح... أطرقت برأسها فرفعه لها قائلاً:

- «هذا فريق كامل من مركز التجميل الشهير، سيقومون بإعداد عروسي الجميلة، لأجمل ليلة في عمرها.. اتركي لمن نفسك تماماً.. اتفقت معهنّ على كل التفاصيل».

خفضت رأسها بخجل، تحاول منع دموعها قائلة بتأثر:
- «ولكن... هذا كثير... كثير يا وليد».

رفع يدها وقبّلها بحنان:

«لا شيء في الدنيا كثير على حنيني، سأمر عليك في المساء.. سأتصل لتكوني مستعدة».

- «أنت... أنت شخص جميل جداً يا وليد».

قهقهه بارتياح:

- «كوني سعيدة من أجلي... إلى اللقاء».

- «وليد.. انتظر... هل من أخبار عن... زاء..هر؟».

ندمت على سؤالها عندما ظهر الاحتقان على وجهه، وكأنه يحاول أن يكظم غيظه:

- «لا تقلقي على أخيك العزيز؛ لقد ظهر له هو ولأصدقائه محام كبير... دك أركان القضية من أساسها، بعد أن وجد ثغرة في إجراءات الضبط... وسيخرج خلال أيام فقط».

وضعت يدها على فمها لتكتم الشّهقة المرعبة التي أفلتت من حنجرتها رغمًا عنها، فتابع وليد بنبرة حادة:

- «هل أنتِ خائفة من أخيك وأنتِ معي؟.. أقسم أن أجعله يدفع ثمن ما فعله بك غاليًا، لو كان القانون عجز عن معاقبته، فما زال قلبي ينبض بصدري، لن أنسى، ولو راودته فكرة، مجرد فكرة أن يقترب منك سيكون آخر يوم في حياته».

هزت رأسها بالنفي بجزع:

- «لا... وليد أرجوك ألا تؤذيه».

- «هل تدافعين عنه بعد كل ما فعله بك؟».

- «هو أخي، ورابط الدّم بيننا لن ينقطع أبدًا.. أتمنى يومًا أن يندم على تفريطه في الأمانة التي تركها له والداي، ومن أجلهما فقط أتوسل إليك، لا تورط نفسك معه».

أمسك برأسها وطبع قبلة على جبينها بعمق، ثم انصرف بدون أيّ كلمة تطمئنّها لنيته تجاه أخيها.

دلكت كتفيها بعدما لسعتها البرودة القارسة.. وعلى الفور شعرت بالدّفء يسري بجسدها، مع قشعريرة لذيذة عندما التف حولها شال مع ذراعيه تحتويانها، وتضمّانها لجسده المعضل من الخلف يهمس في أذنيها:

- «حبيبتي.. الجو بارد لير لا تدخلين؟».

أمسكت بيده لتتأكد إن كان حلمًا، ثم تمتعت عندما اكتشفت أنه من لحم ودم، دون أن تشيح عينيها عن البحر الممتد حتى الأفق:

- «أنا لا أحلم، ورغم ذلك أشعر كأنني أعيش داخل فقاعة وهمية تحملني وتطير

بي لكل مكان داعب أحلامي، أو كأني عصفور يتنقل في الفضاء بسعادة متناهية.. لا ينقصني إلا الجناحان».

قضم طرف أذنها بأسنانه لتمتد القشعريرة اللذيذة في كل حواسها، والخدر اللذيذ الذي أمسك بأطرافها:

- «شبيك لبيك... اطلبي ووليد زوجك وحببيك سيلبي كل أحلامك».

صرخت بسعادة عندما حملها، وأخذ يدور بها حتى صرخت متوسلة ليتوقف. أوقفها أمامه يُبعد شعرها الحريري عن وجهها، ويطلع على وجهها قبلات متناثرة.. بدأ شعورها الطبيعي بالخوف، والرّهبة يزداد تدريجياً مع جراءة زوجها، وقبل أن تهتف به ل يتمهل، قاطعها رنين هاتفه المحمول.

ابتعد عنها بأنفاس ثقيلة متمماً باعتذار لم تسمعه، فقد كان الطنين في أذنيها يجذب عنها كل الأصوات.. كادت تتسلل مبتعدة، لتلتقط أنفاسها بعيداً عنه، ولكنه أمسك يدها يمنعها من الهروب، وييده الأخرى يمسك بالهاتف على أذنه.

بدأت الأصوات تعود لها بالتدريج لتدرك أن المحادثة بين وليد والمتصل لم تحمل أخباراً سارة، فقد بدأ وليد بتنفيس غضبه بالضغط على معصمها دون أن يشعر، وهو يصيح بمحدثه:

- «وكيف سمحت بهذا يا طارق؟.. أخبرتك أن تعطني بها.. حسناً، حسناً.. تذهب لذلك الوغد، وتهدهد بما نملكه ضده.. أنت تعرف. نعم، وتمهله ساعات فقط ليصلح كل ما أفسده بحمقه ورعونته، سأنتظر منك أخباراً سارة».

أغلق الهاتف ثم التفت لحنين ليفاجأ بدموعها الصامتة، فسألها بدهشة:

- «حنين.. ماذا بك؟».

تحولت عيناها لمعصمها الذي ما يزال بين قبضته فتحها فوراً لئفاجاً بالكدمة الحمراء التي تركت أثرها على جلدها الرقيق.. جال بنظراته بين معصمها المكدوم، وعينيها الدامعتين وسألها بتأثر:

- «لماذا لم تنبهيني؟».

تمتت بنبرة ذعر:

- «أنت.. أنت كنت غاضباً».

أخرج زفرة طويلة يهز رأسه بعتاب، ثم رفع معصمها يطبع عليه قبلة رقيقة:

- «حبيبتى.. أنا آسف.. أحياناً لا أتمالك نفسي عندما يفقدني الغضب الشعور.. لا بد أن أعتاد وجود مخلوقة رقيقة مثلك في حياتي، كما لا بد أن تتعلمي أن توقفيني عند حدي عندما يحدث كما حدث الآن... اتفقنا حبيبتى؟».

بهزة صغيرة من رأسها أبدت موافقتها، ثم سألته عندما تركها:

- «وليد.. لماذا رغبت أن أصبغ شعري بهذا اللون الكستنائي؟».

بعد لحظة صمت هتف بعينين مشعتين:

- «لأنك تبدين أجمل بكثير.. تعالي وانظري ماذا أحضرت لك...».

اقتربت بفضول، ليضع في يدها أشرطة أدوية.. تأملتها بدهشة ثم رفعت رأسها بنظرة تساؤل:

- «ما هذا.. أنا لست مريضة».

أمسك بيديها وجلس معها على الفراش الدائري:

- «أعلم حبيبتى.. ولكن هذه الأشرطة لمنع الحمل».

- «ولكن...!!».

- «أعلم ما سبب ترددك.. بالطبع أجمل شيء في الدنيا أن يكون لنا طفل صغير، ولكنك تتفقين معي أننا لا بد أن نتمهل قليلاً قبل أن نربك حياتنا بطفل، عندي خطط كثيرة لأعوضك عن كل لحظة تعاسة عشتها قبل أن ألتقي بك، وهذا لن يتم إلا بتأجيل الإنجاب... أنت تتفقين معي.. أليس كذلك؟».

أومات بقوة قائلة بنبرة متحشجة من الدموع التي ابتلعها بغصة؛ كي لا يشعر بانهارها:

- «بالطبع، بالتأكد.. كما تريد.. أنت على حق».

ضمها بتنهيدة راحة وقبل رأسها بحنان:

- «والآن، لنبدأ أول ليلة من حياتنا الزوجية.. هل أنت خائفة مني؟».

هزت رأسها بضعف فعاد يضمها بقوة ليحتويها:

- «لا تخافي مني أبداً، سأكون رقيقاً معك، ولكن سأحضر لك كوب الماء أولاً لتسهيل ابتلاع الحبة».

اعتصرت عينيها بقوة كي تجبرها على إعادة دموعها، التي تقف متأهبة على أبواب رموشها الطويلة، بتهديد جدي بفيضان... ثم فتحتها بقوة مع ابتسامة مترددة وهي تمسك بكوب الماء لتبتلع أول حبة من الشريط.



تأفتت بغیظ عندما عاد الطّرق والحبط، على بابها الذي كاد أن يبلى من الطّرق عليه اليوم، رغم كل تحذيراتها وتهديداتها لكل سكان البيت من إزعاجها، لكن ها هو قد عاد الطّرق بإصرار. نهضت تتوعد من أصر على إزعاجها بعظائم الأمور.

فتحت الباب لتفاجأ بزميلتها في المطعم تقف أمامها بنظرة متهكمة:
«رويدا..!!».

- «مرحبًا كروان.. هل تسمحين لي بالدّخول؟.. أخبرني والداك أنك منقطعة
عن العالم، ولا ترغبين برؤية أحد!!».
تجاهلت كلماتها وسألته بقلق:

- «هل من أخبار عن حنين؟ هل هي بخير؟».

مطت شفيتها بنظرة ساخطة:

- «حنين.. وكيف لي أن أعلم؟.. سرك معها وسرها معك، ولم يتدخل أحد
بينكما.. هل هي مختفية؟».

- «لا تبالي.. لماذا جئت؟».

- «هل سنتحدث على الباب؟.. أدخليني أولاً».

زفرت كروان بانزعاج، ثم لوّحت بيدها مشيرة لها بالدّخول.

تهادت رويدا تتطلع حولها بفضول مستتر خلف نظرات لا مبالية، جلست
على المقعد الوحيد في الغرفة.. جلست كروان أمامها على الفراش، تحدّق فيها
بانظار ما ستقول.

لم تخيب ظنها وبدأت فوراً:

«باختصار، أرسلني ماهر لأطلب منك العودة للعمل».

انتفضت كروان لا تصدق أذنيها، فهذا الطّلب كان آخر ما يخطر ببالها،
خاصة بعد ما حدث منها:

- «ماهر طلب منك هذا.. بعد كل ما حدث؟!».

غرقت رويدا في نوبة ضحك قائلة بصوت متقطع:

- «تقصدين عندما صبغت وجهه بقنينة الحبر الأحمر، لقد كان منظره مسخرة حقيقية.. لقد خصم من كل البنات يوماً بالكامل لأنهن لم يستطعن كتم ضحكهن كلما رأينه، وحتى الآن لم يستطع التخلص تماماً من اللون».

- «وبعد كل هذا يطلب مني العودة.. أم أن هذه لعبة جديدة منك، لتوفقي بعض الرؤوس في الحلال؟!!».

شهقت رويدا وكأنها جرحت أحاسيسها المرهفة:

- «أقسم لك أنه هو الذي أرسلني، وشدد عليّ ألا أعود إلا وأنتِ معي، وهل سأجرؤ على هذا الطلب بدون علمه؟.. حتى أنا لا أفعلها».

وقفت كروان تهتف بحدة:

- «إذن، أخبري / الأستاذ ماهر، غير المحترم أن...».

- «لا تتعجلي القرار يا كروان.. رغم كل ما حدث، ظروفك لم تتغير يا حبيبتي... وأنت مثلنا بحاجة لهذا العمل... ولا تدعي أنك فجأة أصبحت في غنى عنه مهما كان وضيعاً.. كما أنني سمعت أنك تركت العمل في المصنع... من أين ستتدبرين الإنفاق على أخويك ووالديك، وهذا المنزل الحרב، أنت العاقلة فينا.. لا تهدري هذه الفرصة، كما أن باستطاعتك الاشتراط على ماهر أي شرط، طالما يرغب بعودتك لدرجة تهديدي بالطرد لو لم تعود معي».

- «هل فعل هذا حقاً؟!!».

- «أقسم لك أن هذا ما حدث».

تنهدت بضيق:

- «حسناً يا رويدا، أخبريه أنني سأفكر وأرد عليه.. قد أرتاح لي يومين ثم أعود».

«حسناً ولكن لا تزيدني عن يومين.. سأذهب الآن، وأرجو أن يهديه ربنا ولا يطردني بسببك».

كانت اختياراتها محدودة، بل إنها ندمت على تهورها الذي تسبب بطردها من المطعم، وأصبح اعتمادها الكلي على رائف.

سببت لها الفكرة ضيقاً وغيثاناً.. كيف يمكن أن تأمن للرجل الذي باع وعوده لها، وراهن على سذاجتها، وكسب الرهان بجدارة.

لماذا طلب منها ماهر أن تعود للعمل رغم كل ما حدث؟

لم تعرف، ولكنها واثقة من شيء واحد، هو لم ينسَ ولا للحظة ما عملته فيه، بدليل نظراته الكارهة المتوقعة، وكلماته التي تخرج من أسفل أضراسه وكأنه مغضوب على عودتها.. ولكن من سيرغمه؟

أزاحته من أفكارها، يكفيها إحساسها بالأمان مرة أخرى بعد عودتها للعمل، رغم الهمس واللمز من حولها.

كانت غارقة بأفكارها عندما فتح باب المطعم يغزو المكان بهيئته المهيبة.. لم تصدق عينيها في أول الأمر.. وقفت مذهولة وهو يجول بنظراته في أنحاء المكان حتى تسمرت عليها.. هزت رأسها لا تصدق ما ترى... ثم تراجعت عائدة للمطبخ ورويدا تصطحبه لإحدى الموائد المنعزلة كما طلب.

منغلقة على نفسها وصراع يدور في رأسها يكاد يصيبها بالجنون... الوضع يصبح مستحيلاً بمرور الوقت.. تأوهت في صمت تسخر من نفسها، هي التي ظلت عشر سنوات يمزقها الشعور بالغضب والظلم والحرمان.. الآن ينخر

الرَّعب أوصالها من أمنياتها الدَّفينة؛ فقد وجدت نفسها فجأة تتمنى لو يضمها رائف بين أحضانه.. لو تستيقظ صباحًا تجد شعرها مفترشًا صدره، وأذنيها يتنعمان بدقات قلبه... أن ترى نفسها مرة أخرى داخل صفاء عينيه.

كل غضبها الذي عاشت تقنات عليه، كل السَّنوات الماضية، تحول إلى سراب، لأنها تأكدت أنه لا يتذكرها فعلاً، ولا يدَّعي كما كانت تظن، ربما لو تذكرها لاستطاعت استعادة شعورها المألوف نحوه بالكُره.. هذا الرَّجل لا يستحق إلا أن تكرهه بكل ذرة في كيانها، آه... ما أصعب أن ترغب في كُره شخص تعشقه حد الجنون، ولكنها أصبحت متأكدة أنه مثلها تمامًا، ضحيَّة عقل مدبر شرير لن يعيد التفكير مرتين لو عرف أنها عادت تدور في فلك حياته مرة أخرى... شهقت عندما لكزها ماهر:

- «استيقظي أيتها الحاملة.. زبون جديد بانتظار حضرتك يا آنسة».

أمسكت بدفترها وانطلقت دون أن ترد على مديرها المتسلط، ولا حتى بنظرة.

مط رائف شفثيه باشمئزاز، وهو يراها تقترب منه بملابسها القصيرة، مفتوحة الصَّدر بشكل مبالغ فيه، سهام عينيه رشقتها باتهامات جائرة.

قدمت له قائمة الطَّعام، ووقفت متماسكة بصبر تدعو لنفسها بالصَّمود:

- «تفضل قائمة الطَّعام.. وأنصحك بتجربة طبق المطعم المميز...».

- «اهدئي يا كروان.. وإلا مزقت تلك الابتسامة المشوَّهة وجهك».

وازدادت الابتسامة اتساعًا:

- «هذا شعار المطعم يا أستاذ، ولا أستطيع مخالفته حتى لو أمرتني، ولو كانت ابتسامتي لا ترقى لإرضاء ذوقك العالي، سأذهب وأرسل لك زميلتي، قد تُرضي

غرور حضرتك بابتسامتها الطَّبِيعِيَّة الودود، وربما أكثر لو شئت وسمح لك ذوقك».

سألها متشددًا بتسليية:

- «ولماذا لا أحظى منك أنتِ بهذه الابتسامة... وأكثر؟».

ودون أن تتأثر ابتسامتها:

- «لأنني في هذه اللحظة بالذات لا أرغب إلا بالصَّراخ حتى تخرج روحي من جسدي».

- «بسبب وجودي هنا؟.. هل أزعجك لهذه الدرجة؟».

هتفت بما يشبه الصَّراخ، وقد بدأت شفتها السفلى بالاهتزاز:

- «ليس بسببك أنت بالتحديد.. رغم أنك جزء من هذا العالم الكبير غير المنصف الذي يحيط بنا.. وبما أنك طرحت موضوع انزعاجي، يمكنك أن تسدي لي خدمة.. سأوصي لك بأسماء مطاعم أخرى، سوف تعجبك أطباقها، وابتسامات مضيفاتها أكثر بكثير من هنا».

أعاد لها قائمة الطَّعام بابتسامه عناد:

- «أعتقد أنني سأقبل بنصيحتك، وسأطلب طبق المطعم المفضل... والحلو؟».

صمت لحظة لتجد لسانها يندفع دون وعي:

- «كريم كراميل».

ضاقت عيناه بنظرة رهيبه، جعلتها تقضم لسانها بعد فوات الأوان، ثم أوما بهزة بسيطة:

«نعم... كريم كراميل!!».

انكسر القلم في يدها بعد أن دوّنت طلبه، ثم هزت رأسها بوقار زائف لا يظهر كل غضبها وسخطها الذي يجتاحها كرياح تكاد تقتلعها من جذورها مرة أخرى.

تعمد ماهر اعتراض طريقها لتصطدم به وهي في حالتها الرّاهنة، رفعت عينيها نحوه بخوف، لتلتقي بعينه المتوهجتين المنذرتين بالوعيد:

- «ما هذا الذي تفعلينه يا کروان هانم؟.. لم يعجبني معاملتك الفظة للزبون، هل تحاولين إزعاجه كي لا يعود مرة أخرى؟».

ردت بتوتر:

- «هو لم يشتك...».

رفع يده مقاطعاً:

- «ليس بعد.. ولكنني أحذرك، لن أقف متفرجاً وأنت تتسببين بخسارة المطعم زبوناً محترماً كهذا، من أمثالك العشرات يتناثرن على الأرصفة يتنشقن لمكانك هذا... وينتظرن فقط إشارة من إصبعي».

لم تفتها تلميحاته المستترة، تجاوزته للداخل بعد أن اختلست نظرة لرائف تتأكد إن كان يتابع المشهد من بدايته.. رغم أصواتها البعيدة عنه، ولكن ملامحه المتجهمة وعيناه المعتمتان، أكدت لها أنه يشعر بوجعها.

فكرت بالمر.. «كما كنت تفعل دائماً».

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل عندما دخلت رويدا تسأل کروان بنظرات لؤم:

- «يا له من رجل!!.. هل تصدقين أنه لم يترك المطعم إلا منذ دقائق فقط».

التفتت لها کروان تدّعي عدم الفهم:

- «عفوًا... أيّ رجل تقصدين؟».

«لا يليق بك ادعاء الغباء.. كان من الواضح اهتمامه بك منذ لحظة دخوله.. عيناه تلاحقناك أينما ذهبت.. لا أعرف فتاه في رأسها ذرة من العقل تتجاهل اهتمام رجل كهذا الرجل.. لا يبدو وسيماً بكل هذه الندوب التي تخطط وجهه، لكن الثراء يكاد يصرخ من أول حذائه البراق، وحتى أظافر يديه.»

«أنتِ حقًا فارغة الرأس.»

ندت عنها زفرة ساخرة:

- «وأنتِ مثيرة للشفقة حقًا.. ليت كل هؤلاء الرجال يركضون خلفي أنا، ما كنتُ ضيّعْتُ أيّ فرصة منهم، ولكن ماذا نقول... يعطي الحلق ل...».

تجاوزتها دون رد، وغادرت المطعم.

خرجت للشارع يلفحها هواء الليل البارد.. عضت على شفثيها بقلق ممتزج بالخوف عندما لاحظت سيارة تتبعها، أسرعت من خطواتها، وكم شعرت بالغباء المطلق عندما تعثرت، وكأنها ستستطيع الهروب من سيارة على قدميها، تأملت على ضوء عمود الإنارة الشحيح، ركبتها المكشوطتين بأنين.

انتفضت للدفاع عن نفسها عندما شعرت بيدين تمتدان إليها من الخلف تحاولان مساعدتها على الوقوف.

استكانت باستسلام عندما غمرتها نبرة صوته القوية القلقة:

- «اهدئي.. هذا أنا.. هل آذيت نفسك؟».

نفضت ما تشعر به من استسلام وضعف، وأجابته بحدة مغالبة دموعها المهددة:

- «ماذا.. هل تتبعني؟».

رد بهدوء واضعاً يديه في جيبى بنطاله، وكأنه يمنع نفسه عن لمسها بصعوبة:
- «أردت التأكد أنك لن تتعرضي لمضايقة من أي نوع أثناء عودتك في منتصف الليل».

صرخت بنبرة معذبة:

- «وما شأنك أنت، وما يهملك من أمري؟».

رفع كتفيه وأنزلهما بإحباط، وكأنه حائر هو الآخر في إجابة هذا السؤال:
- «لا أدري... ليتني أعرف!!».

أومأت برأسها ولسان حالها يقول «ولكنني أعرف.. أعرف وليتني أفقد الذاكرة للأبد».

أردف عندما طال أمد الصمت:

- «هل ستسمحين لي أن أوصلك معي، أم ستعاندين وتصرين على المشي في هذا الوقت المتأخر من الليل».

- «لقد اعتدت».

فتح باب السيارة وأشار بيده..

زفرت بإنهاك ثم استسلمت رغم كل التحذيرات والإشارات الحمراء التي تومض في عقلها من مغبة فعلتها.

بمعاهدة سلام غير معروفة شروطها، حافظا على صمتهما طوال طريق العودة، حتى أوقف السيارة في المدخل المشترك بين البيت والفيللا.. أمسكت مقبض الباب لتفتحه، ثم التفتت نحوه قائلة بتردد:

- «أعتقد أنك لست بحاجة لي هذه الليلة.. على حد علمي، لقد تناولت عشاءك والتحلية.. تستطيع إعطاء نفسك الدواء و... أيًا كان ما تأخذه أيضًا...».

سألها دون أن ينظر إليها، فقد كانت عيناه تحدّقان في الأفق المحالك أمامه:

- «هل رفقتي تسبب لك كل هذا الإزعاج؟».

- «سألني هذا السؤال في المطعم؟».

- «ولم أحصل على إجابة تمنعني من إعادة السؤال؟».

أخرجت تنهيدة طويلة:

- «حسنًا.. أنا مجرد... خادمة».

استدار برأسه بحدة نحوها:

- «هل هذا هو إحساسك نحوي.. أنك... خادمة».

أشاحت بوجهها تحدّق بدورها في الأفق المظلم... تابع بنبرة ساخرة:

- «توقعت هذا... لا إجابة... ربما أجد إجابة عن السؤال الآخر، هل يضايقك

صاحب المطعم هذا... لاحظت نظراته المريبة لك اليوم... كان هو صاحب

الشيْفروليه الذي أوصلك هنا في تلك الليلة وحاول أن...».

لاحظ أصابعها التي اشتدت وهي تلوك ملابسها وكأنها تنفس فيها عصبيتها...

عرفت أنه لن يتركها قبل أن يحصل على إجابة شافية، فأومأت برأسها:

- «نعم... رغم أنني لا أعلم سبب سؤالك.. ولكن أرجو أن تكون قد حصلت

على إجابة شافية.. عن إذنك، أشعر بصداق قوي وأرغب بالنوم... تصبح على

خير».

بعد ليلة طويلة ساهدة كان القرار الذي اتخذته هو الأصلح والأكثر صوابًا

من جميع النواحي.. ولا يمكن أن تترك أي شيء مهما كان يؤثر على هذا القرار

ككل مرة، فهي لن تتراجع عنه مهما كلفها الأمر..

في الصباح ودّعت أخويها في طريقهما للمدرسة وانضمت لوالديها على مائدة الإفطار.. أدهشتها ملاحظتها المشدودة، وعيناها المحمرتان، المنتفختان من البكاء... أخذت نفساً عميقاً وأطلقت قرارها:

- «بابا.. ماما.. أنا آسفة حقاً... ولكنني قررت أن... أن نتقل من هذه المدينة».

تبادل والداها النظرات المدهشة، ثم سألها والداها بصبر:

- «إلى أين يا کروان؟».

- «إلى أبعد مكان على الخريطة.. وإن أمكن لا يكون على الخريطة... أعتذر، ولكنه الحل الوحيد».

هزت والدتها رأسها بحيرة:

- «يبدو أنك فكرت طويلاً حتى وصلت لهذا القرار الصّعب؟».

أجابت بشفاه مشدودة:

- «نعم... فكرت... وقررت».

بنبرة مزقت نياط قلبها سألها والداها:

- «هل فكرت بوالدتك وبي.. کروان نحن عجوزان، أحنّت الهموم أكتافنا،

وبتنا ننتظر رحمة ربنا في كل يوم.. سبق أن نرحنا من بلدتنا، هجرنا أهلنا،

وأصدقاءنا، حتى لا نتخلى عنك.. أنت ابنتنا الوحيدة... وعن تجربة سرقت منا

كثيراً من ذكريات عمرنا. الهروب ليس دائماً هو الحل الأمثل يا ابنتي».

سالت دموعها بصمت مدركة ما تكبده والداها من عذاب من أجل نزوتها،

واختيارها الخاطيء، قالت تحاول كتم شهقاتها المنتحبة:

- «ولكنني سأفقدكما لو لم أهرب هذه المرة.. رائف يزداد شعوره يوماً بعد يوم

بالتملك ناحيتي... ولست أدري كم سيستغرق الوقت حتى يصل والده ويراني ويرى الصبيين... ستكون النهاية... هو لا يخلف وعده أبداً». هتفت أمها بتأثر:

- «ولكن حبيبتى.. كان هذا منذ وقت طويل.. الناس يتغيرون يا ابنتى.. هما لحمه ودمه، أنا متأكدة أنه حالما يراها سينفطر قلبه».

نهضت كروان تركع أمام أمها وهي تهز رأسها بالحاح وذهول:

- «أنتم لا تعرفانه كما أعرفه.. لقد حكى لي رائف عنه فظائع لا يمكن تخيلها، وعندما التقيت به كان الشر مسطوراً في عينيه، مثله لن يرضى ولو بعد آلاف السنوات أن تكون نكرة مثلي أمماً لأحفاده، وزوجة لابنه... أتوسل إليكما أن تفكرا بالأمر، أنا لا أستطيع التخلي عنكما، لا تمزقاني بينكما وبين أبنائي.

تركتها حائرين متخبطين في أفكارهما، وانطلقت للفيلا المجاورة بعد أن غسلت وجهها، تمت ألا ينظر لوجهها اليوم، وإلا قرأ كل ما يختلج داخلها من صراع يوشك أن ينتهي لصالحه.

أعدت صينية الإفطار وهمت بحملها والتوجه بها لغرفته عندما أوقفها عبد الحميد:

- «انتظري يا كروان.. أنا سأحمل له الطعام».

بدهشة ممتزجة بنبرة ارتياح:

- «ولكن... لماذا؟».

تنهيدة تعب خرجت بصعوبة من صدره:

- «لا أدري.. لقد أمر ألا تدخلي عنده اليوم.. لا أعرف السبب، لقد ظننت أن دواء النسيان أتى بمفعوله».

سألته بحيرة:

- «نسيان!!... ماذا تعني؟».

- «حالته سيئة للغاية.. وكأن الحادث الذي أودى بحياة ابنته كان بالأمس فقط، فهو شارد مذهول وصورة نرmin لا تفارقه، وكأنه يبكيها من جديد، ولكن بدموع تأبى تبريد جوفه المحترق.. اذهبي الآن وعودي غدًا، قد يكون أفضل حالاً».

رددت بخفقات موجعة:

- «غداً... أتعني أنه لن يحتاجني في المساء أيضاً؟».

- «لا أعتقد... أنا آسف يا كروان، تعرفين لا أستطيع مخالفة أوامره».

- «لا عليك... أراك غدًا».

تعجبت من نفسها.. بدلاً من أن يغمرها إحساس بالسعادة والتحرر، إذا بها تغرق في بحر من الكآبة والحزن، وهاجس بدأ بغزو ممنهج على أفكارها، وحدها تملك العلاج الناجع لحالته.. يكفي أن تخبره أنه لم يخسر كل شيء، ما يزال أباً لصبيين في غاية الجمال، هذا الخبر وحده كفيلاً بأن ينتشله من مستنقع الأحزان التي يرفض الخروج منها.

ولكن هل الأمر بهذه السهولة كما تتخيل؟



- «حين... يا اااا حين».

جاءت مسرعة تسأله بقلق وقد لاحظت نبرته الغاضبة:

- «هل ناديتني؟».

- «نعم يا حضرة الغافلة... أين كنت؟».

- « كنت ... كنت في الشّرفة... أنتظرك... ولكنك عدت مبكرًا الليلة».

- «أعدّي الحقائب، سنعود بلطيم مع أول شعاع للفجر».

- «بهذه السّرعة... بالكاد مرت ستة أيام... وهذا شهر عسل... أليس كذلك؟».

لر يتأثر بنبرتها الحزينة وهو يصيح بانزعاج:

- «لقد انتهت إجازتي، وفي الدّاخلية لا يمنحونا شهرًا إجازة، خاصة في ظل الظروف الأمنية الحالية، كما تعرفين البلطجية يعيشون فسادًا في كل مكان».

قتلتها نظرة الاتهام تلك في عينيه، تهرّب منها، فأوقفته تسأله:

- «أنت تقصد أخي زاهر بتلميحاتك هذه.. أليس كذلك؟».

أخرج زفرة متوترة، ثم اقترب منها، أمسك كتفيها قائلاً بنبرة هادئة، وابتسامة صفراء لر تصل لعينيه:

- «حبيبتي.. تعلمين أنني لا أقصد الإساءة لك أبدًا... تزوجتك بمحض إرادتي، وأنا أعرف عنك كل شيء... اعذري أعصابي المتوترة... ألا تحتلميني بصدرك المتسع، وقلبك الكبير؟».

أومأت بعينين مغرورقتين:

- «حاضر يا وليد... سأحتمل... عن إذنك سأعد الحقائب للسفر».

أمسك رأسها يطبع قبلة حانية لر تستشعر دفئها.



لر تكن المرة الأولى التي تلتقي بوالده، ولكنها هذه المرة غمرها بدفء الوالد الذي فقدته، وهو يحتضنها بحنان أبوي عفوي:

- «حمدًا لله على سلامتكما؟.. كيف حالك يا حنين؟».

- «أنا بخير يا عمي عزت».

أشار بإصبعه:

- «بل.. بابا عزت... أنت أصبحت بمثابة ابنتي، هذا إن منحتني هذا الشرف،

لقد جددت الأمل داخلي أن يصبح لذلك الولد عائلة».

كلماته سببت لها غصة، أشاحت بوجهها عنه كي لا يرى مقدار ألمها، آه لو يعلم أن ابنه لم يقرر بعد إنشاء أي عائلة... الفكرة ما تزال قيد التجميد كما أمر حضرة الضابط، وكأنه شعر بتردها:

- «حنين.. هل أنت بخير يا ابنتي؟.. أخبريني... هل ضايقتك وليد بأي طريقة؟».

استرقت نظرة لوليد الذي التوت شفته بسخط:

- «بابا.. نحن ما زلنا في شهر العسل، أخبريه يا حنين، أخبريه أنك...».

أوقفه بإشارة من يده:

- «أرغب بسماعها هي من فضلك.. أخبريني يا حنين.. تكلمي يا ابنتي».

بالكاد كانت ترى صورته من خلال دموعها السّجينة، ولكنها ليست بحاجة لرؤيته، فملاحه بكل تفاصيلها مطبوعة في ذاكرتها كنقش الحجر... هزت رأسها بقوة:

- «على العكس... لم أقابل في حياتي رجلاً ذا طباع رقيقة وحنوناً مثل وليد».

زفر عزت بأسف:

- «تتحدثين عن ابني الذي لا أعرفه؟».

هتف وليد بضيق:

- «لقد اعترفت لك بنفسها... ماذا تريد أكثر؟».

ثم لف ذراعيه حول كتفي زوجته، وقبلها على رأسها:

- «ما أسعدني بزوجة لا تشكو أبدًا».

زَمَّ عزت شفثيه بتبرم:

- «ربما لديها اعتراض على السكن مع رجل عجوز في سن المعاش».

هتفت مدافعة:

- «أقسم لك أنني لم أعترض أبدًا.. بل على العكس، لقد رحبت بالفكرة، أنا

التي أرجو ألا تتضايق من وجودي».

«أنتِ ستضيئين حياتنا المظلمة.. أليس كذلك يا وليد؟».

أفاق وليد من شروده:

- «آه.. بالطبع... أعتقد أن حنين ترغب بالراحة بعد سفر طويل.. أمّا أنا فقد

تأخرت بالفعل على عملي، هل تأمرين بأي شيء يا حبيبتي؟».

أجابته بغصة:

- «لا.. شكرًا يا حبيبي... لا إله إلا الله».

لَوَّح بيده وهو يسرع راكضًا دون أن يسمعها، فقد شغلته مكالمة هاتفية

عاجلة من صديقه، وقد بدا منزعجًا لأقصى درجة.

ربت حماها على كتفها:

- «بالتدرج ستعتادين، وسيعتادك.. ما زال العمر أمامكما طويلًا».

أومأت بنظرات شاردة على الباب المغلق، ثم رسمت ابتسامة ناعمة لحماها

وسألته بمرح مفتعل:

- «والآن أخبرني أيًا من أصناف الطّعام تشتهي؟».
- «ليس قبل أن تخبريني عن سر تلك النظرة الحزينة، وقد كنت يوم زفافك لا ينقصك إلا جناحان لتحلّقي في السّماء».
- دارت ارتباكها قائلة بابتسامة لم تنجح في إقناعه:
- «أممم... لنقل إنني رغم كل شيء، وجدت أنني مجرد مخلوق أرضي، مهما راوده حلم الطّيران».
- أوقف وليد سيارته بعرض الطّريق أمام مبنى الدّاخلية، وقبل أن يصعد درجاته الرّخامية أوقفه نداء طارق، فاتجه إليه وعلامات استفهام كثيرة ترتسم على وجهه، بادره طارق:
- «أعلم ما يغضبك، ولكنك أنت الذي طلبت مني أن...».
- قاطعته وليد بأوداج محتقنة:
- «هذا قبل أن يصلني تقرير المراقبة، وأعرف السّبب الأصلي».
- تنهد طارق:
- «وأنا أيضًا لم أعرف... لقد تأخر المخبر الغبي في رفع التقرير الأسبوعي».
- مسح وليد وجهه بيده:
- «حسنًا... وما الحل الآن؟».
- حدجه طارق بنظرات مستغرّبة:
- «وليد.. أنت عريس منذ أسبوع واحد فقط.. أخبرني عن سبب واحد يدعوك لمتابعة كروان بهذا الشّكل.. قبل الزّواج ظننت أنك تُكنُّ لها مشاعر... ولكنك تزوجت صديقتها.. أنا لا أفهمك».

- «لا يهم.. فيما بعد ستعرف كل شيء، أكثر مما يزعجني الآن هو وجود كروان بالقرب من ماهر هذا بعد كل ما حدث منه... أكاد أجن كلما تخيلته... أقسم بالله لو رأيتَه الآن لن يكفيني قتله مرة واحدة».

تنحس طارق:

- «عندي خبر آخر... زاهر... تم الإفراج عنه وعن زملائه».

- «عظيم... وهذا ما كان ينقصني».

وفجأة توهجت عيناه ببريق شيطاني:

- «ولكن بعد تفكير آخر.. أظن أنني سأجد لظاهر هذا مصيبة أتخلص منه بها، ومن ماهر بضربة واحدة».

سأله طارق بريية:

- «ما الذي تخطط له يا وليد؟».

- «ستعرف فيما بعد يا صديقي.. ولكن أخبرني.. هل زاهر تحت المراقبة؟».

- «بالطبع.. تعلم الاحتياطات الأمنية المشددة هذه الأيام، سيظل تحت المراقبة حتى...».

- «لا يهم... لا يهم.. أراك لاحقاً».

سار باتجاه سيارته، كأنه تذكر أمراً آخر، فدار على عقبيه وعاد لطارق:

- «لقد تذكرت شيئاً.. في تقرير المراقبة ذُكر أن الفيلا المقابلة لمنزل كروان قد أصبحت مسكونة برجل ما، بصحبة خادم وحارس خاص».

أوماً طارق:

- «نعم.. يبدو أن الرجل تعرض لمحدث، وهو يقضي فترة نقاهته في الفيلا».

حدّجه وليد بنظرة متسائلة:

- «هنا.. في بلطيم.. وليس في الساحل الشمالي.. أو شرم.. أو الغردقة؟ ألا يثير هذا الموضوع ارتيابك أيها الضابط الهمام؟».

حك طارق رأسه بتفكير:

- «ربما أنت محق».

- «هل استعلمت عن صلته بالفيلا.. هل هو مستأجر أم مالك؟».

حك طارق فكه بحيرة:

- «لر يتطرق لذهني...».

قاطععه وليد بشبه صراخ:

- «لر يتطرق لذهنك... أيّ ضابط أنت يا طارق؟.. في ظرف أربع وعشرين ساعة، أريد كل المعلومات عنه، حتى نوعية ملابسه الداخلية».

وعاد لسيارته يرغي ويزبد، انطلق بها بعد دورة خماسية اشتم فيها طارق رائحة احتكاك الكفريات بالأسفلت... وفكر باستياء.. «لا شك أن وليد قد جن... ولكنني مدين له بخدمة، ولن أستطيع الانسحاب حتى لو جندنا موارد الداخلية لحسابنا الخاص».

توالت الطرقات القوية على الباب، الذي لر يحتمل طويلاً، فانفتح على مصراعيه ليجد من يسعى إليه يستلقي ممدداً على الأرض ودخان الشيشة يعلو رأسه ويخرج من أنفه... أخرج صوتاً مقرزاً من فمه ثم دعا ضيفه غير المدعو:

- «تفضل بالدخول يا وليد بيه... البيت بيتك يا صهري العزيز».

- «لر تُضع وقتك يا زاهر».

- «الخبر وصلني وقت حدوثه يا سعادة الباشا.. رغم أنني ولي كل الحق طبعاً في أن آخذ على خاطري منك.. أن تتزوج أختي الوحيدة دون مشورتي، ولا علمي... أنت ابن بلد وتعرف أن هذا التصرف يعتبر عيباً كبيراً في حقي... أم أنني مخطئ يا... وليد... لا تؤاخذني... أنت زوج أختي والألقاب محفوظة».

رفع وليد أحد حاجبيه باستهزاء:

- «نعم يا زاهر.. أنت مخطئ... أنا وأنت صرنا صهرين، ولكنني لن أرفع الألقاب مع مجرم مُدان مثلك أبداً».

دفع زاهر خرطوم الشيشة وهتف بحدة:

- «بيني وبينك حد الله... لقد برأني القانون يا حضرة الضابط... فكيف تدينني أنت؟».

- «القانون الأعمى لم يبرئك.. بل أفرج عنك بفضل خطأ غبي في الإجراءات... أي محام بقرشين يمكنه إدارة هذه اللعبة، وإخراجك بسهولة.. وبنفس السهولة أستطيع تلفيق تهمة، بإجراءات صحيحة مئة بالمئة، ولا أي محام مهما بلغت قدرته، لن يستطيع إيجاد الثغرة التي ستحل حبل المشنقة من حول عنقك».

وضع زاهر يده غريزياً حول عنقه عندما تخيل يدي وليد وهما تلفان حبل المشنقة حول عنقه، وبدا كأنه يعني كل كلمة ينطق بها؛ مما دفعه ليتساءل بتردد:

- «ماذا تريد مني يا وليد.. بيه؟».

قهقهه وليد بسعادة وهو يجلس في المقعد المقابل لزاهر واضعاً ساقاً فوق ساق:

- «عظيم.. لقد بدأنا نتفاهم.. اسمعني، وافهمني جيداً... أنا لن أعيد كلامي».



كان اليوم الرابع على التوالي الذي تعود فيه كروان للفيلا، فتجد عبد الحميد بانتظارها بملاحه المحبطة وهو يهز رأسه بيأس:

- «لر يخرج من حالته بعد.. بل ازداد سوءاً، لقد أضرب عن الطعام والدواء، ولا يتناول سوى تلك المسكنات اللعينة، لو رأيته لن تتعري في عليه».

وجدت نفسها تهتف بإصرار:

- «سأذهب إليه».

اعترض عبد الحميد:

- «لن أسمح لك؛ ربما يكون في إحدى نوبات غضبه، ويحاول أذيتك.. لقد تهجم عليّ مرتين بالفعل.. ربما يكون من تأثير تلك الأدوية التي يتناولها أن تُخرج الوحش الذي يسكنه.. كم أتحسر على الرجل الذي كان خلوقاً، مهذباً، محترماً، وقبلها كان طفلاً وديعاً.. ساعه الله ثروت بيه.. هو الذي حوّل لذلك المسخ الحاقداً».

شهقت كروان غير مستوعبة:

- «وما دخل والده بإدمانه؟».

- «هو الذي نصحه وشدد عليه ليتناولها في البداية، لتزيد من قوته، ويقظته، كي يخلفه في منصبه السياسي.. المسكين كان دائماً يقاوم هذا المصير، فلم يرغب أبداً أن يكون نسخة من والده... حتى...».

اندفعت كروان تحته:

- «ما الذي حدث؟... أكمل يا عم عبده».

- «لا أعلم بالضبط ما حدث في تلك الفترة، فقد كانت المرة الوحيدة التي ابتعدت فيها عن رائف عندما أخذت إجازة طويلة لزيارة الأماكن المقدسة،

وعندما عدت وجدت رائف آخر غير الذي ربّيته على يدي، وما أثار دهشتي أنه كان على وشك الزواج من الفتاة التي أقسم لي قبل أن أسافر أنه لن يتزوجها، لو كانت آخر فتاة على الأرض، وعندما حاولت التفاهم معه ليعدل عن قراره، أدركت أنني أتحدث مع شخص مختلف تمامًا، وقتها كانت المرة الأولى التي أراه فيها يتناول تلك المسكنات، والتي يحرص ثروت بيه على إمداده منها بطرود خاصة تصله من أوروبا، حتى أصبح كالتخاتم في إصبعه وحشًا يشبهه».

ارتجج جسدها برعشة وصلت لأطرافها... فجمعت ذراعيها حول صدرها لتسأله دون أن تبدو شديدة التلهف للإجابة:

- «ألم تستطع أن تعرف ما حدث له في الفترة التي غبت عنه فيها؟».

«وهذا الأمر أيضًا كان من العجب.. وكأن ما حدث في الشهرين حدث سري أقسم الجميع على كتمانهم وإلا فقدوا حياتهم.. رغم محاولات رائف للتأكيد باستمرار أن لا شيء حدث، فإن إحساسي لا يكذب أبدًا».

ربتت على ذراعه:

- «سأدخل إليه.. ولا تقلق بشأنني.. فقط كن على مقربة مني في حال لو...».

ضحك للحركة التي تلاعبت بعينيها ولسانها، وكأنها على وشك الاختناق... ورغم شجاعته الوهمية التي أخذت بالذوبان كلما اقتربت من غرفته، حتى بدأت بلف مقبض الباب، كانت تشعر بركبتها تتراخيان وتتخبطان في بعضهما... في البداية صدمتها رائحة دخان السجائر الذي عسر الرؤية داخل الغرفة، وكأنها تسبح داخل غيمة من الضباب، رغم الظلام الشديد، استطاعت استعمال ذاكرتها لتشق طريقها داخل الغرفة، حتى وصلت لمقبس الكهرباء.. ضغطت عليه لينتشر الضوء مبددًا حدة الانقباض الذي أخذ بمجامع أنفاسها

لحظة دخولها.. ما كادت تسترخي حتى أجفلها صوت يشبه عواء أسد
يحتضر:

- «عبد الحميد.. أخبرتك ألا تفتح الضوء.. أطفى ذلك الضوء الملعون، واغرب
عن وجهي، لا أرغب برؤيتك، أو أي أحد».

كان يضع يديه ليمنع الضوء المبهر عن عينيه اللتين اعتادتتا الظلام لفترة
طويلة... لم تفر هاربة رغم رغبتها في هذا الفعل، وعادت للباب تغلقه
بإصرار، قفز الكائن الليلي المشعث الشعر واللحية، بعينيه الحمراء، اللتين
لا يبدو عليهما أنهما تذوقتا النوم منذ ليالٍ طويلة.

حدّق بها بفزع لا يصدق أنه يراها هي فعلاً.. ضغط على عينيه بقوة، مرتين
وثلاثاً، ثم عاد ينظر لها... وفكر... إنها بالتأكيد خيال..

كم تألمت لمنظره المفزع... بتجاوب سريع أصابها بصدمة، مدت يدها تلمس
ذراعه بحنان، ولكنه انتفض كالمصعوق، عندما تأكد أنها حقيقة، وليست أحد
أوهامه، فقتل كل كلمات المواساة التي كادت تتحرر من لسانها... صرخ
بهدير صوته المتحشرج، وعيناه تبرقان غضباً وشراسة:

- «ما الذي تفعلينه هنا؟.. أنا لست بحاجة إليك.. أنا رجل ناضج أستطيع
العناية بنفسى... اخرجي من هنا، واتركيني وحدي».

ابتلعت إحساسها بالإشفاق، رغم عاطفتها التي غمرتها، عاطفة غريبة
مستوحشة، اعتادت أن تقتات على الظلام الساكن أفكارها... في كل ليلة
عندما تلامس رأسها الوسادة... تسمح لها بالتجول تعيث فساداً في مقاومتها،
ثم تفقد كل سيطرة على أحلامها... خافت بشدة بل ارتعبت فهي مستيقظة
الآن فكيف تسللت تلك العاطفة، تطفو على السطح هكذا دون رادع.. دون

مكابحها التي تقيدها نهارًا... أو أن أحلامها أصبحت تسير بحرية في وضوح النهار؟

هزت رأسها دون اكتراث استهلك ما تبقى من مقاومتها:

- «حسنًا كما تشاء.. ولكن خذ نصيحة مني.. اصنع معروفًا بشعرك ولحيتك، وكأنك استوطنت أحد الكهوف.. ثم ارتدِ ملابس لا ثقة برتبة الإنسان التي تحملها على عاتقك، فلا أرغب أن يفر الولدان رُعبًا عندما يشاهدان منظرِكَ البائس».

أمسكت مقبض الباب وهمت بفتحه عندما أوقفها صوته الزّاعق:

- «أنت.. توقفي عندك.. ماذا قلتِ... أيّ ولدين؟».

تنهدت لتوحي له بالامبالاة:

- «أعني رامي ورائد طبعًا، ومن غيرهما يشتاقي لرؤيتك، أنت من دون الناس كلهم.. لن أكذب عليك، لقد حاولت مرارًا منعها، ولكنك تعرف هذين الشقيين، لهما طرقهما الخاصة للوصول إليك... ولا أقصد عبر الأبواب بالطبع».

ظنت أنها لمحت بريقًا من الحنان يحتل نظرة الغضب الأعمى للحظة، ربما يتذكر اليوم الذي تسلقًا فيه الشرفة عندما فقد الوعي».

زجر مستعيدًا غضبه الذي لم يبرحه طويلاً، وهو يهزها من كتفيها بقوة غاشمة اصطكت لها أسنانها:

- «ألا تفهمين؟.. قلت لا أرغب برؤية أحد.. لا أنتِ، ولاهما، ولا أيّ أحد في العالم، لا أرغب إلا بالبقاء وحيدًا حتى أموت.. هل هذا الطّلب صعب الفهم لهذه الدرّجة؟».

تمت بهدوء رغم الدموع التي ترقرت في عينيها من شدة اصطكاك أسنانها ببعضهما، حتى عضت على لسانها:

- «الحياة لن تتوقف عندما نفقد عزيزًا على قلوبنا... أعلم أنك لن تنسى، ولا أنصحك بالنسيان... ابنتك تعيش في قلبك، ولن تموت أبدًا».

دون أن يترك كتفيها، وكأنه وجد سلواه في لمسها وهو يخور كأسد أثختته الجراح:

- «أنتِ لا تعرفين ما هو هذا الشعور... شعور الذنب، الفقد... وكأنني...».

هتفت وهي تضع يدها على فمه:

- «هذا قضاء الله وقدره.. مهما كان جبروتك، فأنت أقل من ذرة في قدرة الله تعالى، وفي حكمته».

أطرق رأسه مهزومًا:

- «ونعم بالله».

هتفت بأمل عندما بدأ الهدوء يزحف إليه حثيثًا:

- «اخلع رداء اليأس هذا، واستعد نفسك وحياتك».

أبعد يديه عنها لتهدل على جانبيه:

- «أي حياة التي تطلبين مني استعادتها؟ أنا لمر أرغب بهذه الحياة، ولم أخطط لها».

- «وكيف وصلت لما وصلت له من مركز مرموق في عالم السياسة؟».

- «بفضل ثروت بيه طبعًا وطموحاته اللانهائية.. هل تعلمين أنني اختبئ منه...

نعم... لا أرغب بأن يعثر عليّ مرة أخرى؟».

- «أنت رجل ناضج، كبير كفاية لتواجهه، وتقول له (لا)».

قهقهه بنبرات متألّمة:

- « كلمة (لا) كلمة غير معترف بها في قاموس ثروت بيه... هل تصدقون أنه لم يذرف دمعة واحدة على نرمين... حفيدته الوحيدة... هل تصدقون رجلاً مثله بلا قلب... فقط عقل شيطاني لا يسعى إلا للشر والفساد.»

- «أنتَ تستطيع يا رائف... أنت الوحيد الذي تستطيع.»

رفع رأسه للسقف بتنهيدة يائسة:

- «أنتِ لا تعرفين شيئاً.»

- «أنا أعرفك أنت.. وأعرف أنك تملك قدرة على المواجهة والتمرد.. فعلتها من قبل وبإمكانك فعلها مرة أخرى.»

حدجها بنظرة مستغربة:

- «وما أدراك أنني فعلتها من قبل؟!»

تلوّن وجهها بالاصفرار، وجفّ حلّقها، والأفكار تتصارع في رأسها، لتجد مخرجاً من هذا السّؤال.. عندما طال صمتها المرتبك، أوماً بهزة خفيفة من رأسه:

- «أنتِ قرأتِ ذلك المقال عني... أليس كذلك؟ وعرفتِ أنني في سنوات شبابي الأولى كنت لاعب تنس، وكدت أحترف، لولا تدخل والدي كالعادة.»

وكانه مدّها طوق النّجاة فهزت رأسها بقوة:

- «نعم.. نعم...»

تحولت ملامحه المسترخية لأوداج محتقنة وعينين محمرتين تطلقان شرراً، وهو يصيح بصوت مزجر:

- «أنت مثلهم كلهم.. كاذبة.. كاذبة... أنا لم أمارس في حياتي هذه اللعبة أبداً».

- «ولكن... رائف أنا».

فتح الباب واستمر بدفعها حتى أخرجها صارخاً:

- «لم أعد أرغب بوجودك هنا، لا أنت ولا أي مخلوق آخر.. عبدالحميد.. عبدال...».

- «نعم يا رائف بيه؟».

حدج الرجل الواقف بجوار الباب بنظرة لاهثة، ثم أشار لها:

- «أعطيها حسابها وامنعها من دخول الفيلا للأبد.. هل سمعتني يا عبدالحميد؟.. للأبد».

أوماً الرجل بنظرة إشفاق لكروان التي ترتعش كقطة وحيدة بللها المطر:

- «كما تأمر يا رائف بيه.. ولكن ربما عندما تهدأ».

«أنا لا أترجع عن قراراتي يا عبدالحميد... نفذ أمري بدون تأخير، وإلا فتلحق بها؛ لا أرغب بوجودك أنت الآخر».

صفق الباب خلفه لتجفل منتفضة... ربت عبدالحميد على كتفها لتهدأ:

- «حاولت تحذيرك، ولكنك لم تستمع لي».

- «أنا بخير يا عمي.. المشكلة فيه هو.. يسعى للموت.. أنا أعلم أنه لا يعي

نصف ما يقوله، وعندما يهدأ سيندم على كل ما تفوه به.. ربما يظن أنه لو تهادى

في الإهانة سنتركه».

أجابها العجوز بابتسامة شقت طريقها بين تجعيدات وجهه المتغضنة:

- «عليه أن يحاول جاهداً فأنا لا أتزحزح من مكاني بسهولة».

هتفت كروان بإصرار:

«وأنا أيضاً... سأمر عليه غداً... إن شاء الله يكون بحال أفضل».

- «هذا ما أتمناه».

ربما استطاعت منع الأولاد من الذهاب إليه بصعوبة شديدة، بعد أن تحججت أنه مريض جداً، ولا يرغب أن يراه أحد وهو على هذا الحال، لـ تكذب تماماً في ادعائها.. كانت تدعو له كل ليلة في صلاتها أن يمر من أزمته التي يعيشها بسلام، حتى لو رضح لوالده في النهاية، وعاد للانغماس في العالم الذي يمقته... ربما يكون هو خير دواء للنسيان مرة أخرى.

مرت الأيام متناقلة لا جديد فيها... رائف على حاله، لـ تواجهه مرة أخرى، واكتفت بالتقارير التي يرسلها لها عبد الحميد عبر النافذة كل يوم.

- «ألا يزال كما هو؟».

التفت لوالدها تجيبه بهزة من رأسها:

- «لا.. لا يبدو أنه خرج من عزلته.. عم عبده يكاد يبكي من حاله».

ردت والدتها بأسى:

- «الله يكون بعونه يا ابنتي.. هو وكل من فقد عزيزاً غالياً».

سألها والدها:

- «كروان.. هل تراجعِ عن قرارك بالانتقال؟».

أزاحت وجهها عن والدها، تحديق بالفيلا الصماء:

- «لا أدري.. أحياناً تعتصرني رغبة بالبكاء لحد الموت عندما أتصور أنني



انتقلت من هنا، وابتعدت عنه، وأحياناً قلبي يستشعر الخطر، لدرجة أنني أنسى التنفس ولا أرغب بأي شيء بقدر احتضان الولدين بين أضلاعي، وأركض بهما ولا أتوقف حتى ألفظ أنفاسي، ولكن قلبي لا يطاوعني، يكاد صراخه يصم عقلي عن التفكير، يتوسل لي البقاء هنا، قربه».

طرقات على الباب أخرجتها من عالمها المغلق.. ذهبت لتفتح وهي تتساءل:
- «تُرى من يأتينا في هذا الوقت، وليس موعد عودة الولدين من المدرسة؟».
هتف والدها ضاحكاً:

- «لو ذهبت لتفتحي، ستعرفين بالتأكيد».

- «أنت محق يا حاج مجد.. الله ينور عليك.. كيف فاتني هذا الحل؟».
كانت لا تزال تضحك عندما فتحت الباب لتُصدم بمفاجأة غير متوقعة.



7

طرقات مُلحّة على باب آخر.. باب يعيش خلفه كائن قرر العزوف عن الحياة بكل ما فيها.. حياة خلف كل باب فيها علامات استفهام... منذ اللحظة التي أفاق فيها من الغيبوبة التي دامت لأسابيع، وعلامات الاستفهام تتراقص في ذاكرته.. أحياناً تظهر على شكل وجوه دون أسماء، أو روائح دون وجوه، وأحياناً صوت ناعم، يناديه بلا اسم أو شكل... إلى أن رآها... وبدلاً من أن تتناقص علامات الاستفهام، زادت بغموضها، وشخصيتها المركّبة.. بانطلاقها، وهي تلعب مع أخويها، وكأن الدنيا واحدة يلهون بين خضرتها الوارفة، دون أن يحملوا على أكتافهم الواهنة أيّ هموم.. وأحياناً بانغلاقها على نفسها وكأنها بئر من الأسرار المغلقة.

كل هذا كان مقبولاً له، حتى بدأت عواطفه تثور على قيوده كلما رآها، أو طافت بخياله الذي لا تبرحه أبداً، كانت لمستها الجنة التي عاشها في غيبوبته.. ذات الشّعور الجميل، العذب، والعالم الذي كان يتوق العيش به، صدمه الواقع مجرد أن أفاق من الغيبوبة، اختفى كل عالمه الجميل، افتقدتها، لمستها، ابتسامتها، وفقدته الأكثر وجعاً، كان نفسه.

بكل ذرة في كيانه رغب باستعادتها، مهما كلفه الأمر، فاستعان برسام محترف يرسم وجهها الموسوم به خياله، وعندما سلّمه الرسّام الورقة مرسوماً عليها

بإتقان وجهها كما تخيله تمامًا، بدأت رحلة مضية أخرى، للبحث عنها، رأى تلك النظرة في عيون التحري الذي كلفه بمهمة البحث عنها، كان يظنه مجنونًا بالتأكيد، ولكن رزقه كامن في جيوب هؤلاء المجانين، هو نفسه لم يصدق عندما عاد له بعد فترة بعنوانها، وقتها فقط بدأ يشعر بشيء غامض مريب يحدث له، خاصة أن أحلامه عنها بدأت تصبح حميمية، كما لو أنه التقى بها من قبل، وأكثر من مجرد لقاء.

وازداد تعجبه عندما التقى بها وجهًا لوجه، اختبر إحساسه في وجودها.. وإحساسها المضطرب به.. كانت تنفر منه كالطاعون... لا يمكن أن تكون عرفته من قبل.. ولا يمكن أن يكون التقى بها من قبل ونسيها.. ولماذا إذن يتذكرها بكل هذه التفاصيل التي لا تجمع إلا بين رجل و... امرأته.

جاء قراره بالابتعاد متأخرًا.. فقد اكتفى بتعذيبه لنفسه دون جدوى... واقترابه منها، ومن أخويها، لن يسبب له إلا المزيد من الألم.

عادت الطرقات المملحة فصرخ بصوت مرتفع:

- «لن أفتح يا عبد الحميد.. عد من حيث جئت».

لم ييأس العجوز، وهتف من خلال الباب المغلق:

- «كف عن تعذيب نفسك، ولا تعذبني معك.. تعلم أنك تؤذيني بأذيتك لنفسك.. لو شئت ذهبنا لمكان آخر لتغير مناظر و...».

شهق رائف بعناد:

- «لا... لن أذهب لأي مكان».

- «لكنك لست سعيدًا هنا... ولا يمكن أن تبقى على هذا الحال... لو كنت تُكن لي أي معزة خاصة أرجوك أن...».

فتح الباب فجأة يتطلع له رائف بحزن... ثم فتح ذراعيه واحتوى جسده
الضئيل بعناق قوي هامسًا:

- «سأخفي أيها العجوز الطيب.. أنت الأب الوحيد الذي عرفته... ولا يمكن أن
أُسبب لك بالأذية عن قصد».

- «افتح قلبك لي يا ولدي».

ابتعد برأس مطرق:

- «لا أستطيع.. كل ما بقلبي وعقلي مجرد هواجس، وربما خيالات رجل على
وشك الجنون، ربما أبحث عن سراب لا وجود له».

رقمه عبد الحميد بنظرة اخترقت كل دفاعاته:

- «وربما يوجد من بعض هواجسك تلك بعض من الحقيقة.. ولكنك لا تراها
من موقعك هذا».

سأله رائف بخفوت:

- «هل تعتقد؟».

«بحكمة هذا الشعر الأبيض أقول لك بثقة.. كل دخان يخرج من نار.. انتظر
فقط حتى تهب رياح تشعل الرمضاء التي ظننتها مطفأة... من يعلم!!».

تنهد رائف: «انتظر... المزيد من الانتظار».

«أنت رجل قوي... بعض الانتظار سيفيدك، لو كان سيليه تحقيق مرادك».

- «سأسمع كلامك هذه المرة يا عم عبده.. لنرى ما ستؤول إليه الأمور».

اتسعت ابتسامته من بين تغضينات ملامحه الهرمة:

- «طلب آخر.. لو كانت لي معزة حقيقية».

- «أنت تستغل الظروف أيها الرجل الطيب».

- «لي عندك رصيد يكفي؟».

فهقه رائف:

- «اطمئن.. يكفي.. اطلب ما تشاء».

- «أريد أن تكف عن تناول تلك ال...».

احمرّ وجه رائف باحتقان فتبدلت ملامح عبد الحميد وهو يهتف:

- «أنت تؤذي نفسك... ولم تعد بحاجة إليها... ثروت بيه كان له غرض من

تعاطيك لها، ولكنك ترغب في الابتعاد عن كل هذا... ترغب في حياة نظيفة...

أليس كذلك؟».

أطرق رائف رأسه وزفر بضيق:

- «أعدك أن أحاول».

تهلل وجه عبد الحميد:

- «شكراً لك لأنك لم تخذلني.. هل أحضر لك وجبة شهية من يدي؟».

أوماً له رائف، ولم يصدق عبد الحميد نفسه وهو يركض مسرعاً للمطبخ..

أغلق الباب ووقف ينظر لدرج الأدوية المفتوح على اتساعه، أخرج كل ما

فيه، وأخرج كل الأقراص من شرائطها المغلفة، راودته فكرة براقعة، ربما لو

ابتلعها كلها دفعة واحدة، سيتخلص من حياته البائسة للأبد، وينضم لابنته

ضحيتها الصغيرة البريئة..

أغلق الدّرج على ما فيه، وشردت عيناه باتجاه الشرفة في المنزل المقابل.



بشهقة سعادة و عيون تألقتا بفرح هتفت كروان وهي تُلقِي بذراعيها حول عنق صديقتها:

- «غير معقول.. حنين.. أهذه أنت حقاً؟... ما أجمل المفاجأة».

ومن فرط سعادتها لم تلاحظ برود صديقتها في مقابل اللففة والحماس اللذين قابلتها بهما... ثم جذبتها لإحدى الغرف، وقدمت لها بحماس أكثر المقاعد المتماسكة.

مرة أخرى لم تتوقف أمام نظرة صديقتها المتعالية على رقة حال المكان... ربت على ساقها تستحثها على الكلام، إذ لم تنطق بحرف واحد منذ لحظة دخولها:

- «ما هذه الأناقة؟!.. وكأنك سيدة مجتمع حقيقية... أخبريني ماذا فعل بك الزواج وماذا فعلت به؟».

أخرجت حنين تنهيدة انزعاج وهي ترد بطريقة أوقفت المد الجارف لحماس كروان، وأعادتها عدة دقائق للخلف تستعيد ما تجاهلته عن طيب خاطر من تصرف صديقتها..

كل ما سبق بالإضافة لأنافتها الفائقة بتايورها الأحمر في الأسود، وشعرها المصفف بعناية، وكأنها خارجة لتوها من مجلة أزياء:

- «ماذا تعني بسؤالك؟ أليس لك عينين ترين بهما؟.. ألم تلاحظي الفارق بين حنين البائسة التي تعرفينها، آه، عفواً... أقصد التي كنت تعرفينها... والتي أمامك الآن».

عقدت كروان ذراعيها على صدرها قائلة:

- «في الحقيقة.. لا.. ولكن الآن فقط بدأت أركز، ولاحظت الفرق الكبير، المهم أن تكوني بخير... وسعيدة في حياتك مع وليد».

بحدة مباغته هبت حينين:

- «اسمه وليد بيه يا كروان.. وطبعًا سعيدة.. بل في قمة السعادة، وليد هو كل حياتي.. يعاملني كملكة متوجة على عرش قلبه».

التوت كروان بابتسامة من جانب فمها:

«الحمد لله، أخيرًا تفتحت عيناه على جوهرة الحقيقية».

انتفضت حين واقفة بحدة غير مبررة وعصبية زائدة:

- «وماذا تعني بـ(أخيرًا) هذه، آه، فهمت.. لو كنت ترمين لتلك الترهات التي كانت قبل زواجي من وليد... أنت مخطئة تمامًا يا كروان... وليد لم ولن يحب غيري... أنت كنت فقط مجرد وسيلة ليصل لي.. لي أنا يا كروان.. أفيقي لنفسك».

كانت كروان ما تزال جالسة مكانها تحرق بصديقتها واقفة تشتعل غضبًا، تلوح بيديها، بتهديد مرة، وبوعيد مرة أخرى، دون أن تفهم سببًا لما يحدث... ثم وقفت تومئ برأسها:

- «حسنًا يا صديقتي.. هو ما تقولين. لن أجادلك، وحمدًا لله أنك سعيدة».

اغرورقت عينها بدموع حبستها بصرامة وهي تضرب بحذائها الكاعب في الأرض الخشبية المتهرئة، حتى خشيت كروان أن يغرز في الأرض، وزمجت بخشونة:

- «بالطبع أنا سعيدة.. كم أنت إنسانة حقود لئيمة... كيف خدعت فيك لهذه الدرجة... من اليوم... بل من اللحظة، كل ما بيني وبينك انتهى... كيف تمكنت من خداعي كل هذا الوقت، رويدا كانت على حق في رأيها بك... أتمنى ألا أراك أبدًا».

ذاهلة راقبتها كروان حتى غادرت تتبعها في كل خطوة من خطواتها عواصفها،
التي لا تدري أسبابها حتى الآن!!

دخلت والدتها تحمل أكواب العصير على صينية ثم تلفتت حولها حائرة:
- «ظننتني سمعت صوت صديقتك حنين... جئت لأبارك لها على زواجها.. هل
ذهبت بهذه السرعة؟».

أومأت كروان متنهدة بغصة:

- «نعم يا ماما.. ذهبت.. ذهبت ولن تعود».

رددت أمها جملتها باستغراب:

- «لن تعود.. لماذا؟.. هل ستسافر مع زوجها؟».

تقدمت كروان وأخذت صينية العصير من أمها:

- «أتمنى فقط أن تجد سعادتها التي ضحت من أجلها.. ما رأيك يا ماما الحلوة أن
نشرب العصير أنا وأنتِ ثم أذهب لعملي؟».



تنفست الصّعداء.. أخيراً انتهت الليلة على خير.

كانت من تلك الليالي التي تتمنى فيها ألا تعود أبداً... فقد بدأت بحفل عيد
ميلاد، وامتلاً المطعم بعشرات الأطفال المزعجين الذين يتبادلون قذف كل
شيء يقع تحت أيديهم، كاد ماهر يصاب بنوبة قلبية وهو يرى صحونه
تتحطم الطبق تلو الآخر، بالإضافة للأرض التي اتسخت بقطع الجاتوه
التي كان الأولاد يدهسونها في حرمهم المعلنه، بمباركة مبتسمة من ذويهم،
ونظرات ارتياح عارمة، خاصة على وجوه الأمهات، أيّ واحدة منهن لن
تضطر للتنظيف خلفهم... وكانت نهاية الليلة مع زبون نزق رفض دفع

القاتورة، واتهمهم بالسرقة... لم تصدق أن تلك الليلة المقدسة، قد انتهت أخيراً.

تقف خارج المطعم تستمتع بنسمات الهواء الباردة على جسدها الصّارخ، مطالباً بحقه المشروع من الرّاحة.

اتسعت عيناها بفرع عندما جاءها صوت ماهر ساخرًا، وكأنه ظهر من العدم: - «هل تحتاجين لتوصيلة يا... أنسة؟ سيارتي رهن إشارتك».

أجابته ببرود وهي تهم بالانطلاق في طريقها:

- «شكرًا».

وقف مكانه يراقبها بحقد، بينما تستعد للمشي عندما لاحظت موتوسيكلًا يخترق الطّريق بسرعة باتجاههما، على متنه ملثمان يرفع أحدهما على ما يبدو سلاحًا ناريًا... وقف شعرها رُعبًا تتخيّل نفسها مضرجة في دمائها على الأسفلت، عندما لاحظت أخيرًا أنها لم تكن الهدف.. استرقت نظرة مرعوبة للخلف، كان ماهر لاهيًا بمراقبتها بنظرته الشّبية... تزاومت الكلمات في حلقتها، فلم تخرج أيّ صوت مفهوم وهي تلوّح بيدها لبيتعد عن الطّريق... ضاقت عيناها من حركاتها الغريبة، ثم فوجئ بها تعود للخلف ركضًا، وعلى وجهها الجميل ترتسم أسمى آيات الفرع.. وقبل أن يدرك ما يحدث، كانت تقفز فوقه ليتدحرجا على الأسفلت القاسي، في وقت متزامن مع سماعه لطلقات رصاص تدوي حول رأسيهما.

هل ما زالت على قيد الحياة؟ سمحت لنفسها بالحركة الخفيفة، وعندما داهمتها آلام عظامها المكدومة عرفت إجابة السّؤال... أزاحت ذراع ماهر وهي تناديه بقلق، ثم تجيل عينيها في الشّارع حيث اختفى القاتل:

- «ماهر بيه.. ماهر بيه... أنت بخير؟».

انتفض صارخاً بفرع:

- «ما كان هذا؟».

ردت وهي ما تزال تحت تأثير الصدمة:

- «لا أدري.. لقد رأيتهم يتجهون نحوك، فلم أدّر ما أفعل.. وأنت كنت لاهياً

تماماً عما يحدث».

هتف بعينين تتألقان بهجة، رغم وجهه المتسخ من أثر السقوط:

- «لقد أنقذت حياتي!!».

نهضت تنفض التراب عن ملابسها وهي تكتم أينها المتوجع من كدماتها:

- «انضج يا ماهر، لا تعلق آمالاً كبيرة على حادث عارض، كنت سأفعلها مع

أيّ كلب أجرب يكون ماراً بالمصادفة».

حدّق بالشارع المظلم مرة أخرى متسائلاً بشرود:

- «هل أنت متأكدة أنها كانا يقصداني أنا؟».

رفعت كتفيها:

- «لا أعتقد أنها كانا يقصداني أنا.. كانت نواياهما واضحة وضوح

الشمس».

نهض متوجعاً هو الآخر:

- «ولكن.. أنا ليس عندي أيّ خصومات مع أيّ مخلوق قد يرغب بقتلي».

سألته ساخرة:

- «هل أنت واثق؟».

ازدادت نظراته تركيزًا عليها ثم زمّ فمه:

- «بعد تفكير آخر... ربما».

سارت في طريقها تعرج فناداها:

- «ما زال عرضي قائماً... فكري بتعقل...».

لر تلتفت نحوه أو ترد عليه، وبتركيز جالت بعينها على الطريق تبحث عن وسيلة مواصلات ثقلها للبيت».



كان في استقبالها بأسمى آيات الغضب تحيل ملامحه الوسيمة، التي طالما عشقتها، لخطوط متوازية من التعضينات البشعة:

- «أخيراً... سمو البرنسيصة شرفت».

تقدمت برأس مطرق، همّ بالهجوم عليها... سحبها من ذراعها واستمر بهزها حتى تعترف، وتخبره أين كانت مختفية منذ الظهيرة، وحتى منتصف الليل.. ولكن والده أمسك ذراعه يمنعه:

- «تمالك نفسك يا وليد... واصبر حتى تلتقط أنفاسها، وستخبرك بكل شيء».

ثم وجه كلامه اللطيف لها:

- «وأنت يا حنين... هل تعلمين مقدار قلقنا عليك؟».

صرخ وليد في محاولة جديدة للهجوم عليها، ولكن ذراع والده منعه مرة أخرى:

- «حتى التليفون مغلق... مؤكداً أن الهانم كانت في مكان لا ترغب في أن نعرفه».

- «اهدأ يا وليد».

تمت حنين بصوت باك:

- «أنا آسفة... بابا عزت... أقسم لك لا أعرف كيف مر الوقت دون أن أشعر به».

شهو وليد كاتماً غيظه:

- «حتى الآن لم نعرف أين كنت».

- «كنت.. كنت في المقابر.. أزور والدي».

أطلق وليد احتجاجاً ساخطاً:

- «بالطبع.. وأين غير المقابر، حيث لا شهود على حجتك البلهاء».
هتفت بإعياء:

- «من فضلك.. حافظ على كلامك.. كنت هناك بالفعل، وبقيت هناك حتى الآن... وبإمكانك أن تسأل حارس المقابر يا حضرة المحقق».
منعه والده وهو يدفعه بانفعال:

- «يمكنك أن تكف عن هذه الحماقات الآن، ألا ترى حالة زوجتك المسكينة وكيف تبدو... بدلاً من أن تتلطف معها بعد أن اطمأنت أنها بخير.. ألا تتذكر كيف كنت أعامل المرحومة أمك لتتعلم مني؟».

أخرج وليد هسيساً مرعباً وهو يرمقها بنظرات خفيضة متوعدة، ثم أوماً بهزة خفيفة قائلاً من بين أسنانه المطبقة:

- «حاضر يا بابا.. كما تشاء... تفضلي يا مدام ارتاحي في غرفتك.. وأنا سأذهب لمشوار مهمّ وسأعود ل... لأعاملك بلطف وحنان».

ما كاد أن يتحرك خطوتين حتى توقف محمداً شعرها بارتياح... ازدردت لعابها بصعوبة، وهي تحاول الإفلات من هجومه الجديد المتوقع، ولكنه اقتنص مرفقها يغرز أصابعه فيه متمماً من بين أسنانه بهدير مرعب:

- «ماذا فعلت بشعرك؟».

وضعت يدها على شعرها بحركة حماية واهية... فهزها بقوة معيداً سؤاله بحدة أكبر... أجابته بزفرة طويلة لتهدأ انفعالاتها:

- «كما ترى.. أعدته للونه الأصلي».

- «دون الحصول على إذني؟».

حاولت نزع مرفقها من بين أصابعه القابضة عليها كالكلابات، فلم يسمح لها وهو يزيد من ضغطه.. تأوهت طالبة العون من حماها فناداه:

- «وليد.. لمر يحدث شيء يا بُني.. اترك المسكينة، تكاد تفقد وعيها».

رفع يده باحتجاج:

- «بابا.. لو سمحت، هذا أمر بيني وبين زوجتي المصون، التي ادعت أنها كانت تزور المقابر... وهل يصبغون الشعر في المقابر يا مدام؟.. حسابك معي عندما أعود... لا تنامي وانتظريني».

ثم دفع مرفقها بقرف، أغمضت عينيها بقوة كي لا يحرقها البرق المشتعل في عينيها.

راقبته بنظرات كسيرة يغادر بخطوات واسعة... أجفلت وهو يصفق الباب خلفه.

ابتسامة حماها المطمئنة، كانت البلمس الوحيد لأوجاعها... فتح ذراعيه فانطلقت تلقي بنفسها بينهما، تتلقى من لمساته الحنون الإحساس الأبوي الذي حُرمت منه.

سألها برقة:

- «ذهبتِ إليها.. أليس كذلك؟».

أومأت بدموع سخية دون أن ترفع رأسها، ثم ازداد نשיجها بالتدريج، حتى تحوّل جسدها إلى كيان هش مرتجف كمن أصابته حمى استوائية... انتظرها لتهدأ، ولكنها ما كانت تهدأ أبداً، ففي كل لحظة تمر عليها تكره فيها نفسها، وأكثر كرهت الشعور بالذنب الذي يكاد يقضي عليها.. رَبَّتَ حماها على كتفها يهدئها بحنان:

- «لا تتضايقي من وليد، تعرفين أن نباحه أسوأ من عضه».

هزت رأسها بقوة، ورفعت عينيها الدامعتين إليه:

- «ليس وليد يا بابا.. لقد قمت بفعل شيء رهيب.. رهيب.. لن أسامح نفسي أبداً».

تنهد وأنزل ذراعيه عنها لتراجع عدة خطوات تلف ذراعيها حول صدرها، وكأنها تنشد أماناً أصبح بعيد المنال:

- «ذهبتِ إليها.. أليس كذلك؟».

أومأت برأسها وهي تجفف دموعها بمحاولة لإعادة الاتزان لنفسها:

- «كان لا بد أن أفعل... وليد يضيع مني».

هز رأسه بأسف:

- «وهي.. ما ذنبها؟».

ارتفعت نبرة صوتها تصيح بنوبة جديدة من البكاء:

- «ذنبها أنه يحبها».

- «الخبر لم يكن مفاجأة لك... حينئذ تعلمين أنك ظلمت صديقتك، وهذا ما يعذبك».

انهارت على أقرب مقعد لها تخفي وجهها بين يديها تصيح بنشيج باك:

- «ماذا أفعل؟.. في كل يوم، في كل ليلة، أراها بيننا.. تعيش معنا.. تشاركنا الفراش.. يهمس باسمها في... في أكثر اللحظات خصوصية بين الرجل وزوجته... يضع شعري المصبوغ بلون شعرها على وجهي ليتخيلني هي... ماذا أفعل؟.. ماذا يبدي أن أفعل؟».

- «ووجدت الحل بالتنفيس غضبك فيها.. مع أنك تعلمين جيداً أن المشكلة في وُلد، وليست في كروان».

هتفت بنبرة يائسة:

- «وماذا يبدي أن أفعل؟ هل جرّبت الشعور أن تعيش مع إنسان تعشقه لدرجة الجنون، وهو لا يفكر بك إلا كبديل باهت لا قيمة له».

- «كيف وصلت لهذا الإحساس المؤلر، رغم أنه لم يمر على زواجكما فترة كافية؟».

نشجت بتوجع:

- «كان إحساسي من أول مرّة... من أول ليلة... ظننت لشدة بلهي أنني سأعلمه حبي، كيف ينسى كل امرأة في الكون سِواي... ولكنه لم يمنحني هذه الفرصة... كانت هي معه في كل لحظة...».

- «لذلك صبغت شعرك؟».

رفعت عينيها الكسيرتين إليه قائلة بالمزيد من الدموع:

- «في البداية ظننته اهتماماً بي.. ولم أصدق إحساسي في البداية... كان يصنع

مني شبيهة لها... بابا.. أنا أحب زوجي، وأتمنى أن أكون أنا التي بين ذراعيه عندما يضمّني... أتمنى أن يستمع لدقات قلبي أنا... ينظر بعيني أنا... ولا يتخيلني هي.. هي... صديقتي بل الأعز... أو من كانت!!».



هَبَّ وُلِدَ يَمْسُكُ بِتَلَايِبِ الرَّجْلِ وَيَهْزُهُ بَعْنَفٍ كَأَنَّهُ إِعْصَارٌ فَاقِدُ السَّيْطَرَةِ:

- «ماذا قلت؟.. لم أسمع.. كيف فشلت؟.. كيف أمكنك أن تفشل؟».

- «ماذا أفعل يا وليد بيه؟.. خرجت الملعونة كروان من العدم لتحميه، بعد أن كانت رصاصاتي موجهة لصدره ورأسه».

ولم يدْرِ ما الذي يحدث، فجأة طار صواب وليد وقبضته تنهال على وجه زاهر حتى غطته الدماء تماماً.. دفعه بقرف وهو يمسح يديه المخضبتين لينهار أرضاً متأوّهاً من جروحه.. يستمع لنبرة وليد المهددة:

- «إياك أن أسمعك تتحدث عنها بقلة احترام، بدلاً من الاعتراف بفشلك المخزي، تعلقه على كروان، وكيف تنفذ المهمة وهي في الجوار.. أتعلم لو أن مكروهاً أصابها، ماذا كنت سأفعل بك، وبأختك؟ عائلتك كلها لن تكفيني بديلاً عنها».

أخذ نفساً عميقاً، وأكمل بتشفٍّ وهو يراقب زاهر ببريق مخيف:

- «أتعلم من سيدفع ثمن فشلك الليلة؟»

وعندما لم يتلق ردّاً أعاد السؤال بنبرة أكثر حدة... فهتف زاهر من خلال دمائه التي يحاول منع نزيها من فمه وأنفه:

- «لا.. لا أعلم... ولكنني أقسم لك أنني...».

قاطعته وليد بإشارة من يده ليتوقف وهو ينظر إليه من عليائه، ثم دفعه بقدمه قائلاً متلذذاً بنظرة الرعب في عينيه:

- «أختك... حنين... هي التي ستدفع».

هتف زاهر بتوسل:

- «أختي لا ذنب لها يا وليد بيه... أرجوك».

اتسعت عينا وليد بتسلية مقهقها:

- «الآن تشفق على أختك المسكينة... هل نسيت ما فعلته بها... هل نسيت ضربك وإهاناتك لها؟ أم نسيت أن والديك تركاها أمانة في عنقك؟.. وأنا لن أعاملها بمعاملة أفضل مما عاملها بها أخوها، لحمها ودمها...».

أغمض زاهر عينيه بقوة بدموع القهر الحبيسة وعاد يتوسل، ولكن وليد عاجله بركة أخرى في صدره ليتكوم على نفسه متأوِّهاً، وهو يصيح بصوت هادر:

- «عندما تنجح في مهمتك؛ حنين ستنعم بحياة مريحة أكثر... أليس هذا ما تريده... أن تكون حنين بخير».



تحركت بخفة رغم عرجها وتوجعها من كل حركة، فتحت الباب لتطمئن على الأولاد، ثم اتجهت لغرفتها... أغلقت الباب لتطلق آهة حبستها طويلاً وهي تنهار على فراشها متأوِّهة من كل عظمة تن في جسدها النحيل، أكثر ما رغبت به كان حمماً تنقع فيه عظامها المكدومة... ولكن هذه الرفاهية كانت أبعد بكثير من إمكانياتها، فلم تستطع التحرك حتى لتعدل من وضعية جسدها... أدارت رأسها بصعوبة باتجاه شرفتها المفتوحة.. وفجأة أخذت وضع الجلوس السريع، متجاهلة كل أوجاعها وكأنها لم تكن، وعيناها تتألقان من المنظر الذي ظنت أنها تراه من النافذة... ولتأكد تغلبت على المزيد من أوجاعها وهي تتحرك باتجاه الشرفة لتقف تغمرها السعادة، تتأمل ذلك العلم الأبيض

المرفرف في الشرفة المقابلة.. وضعت يدها على قلبها لتبطئ من خفقاته التي تضرب صدرها بنغمات راقصة... أغمضت عينيها عائدة لفراشها تهيل جسدها عليه دون أن تشعر بأي أوجاع هذه المرة، وكأنها تسقط في رحاب غيمة وردية ضخمة.

تذكرت اتفاقها مع عبد الحميد عندما طلبت منه أن يضع علماً أبيض في الشرفة، في حال تحسن مزاج رائف، وإن ظل على حاله يضع علماً أحمر... وها هو العلم الأبيض يرفرف معلناً أكثر خبر رغبت بسماعه من وقت طويل.

أغمضت عينيها بابتسامة ناعمة تشق شفيتها تحلم بالصباح، الذي سيكون مختلفاً عن أي صباح آخر منذ سنوات.

كانت الفيلا هادئة في الصباح.. مرت من البوابة.. تعجبت من خلوها من الحارس... فكرت.. «ربما ذهب للحمام...».

تخيلت بابتسامة شريرة كيف سيتلقى جابر المسكين بكومة العضلات الضخمة، والعظام العريضة، التويخ من عبد الحميد صاحب الجسد النحيل واللسان الأهوج.

شرعت بعملها المعتاد.. وبّخت نفسها لهذا الإحساس المُلح بالسعادة التي لم تفارقها منذ رأت العلم الأبيض المرفرف.. وها هي نبضاتها تتسارع وكأنها بشوق لرؤيته أكثر منها.
«من أنت؟».

رغم غرابة نبرة الصوت.. وأكثر غرابة السؤال، فإنها لم تشك للحظة واحدة أن كل عالمها على وشك الانهيار تماماً، وكان أسوأ كوابيسها قد تحققت بالفعل.



- «صباح الخير يا بابا.. هل حضرت الفطور بنفسك؟.. لماذا لم تنتظر حنين ل...».

قاطعته والده ببرود وهو يضع سلة الخبز ويجلس حول المائدة الدائرية في المطبخ:

- «لا داعي.. لم أقم بمعجزة».

وشرع بالأكل متجاهلاً نظرات وليد المسترقة... لم يستطع مجارة والده في التجاهل، وضع الخبز من يده وهتف بتنهيدة:

- «ماذا الآن؟».

تناول عزت عدة لقيمات قبل أن يتوقف بنظرة باردة على ابنه:

- «هل سؤالك الأخير هذا موجهاً لي أنا؟».

- «بابا.. أرجوك لا تتبع معي هذا الأسلوب.. هات ما عندك».

ضرب عزت على المائدة بقبضته بثورة مفاجئة:

- «إيّاك أن تنسى نفسك، ومع من تتحدث».

أطرق وليد باعتذار صادق:

- «آسف بابا.. لم أقصد».

- «بل قصدت.. كل تصرف من تصرفاتك مقصود يا وليد، أنت لا تتحرك دون تخطيط سابق.. وهذا أكثر ما يزعجني.. لم أَدْخُل يوماً في أسلوبك في إدارة عملك... كنت ذات يوم ضابطاً صغيراً مثلك، وأفكر بنفس طريقتك.. السلطة تُعمى العيون، وأتمنى ألا تنجرف خلف ندهتها كي لا تضيع، أكثر ما يخيفني الآن هو العمى الاختياري الذي استمرأت طريقه».

ردد وليد باستغراب:

- «عمى اختياري!!.. عفواً.. أنا لا أعرف...».

قاطعته والده بإصرار:

«بل تعرف.. ولا تدعي الغباء.. أعرفك كما أعرف ظاهر يدي».

- «أنت تتحدث عن حنين.. أليس كذلك؟.. بابا.. اسمعني».

- «بل اسمع أنت مرة في حياتك صوتاً غير صوت نفسك... لقد تغيرت حياتك...»

أصبحت زوجاً مسؤلاً.. وقریباً ستصبح أباً و...».

قاطعته وليد بجفاء:

- «لن يحدث».

رمقه والده بارتياب:

- «ماذا تقصد بـ(لن يحدث)؟».

- «لأنه لن يحدث، لقد اتفقت أنا وحنين على تأجيل هذا الأمر لبعض

الوقت».

لوح عزت بإصبعه في وجهه:

- «إيّاك أن تكذب.. يمكنك أن تعيد صياغة جملتك كما حدث تماماً، وتخبّرني

بشجاعة أنك أنت الذي فرضت على تلك المسكينة عدم الإنجاب، لأسبابك الأنايية الخاصة».

زفر وليد كاتماً غيظه بتنهيذة طويلة، وهو يمسح وجهه بيديه: «بابا...».
قاطععه بغضب لمر يره من قبل منذ كان طفلاً صغيراً:

- «لا تقاطعني. يبدو أنه مر وقت طويل منذ علمتكَ الأدب، آخر ما عندي سأخبرك به.. إن لمر تتق الله في زوجتك سأتبرأ منك، لا يشرفني أن يكون لي ابن ظالم، والآن انهض من على مائدتي، ولا تشاركني أي طعام، إلا عندما تتخلي عن نظاراتك السوداء، تلك التي تعميك عن الطريق الصواب».

وقف وليد.. حاول الكلام مرة أخرى، ولكن والده تجاهله وهو ينهض ليعد نفسه كوباً من الشاي.

عاد لغرفته، لمر يستغرب عندما لمر يجد حنين نائمة كما تركها، أو تدعي النوم كما يعرف جيداً أن جفنيها لمر يغمضا للحظة طوال الليل، منذ عاد ليلة البارحة، وبعد أن نفذ وعده لأخيها.. كاد يصدق أن دموعها مجرد مياه باردة، لا تترك أدنى تأثير على مشاعره التي لا يملكها.

يعلم أنه آذاها بجرح كبير، وحجته أنه كان يداوي جرحه الأكبر... اتهام والده أنه اختار طريقه بإرادته... ولكنه لمر يكن أعمى... بدليل أنه يراها طوال الوقت... مهما حاول ادعاء العكس... مهما جرفته أفكاره باتجاه معذبتة... ولكن حنين بيلسمها الساكن عينيها الجميلتين... ورقة ابتسامتها رغم تعمده أذيتها في كل مرة، كانت هي... حنين.

تلقت حوله باحثاً عنها ولم يطل بحثه... كانت كعادتها تستيقظ مبكرة،

تجلس في الشرفة المطلة على البحر لتنسى... عادت به الذكريات لأول مرة يراها واقفة تنظر بشرود للبحر... شتان الفارق بين المرة الأولى، والآن!!

في المرة الأولى اقترب منها بخفة لينظر لما تنظر إليه... التقط إحساسها بالسعادة، دون أن يشعر وجد ذراعيه تطوّقان خصرها... في تلك اللحظة فقط تغيرت فيه أشياء كثيرة، وهو يحتويها على صدره بكل ما فيها من براءة وسعادة وحب... رغب بامتلاكها بشدة... رغم كل أحاسيسه هذه لم يتورع عن أذيتها بتشفٍّ وكأنه يؤذي كروان في شخصها، لرفضها له.

بسادية كانت سعادته تزداد كلما لمح دموعها... ولم يبق إلا أن تهرع لصديقتها تبلغها بمدى العذاب الذي تعيشه بسببها، ولم يدر أنه في كل مرة كان يقل رجولة بنظر نفسه، حتى أصبح بالكاد يراها من شدة ضآلتها، ازداد غضبه من نفسه، ومن حنين الصابرة... حتى محاولته لقتل ماهر كانت من ضمن دفاعاته البائسة عن نفسه أمام نفسه.

شعر بالمر يسري في أوردته كالأسيد الحارق، رغب أن يركض نحوها يسكن آلامها على صدره... يطمئن دقات قلبها الموجوع... يحتويها ليعيد سعادتها التي سرقها منها... ولكنه كان أجبن من المواجهة أو الاعتراف... تراجع بخطوات محسوبة حتى الباب... ودون أن يعلن عن مغادرته كان يسرع باتجاه باب الشقة، وكأن الشياطين في أعقابها.

أجفلت عندما ارتجت الجدران من حولها... كان صوت إغلاق الباب، رغم خوفه، ولكنه زلزل كيانه، كانت تشعر به من أول لحظة، ربما حداها الأمل من ترده الواضح، ربما... لن يحدث شيء أبداً.

تأكد حدسها وهو يتراجع بهدوء ويغلق الباب خلفه، أغمضت عينيها مسلّمة وجهها لنسبات البحر الهادرة أمواجه كحياتها.

عادت لغرفتها تتأمل جدرانها المغطاة بورق الحائط المزخرف، والفراش الرّحّب الذي لمرّتها فوقه ليلة منذ دخلت هنا... جف كل مخزونها من الدّموع، فشعرت بألم حارق في عينيها المحمرتين، اتجهت لخزانة الملابس تمسك بأول ما وقعت يديها عليه، ارتدت ثيابها دون حتى أن ترى ما هي... لو كانت تستطيع لخرجت بما عليها من ملابس النّوم، وبخطوات آلية غادرت غرفتها، وتوجهت للباب الخارجي... تمتدّ لو تصل قبل أن يراها، ولكن.. أيّ أمنيات تحققت لك من قبل لتأملي بهذه الأمنية:

- «حنين.. هل ستخرجين؟».

تسمّرت في مكانها، ودون أن تلتفت نحوه أجابته بصوتها المبحوح:

- «نعم».

ثم أغمضت عينيها بقوة لتمنع دموعها الوهمية:

- «أرجوك.. اتركني أذهب».

وصل إليها يمسك بكتفيها، قائلاً بنبوة تضرع:

- «لا ترحلي... لا تستسلمي».

دون أن تستدير استمرت:

- «لا أستطيع... أخشى أن أكرهه إن بقيت هنا.. أنت لا تعرف.. لمرّ يستطيع

أن يحبني.. ليس ذنبه؛ لذلك لا بد أن أذهب».

- «ستتخلين عنه بهذه السّهولة؟، حبك الكبير، عشقك لوليد... هو لا يستحق

بنظرك أن تنقذيه من نفسه... أيّ حب هذا الذي لا يحتمل بضعة أيام من

الشّقاء؟».

زفرت ساخرة:

- «أتظن هذا؟.. مجرد بضعة أيام شقاء؟.. ألا أُسلخ كل يوم من جلدي حيّة كي يراني كحبيبته... كي يراها في صورتي، في شعري... لقد منعني من الكلام كي لا يشوش صوتي نبرات صوتها التي يحتفظ بها في خياله... هه وتقول لي بضعة أيام شقاء؟!».

تنهد بإحباط:

- «إذن.. لا أمل لتراجعي».

- «سيكون أفضل حالاً من دوني».

وتقدمت عدة خطوات أخرى متراخية باتجاه الباب لتقف فجأة يطل من عينيها الرعب لدى سماعها طرقات قوية.. استرقت نظرة لحماها الذي هدأها:

- «لا يمكن أن يكون هو.. معه مفتاح».

ارتخت أعصابها دفعة واحدة عندما صدمتها هذه الحقيقة، التي نسيتهها من شدة توترها ثم هتفت بصوت مرتعش:

- «ولكن.. من تراه يزورنا الآن؟».

تخطاها باتجاه الباب قائلاً:

- «سنعرف حتماً عندما نفتح».

كان يهم بطرق الباب مرة أخرى عندما فتح فجأة يطل منه رجل عجوز... حدجه بنظرات متسائلة بانتظار أن يتكلم... ولكن الرجل وقف حائراً وكأنه لم يتوقع أن يجده أمامه... وبنبرة مرتبكة سأله:

- «هل هذا بيت وليد ييه؟».

تحركت حنين بحركة آليّة باتجاه الباب لتتسع عيناها رُعباً وهي تتراجع واضعة يدها على فمها تكتم شهقة وهي تصرخ:

- «أغلق الباب يا بابا.. أرجوك أغلقه، لا تسمح له بالدّخول».

ما بين ذعر زوجة ابنه، وارتباك الرّجل الغريب وقف عزت يجيل النظرات الحائرة بينهما لا يعرف ما يفعل!!



أسوأ كوابيسها تتحقق أم أنها لا تزال نائمة في فراشها بين جدران غرفتها الآمنة، تحلم بما تجود به عليها خيالاتها من أحلام؟.. أحياناً يتحول الحلم إلى كابوس إذا كانت أفكارك مشوشة، أو صادفت يوماً سيئاً... وربما حادثة كادت أن تُقتل فيها وهي تنقذ ماهر الذي لا يستحق إلا كل ازدراء.

نعم، لا شك أنها داخل كابوس من أسوأ الأنواع... فقد اعتادت أن يفرعها من نومها لثلاث سنوات بعد هروبها ونزوحها إلى بلطيم، ولكن صوته الأسوأ من أيّ كابوس عاد يغزوها، وكأنه خناجر تطعنها بلا رحمة لتتأكد أنها تعيش الأسوأ:

- «سألتك يا آنسة.. من أنت؟ وماذا تفعلين هنا؟».

تأمّلت وجهه المنحوت دون تغاضين رحبة لتدرك أن السّنوات العشر المنصرمة نحتت من ملامحه، ليبدو بحاجبيه المشعثين المتقاربين، وشعره ناصع البياض، حتى سوائفه العريضة، أقرب لملامح الشيطان منه للبشر، خاصة بهاتين العينين اللتين لمر تفقدا قسوتهما الفولاذية، كأنها شرارات نار لا يهدأ أجيحها، على استعداد تام لإشعال الحرائق المدمرة في أيّ وقت متى راق له هذا، وفجأة طافت ملامح رائف الودودة حتى في قمة غضبه

وعصبيته، كان بشرياً تماماً... كم هي غير منصفة المقارنة بينهما على الرغم من أنهما والد وابن.

أغمضت عينيها لحظة تستجمع شتات نفسها، فلم يبْدُ عليه أنه تعرّف عليها... دارت بلسانها على شفيتها الجافتين ثم نطقت أخيراً:

- «عفوًا.. أنا أعد الطّعام للسيد رائف؛ لقد استخدمني عم... أقصد الأستاذ عبد الحميد لهذا الغرض.. عفوًا.. أنا لمر أرك هنا من قبل؟».

حدجها بنظرة قاسية وهو يتناول أحد المقاعد ليجلس عليه:

- «أعدّي لي فنجان قهوة سادة، دون أيّ إضافات».

ثم أجاب على نظرتها المتسائلة:

- «لا تخافي لست لَصًا.. أنا ثروت يزن، والد الأحمق الذي تخدمين».

انتبه لارتعاشة يديها وهي تضع فنجان القهوة أمامه، رفع عينيه الشبيهتين بعيني ذئب مفترس: «مهلاً.. يخيل لذا كرتي العجوز أنني رأيت هذا الوجه من قبل».

كتمت شهقتها وهي تستدير لتمنعه من المزيد من التفرس في ملاحظها، وهتفت بارتباك:

- «لا أعتقد أننا التقينا من قبل يا سيدي».

ولكن فجأة قفز العجوز بخفة غريبة على رجل في عمره، قبض على ذراعها بقسوة:

- «بلي.. أنا أعرفك...».

بهلع حاولت نزع يده عن مرفقها:

- «أرجوك يا ثروت بيه.. اتركني... لا بد أن أحضر الطّعام لرائف بيه ليتناول دواءه».

ولكن العجوز لم يُشفق لشحوبها، وهلعها، وهو يعن التفرس فيها، وكأنه يعيد فتح باب علا الصّداً أقفاله... وفجأة غامت ابتسامته وهو يهز رأسه لا يصدق:

- «ولكن.. هذا مستحيل.. لا يمكن أن تكوني هي... اللعنة!! بعد كل هذه السّنوات.. أنتِ تلك البلهاء الصّغيرة التي تزوّجها رائف».

انتفضت بثورة ظلت محتبسة بصدرها كبركان يغلي من أسفل سطحه البارد لسنوات طويلة، ولكنه وبنغزة واحدة غير مقصودة، انفجر فجأة ليلقي بحممه المصهورة بعشوائية غير مبالٍ بمن يحرق، لدرجة ألجمت الرّجل العجوز عن النّطق تمامًا وهي تستعر بهجوم لم يتوقعه:

- «نعم.. نعم، أنا هي تلك البلهاء التي صدقتك وصدقت أكاذيبك... أنا تلك البلهاء التي تخلت عن زوجها لأنك والده، لفقت لها قصة وهمية عن خداعه لها.. ومع الأسف صدقتك».

ثار بصوت عميق:

- «أتتهميني بالكذب؟».

هتفت بازدراء وشجاعة لم تدر أنها تملكها:

- «نعم يا ثروت بيه يزن.. أنت كاذب.. زوجي لم يخدعني يوماً، جريمته الوحيدة أنه نسني، وليس بإرادته الحرة، والفضل طبعا لوالده العزيز؛ خاصة بعد أن ضربه رجالك على رأسه، واقتادوه خارج بيتنا بعد أن قاموا بإحراقه، وإحراق حياتي معه أمام عيني، ولكنه بالتأكيد لم يخدعني ولم ينسني عن قصد

كما أوهمتني، كانت خطتك الجهنمية لتبعده عني، وتزوجه لمن تليق بمقامك، ومقامه الرفيع، وماذا كانت النتيجة؟ حوّلت ابنك إلى حطام إنسان، لرجل عجوز فاقد الأمل بالحياة وبالناس، ولم يتجاوز الأربعين من عمره... بحاجة لمن ينتشله من ركام حياته المنهارة، التي رسمتها له بكل أنانية وتجبر». صاح بصوت كفحيح الأفعى السامة:

- «أيتها الملعونة.. أيّ أكاذيب لفقتها، وصدّقتها ابني المسكين؟».

هتفت كمن بيده الورقة الرابحة:

- «أنا لمر أخبره بأيّ شيء.. بعد!!».

تردد صدى صراخه الغاضب بين الجدران وهو يهدر:

- «لن تتجرئي.. سأحوك من على وجه الأرض.. سأدفنك حية لو اقتضى الأمر».

اهتزت ثقتها بنفسها أمام تهديده ولكنها ظلت متمسكة بأذنان شجاعتهما:

- «أنت وأمثالك الذين ستفرون كالفران الهاربة من السفينة الغارقة، لقد ثار الشعب ليتخلص منكم، تهديداتك لا أسمعها إلا كقرقعة طبل خاو... مجرد ضجيج لا أكثر».

صدمتها قهقهاته العالية، والتي ظلت تعلو بالتدريج.. وضعت يديها على أذنيها حتى بدأ الكلام مرة أخرى، وقد غمس حروفه بنظرات محتقرة، وكأنها لا ترقى حتى لمرتبة حشرة أمامه:

- «أيتها المسكينة المثيرة للشفقة.. هل تصدّقين فعلاً أن ثورتكم الغبية هذه قد تتسبب في أيّ خدش لأمثالي؟.. ما لمر ولن تفهموه أبداً أننا لسنا مجرد أشخاص يملكون سلطة، نحن قوى عظمى، أكبر بكثير من أن يتاح لخيالك الصغير

استيعابه، جذورنا ضاربة في أعماق هذا البلد كالسرطان، هل سمعتِ عن علاج للسرطان؟.. أنتِ وأمثالك من الرّاع، اعتدتم العيش على بقايا موائدنا.. ودونها ستموتون جوعاً.. من دوننا لن تجدوا قمامتنا لتقتاتوا منها.

لو تحققت أحلامكم الهزلية في عالمكم الوهمي، وقضيتم علينا، لن يمر وقت طويل حتى تتوسلوا عودتنا، فقط لتُخرسوا صراخ بطونكم الخاوية، وهذه ليست ترّهات كما يجول بذهنك القاصر، بل الحقيقة الوحيدة التي تتعاملون عنها يا حَمَلَة رايات الثّورة المجيدة، والرّبيع العربي.. كل من دخلوا السّجون بثّمهم مكلفة بالعار سيخرجون رافعي الرّؤوس، وسيتم استقبالهم استقبال الفاتحين».

هزت رأسها بعينين ترفضان حتى ذرف الدّموع:

- «أنتَ كاذب.. سيقبض منكم الشّعب، كل من قتل وسرق ونهب، وتسبب بالأذى لشعب مصر، سيدفع الثّمن.. هذا هو العدل».

ردد بسخرية:

- «العدل!!.. العدل ألا يتطلع أمثالك خارج البالوعات التي تعيشون فيها.. مصائركم محكومة بأن تتناسلوا وتتوالدوا من بعضكم البعض، وإذا تطلع أحدكم لأعلى لا بد أن يُقَصّ عنقه، فكيف يتزاج الأسياد من العبيد؟».

صرخت بهستيريا:

- «ليس باختيارنا، أنتم من حوّلتونا إلى عبيد بطمعكم، وشركم اللامحدود للمال، والسلطة، والظلم... بما لا يكفي لامتلاء كروشكم الكبيرة، التي مهما امتلأت، تصرخ مطالبة بالمزيد... تكثر من حاجاتكم، وكأنكم ستخلدون للأبد، حتى الأكفان بلا جيوب يا ثروت بيه».

زفر ساخطاً:

- «لأن أهدافكم دائماً ساذجة وبسيطة، طموحاتكم تستقر أسفل أقدامكم، ستظلون كما أنتم دائماً، تسكنون البالوعات كالحشرات والقوارض، أقصى أحلامكم سقف يظلل رؤوسكم، ولقمة جافة تسدون بها جوع بطونكم، وهذا هو الفرق بيننا وبينكم، نحن نسعى لنعيش حياتنا مرات، ومرات، وأنتم تعيشونها مرة واحدة».

كان دورها لتسخر منه:

- «مرة واحدة تكفي القانعين يا ثروت بيه، هذا قدر الإنسان، ولا تنس أيضاً أنكم السبب في اهتراء سقف طموحنا الذي تسخر منه، ألم تقوضوا أساس أطفالنا بتعليم ضامر، ورعاية صحية معدمة، ألم تهدموا بمعاولكم الظالمة كل عقل مستنير يحاول انتشالنا من مستنقع الجهل والمرض الذي تصرون على إقائنا فيه؟ ألم تستيبحوا وتغتصبوا كل أمل لنا في مستقبل نظيف منكم؟».

بحقد أسود من ليلٍ بلا قمر طحن على نواجذه حتى كاد أن يحطمها، هاتفاً بصوت اقشعر له بدنها:

- «لذلك سعيت خلف رائف لتعيشي مرّتك الواحدة بكل رفاهية يقدمها لك ثراء ابني، وأصله، وحسبه... أليس كذلك؟».

رفعت رأسها المطرق بابتسامة باهتة، فجأة تجمدت شفتها حتى عن الابتسام.

تطلعت خلف الجسد النحيل لمحدثها.. وضعت يدها على فمها لتمنع صرخة خوف، عندما داهمتها سهام الاتهام الجائرة في نظرات رائف.. بينما تدارك والده الموقف بحنكة رجل سياسي مخضرم:

- «رائف.. لم تخبرني أنك تستخدم خادمة».

هز رائف رأسه ببطء محدجاً والده بنظرة عميقة مظلمة ليمنعه من الاسترسال..

بينما تساءلت كروان بقلب فقد القدرة على أداء دوره:

- «هل.. هل سمعت...؟».

لمحت التواءً ينبئ بمشروع ابتسامة لم يكتب لها النجاح، فقد احتلها شعور

بالمراة الشديدة، لدرجة أشعرته بالغثيان:

- «نعم.. سمعت... أصواتكما العالية توقظ الموتى من قبورها».

ترنح جسده فأسرعت نحوه بلهفة غير واعية تسانده، ولكنه أوقفها بيده،

وارتكن على إطار الباب متممًا من بين أسنانه:

- «لست بحاجة لمساعدتك».

ثم سار عدة خطوات ليحتل المقعد الذي كان يجلس فيه والده، وأمامه فنجان

القهوة البارد... بادر والده بالهجوم:

- «كل ما قمتُ به كان لمصلحتك... إياك أن تحاكم تصرفاتي، أو تنتفض أيّ

قرار اتخذته لمستقبلك».

حدجه رائف بنظرة منكسرة لم تخلُ من الحزن المخالط لمراته العلقمية،

فأردف ثروت بجبروت:

- «ما لا أفهمه.. كيف وصلت لها؟».

حدجه رائف بنظرات زائغة:

- «لقد بحثت عنها».

تجاهل الرجلان شهقتها المصدومة، بينما صرخ ثروت:

- «مستحيل.. أنت لم تتذكرها مرة واحدة خلال السنوات العشر المنصرمة، أخبرني أطباؤك أنك مصاب ب traumatic Amnesia وكلما مرت السنوات ستتضاءل قدرتك على تذكرها، خاصة بعد ما بذلت كل ما بوسعي لتظل بعيدة عنك.. لا شك أن تلك الملعونة هي من سعت إليك».

بهدير صوت يعلو من الحضيض للقمة، وكأنه يغادر قمقم أسر حرите سنوات طويلة:

- «ليتها فعلت.. بعد الحادث صورتهأ لم تغادرنى.. ودائماً أتذكرها بشكل متقطع في أوضاع حميمية لا تكون إلا بين الرجل وزوجته.. وقبل أن أفقد عقلي تماماً كلّفت تحرياً خاصاً يبحث لي عنها، بعد أن ذكرت له اسمها الذي كان يتردد صدها في عقلي وكأنني كنت أناديها دائماً، وعندما وجدتها.. جئت هنا لأعرف سر ذكرياتي عنها.. وأُصبت بخيبة الأمل بالطبع؛ فهي كانت تنفر مني كالطاعون، ولا ترغب بأيّ صلة بيني وبينها».

كانت نظرتة المتهمة نحوها التي ختم بها جملته، فهتفت متحاشية النظر لوالده:

- «لقد هددني والدك كما... وأنا صدقته... لم يخطر ببالى أنه يكذب... وزاد يقيني عندما عرفني عليك وعلى خطيبتك... ظننتك تتجاهلني عن عمد، وتتنصل من مسؤوليتك نحوي».

سألها من بين شفثيه المطبقتين بحدة:

- «كم... كم استمر زواجنا؟».

استرقت النظر لوجه والده المتجهم، وكأنه يشعر بدنوّ لحظة الحساب، ثم أجابته بصوت شاحب كوجهها:

- «شهرين... قبل أن يهاجمنا كلاب والدك المسعورة... ضربوك على رأسك و...».

فوجئت بصوته المكلوم يكمل:

- «وأحرقوا بيتنا؟».

هزت رأسها دون أن تستطيع إيقاف عبارتها، وكأن النار ما تزال تلتهم كل ذكرياتهما الحلوة: «نعم».

أجفلت عندما ضرب العجوز بقبضتيه على المائدة، بينما لم يهتز لرائف جفن، وهو يطالع عاصفة والده الهائجة ببرود:

- «كل ما فعلته كان لصالحك، هذه النكرة كانت ستهدم كل أحلامي التي بنيتها، كانت ستصطحبك معها للحضيض كالصخرة... لقد أنقذتك منها، وأنقذت مستقبلك السياسي».

رد رائف بهجوم مماثل رغم إرهاقه الواضح:

- «تقصد مستقبلك أنت، ولكن لم تكن المخطئ الوحيد... باستسلامي لك، بتركك تقودني كيف تشاء... قدت حياتي للدمار، والبداية كانت بزواجي من ابنة الحسب والنسب التي رشحتها لي».

لوح والده بيده أمام وجهه باعتراض:

- «إيّاك أن تقارن تلك النكرة التي التقطتها من الشارع بابنة الوزير».

هدأ رائف محذراً والده بنظرات نارية:

- «أنتَ ليس لديك أيّ فكرة عن ابنة الوزير التي تفتخر بها، والتي لم تكن سوى عروس لعبة بخيوط تحركها أمها كيف تشاء، هل تصدق أنها أمرتها أن تحرمني من ابنتي كي لا أترك تأثيراً سيئاً على تربيته الأوروية، وعشت

حياتي التي اخترتها لي زوجاً على الورق، وأباً في البطاقة العائلية.. كل هذا من دون أيّ اعتراض من جانبي.. كيف أعترض، وأنا كالثور في ساقية السياسة، لعبتك التي تجيدها، وتريد مني خلافتك فيها... رغم أنه العالم الذي لم أتخيل نفسي فيه... عالم قدر سقفه المؤامرات، وجيوبكم منتفخة بدماء الغلابة من الناس، لا تتورعوا عن مصها حتى لو كانت هزيلة لا خير فيها...».

تأمل رائف وجه والده الممتعض وهو يوجه لكروان نظرات نارية مهددة وأردف:

- «كل هذا أصبح بلا معنى الآن.. ابنتي المسكينة دفعت ثمن تحاذلي، وضعفي.. وأنت بإمكانك اعتباري مت مع من ماتوا في الحادث، حياتك المشبعة بالنفاق، واللهاث المسعور خلف الجاه والسلطة، لم تعد تثير شهيتي».

صرخ والده بغضب أعمى وعيناه يشدد بريقهما بجنون:

- «هذا ليس صوتك.. والكلام ليس كلامك، إنها تلك الملعونة النكرة، كان يجب أن أسحقها أسفل حذائي كحشرة، عندما لجأت لي لتخبرني عن...».

أطبق العجوز شفثيه ممتقع الوجه عندما لمح إشاراتها التحذيرية، فالتقط أنفاسه وأكمل:

- «تخبرني عن رقة حالها، وفقرها الشديد، وهددتني إن لم أعطها مالاً لتخلق به فمها، ستلجأ للصحف وستروي حكايتها معك».

تمتم رائف بذهول لا يصدق ما يسمع:

- «هل طلبت منك مالاً؟».

التمع الشر مسطوراً في عينيه، وارتاحت تغاضينه وهو يومئ بانتصار:

- «نعم.. لا تقلق يا ابني.. أعطيتها ما يكفي لعيشة كريمة هي ووالديها».
ثم حدجها بنظرة وكأنه يتحداها أن تكذب، تحملت الازدراء في عيني رائف،
وكلماته كطلقات الرصاص، بلا رحمة:
- «إذن كل الموضوع عندك كان أنا، أو المال، عندما لم تستطيعي الحصول عل
الزوج الغني، كان المال هو البديل!!».
تمت بصوت جليدي، وعينين دامعتين:
- « كان لا بد أن أعيش يا رائف، بعد اختفائك لم... لم أجد مصدرًا للدخل
و...».

ماتت الكلمات على شفيتها، قتلتها نظراته المشمزة المحتقرة، وأخذت الأفكار
تتخبط بجنون في رأسها. ماذا لو أخبرته عن سبب عطاء والده الحاتمي، وهو
أبعد ما يكون عن الكرم، والأدهى... عن سبب قبولها، لو لم تكن حاملاً،
وبحاجة لكل قرش وقتها، لما قبلت مليماً من هذا السّفاح.
ماذا لو أخبرته بكل هذا، سينقلب السحر على الساحر، وستشمت حتماً
بتحويل انتصاره لهزيمة نكراء، رقدت أفكارها في مهدها مجرد أمنيات.
وقف رائف يحدج والده بنظرة كارهة:

- «سيد ثروت.. سؤال أخير قبل أن تغادر بيتي للأبد بلا رجعة كما أرجو..
من ضمن أكاذيبك الكثيرة من أجل مستقبلي العريق.. هل قمت، على سبيل
التفضل، بإلغاء زواجي من كروان بإحدى ألعابك غير القانونية؟».
هز الرجل رأسه بشحوب مخيف:

- «أنا لم أجد الداعي... كما أنني لم أتأكد إن كان زواجاً حقيقياً أم...».
قاطعة رائف بنبرة محتقرة:

- «بل هو صحيح مائة بالمائة... هذا هو الشيء الوحيد الذي لم تستطع أن تكبّدني خسارته... ضميري».

ثم استدار لكروان يحدجها بعينين مظلمتين أسرت الرعدة في أوصالها:

- «هذا يعني... أنك ما تزالين... زوجتي».

صوت والده المهدد استحوذ على اهتمامه مجدداً:

- «وهل لكلامك هذا من معنى محدد؟».

وكان رائف استعاد قوة وجبروت والده المهزوم:

- «المعنى يا ثروت بيه أنني لو تخيّلت وجودك بعد الآن، أو راودني إحساس ما، أنك تتدخل في حياتي من جديد، بأي شكل من الأشكال، لن تروق لك ردة فعلي بالتأكد، سأعقد مؤتمراً صحفياً وأبوح بكل أسرارك القذرة، والتي تعلم جيداً أنها كافية لتتعفن في السجن الأيام الباقية من حياتك البائسة... ماذا.. هل فوجئت؟ هل تخيّلت أنني طوال هذه السنوات لم أتعلم منك شيئاً؟

ربما أنت الذي لا تعرفني جيداً، أنصحك ألا تبدأ باختباري، لن أتوانى لحظة عن تنفيذ تهديدي».

شبح ابتسامة تلاعب بشفتي العجوز، وكأنه يحاول القيام من رماده، فأعطاه رائف الطعنة الأخيرة:

- «لا تحاول يا ثروت بيه.. أنا أحتفظ بكل مستند يدعم تهديدي، ويجعلك تتمنى لو أنك ما فرقت بيني وبين كروان من البداية، من يدري.. ربما كان لدينا الكثير من الأولاد الآن».

بصوت متحشرج مهزوم:

- «ستندم يا رائف.. ستندم على كل كلمة، ستعود لي زاحفًا لأنظف خلفك كما أفعل دائماً».

كانت كلمات أطلقها حلاوة روح كي لا يخرج مهزومًا كما هو بالفعل. صمت رهيب بعد خروجه الدرامي.. تهاوت على أقرب مقعد بعد أن تركتها المواجهة مجردة من كل طاقة، مجرد هيكل خاوٍ، مهدد بالسقوط مع أقل نسمة هواء شاردة.

كان صوت رائف المتهم هو أول ما كسر جدار الصمت:

- «أعتقد أن أعظم المفاجآت الصادمة، وما لم تعلمي حسابه، أن تستيقظي في الصباح لتجدي نفسك حرم السياسي المعروف، رائف ثروت يزن... أراهن أنك لم تتوقعي حظك الذي يفلق الصخر أيتها المخادعة الحقيرة.

طوال الوقت تتقنين دورك بمهارة... الخادمة المتفانية، بعينيك رأيت مقدار ألمي وعذابي، وذلك الصراع الأعمى بين ما أظنه هلاوس، أو ذكريات منسية... أنت فقط كنت تستطيعين انتشالي من بؤسي... ولكنك وقفت تتمتعين بالمشاهدة الرخيصة لرجل هزمته الحياة».

بالكاد كانت زفرة ساخرة، تلك التي أعربت فيها ببساطة عن تأثرها بكل اتهاماته وهجومه.

وبعد لحظات صمت تكلمت بصوت جليدي حاولت تخليصه من أيّ مشاعر، أو أحاسيس، من تلك التي تشتعل، تحرق بصمت كيائها الضعيف، الهادئ من السطح:

- «لا أظن أنك تتوقع مني أن أكون كيس الملاكمة الذي سيتحمل دون اعتراض كل إحباطاتك الغاضبة، ولكنني أحب تذكيرك بأمرين مهمين..

أولهما: أنا لستُ على استعداد لأكون كيس الملاكمة خاصتك..

والأمر الثاني أنني احتملت الكثير في السّنوات العشر الماضية، ولست على استعداد لتحمل المزيد، لمجرد أنك تشعر بالغضب، من تسبب بكل هذه الفوضى، وحوّلنا لضحايا، لم يغادرنا إلا منذ عشر دقائق فقط... تستطيع اللحاق به إن شئت، لتفرغ فيه ما تشاء من غضب».

تجاهل ما قالته وهتف متهكماً بمرارة:

«لا شك أن المال الذي قبضته زاد من قدرتك على تحمّل السّنوات العجاف العشر».

هزت رأسها بدموع لمست أوتاره:

«أنتَ غير منصف بالمرّة.. بالله عليك يا رائف لقد كنت أكبر قليلاً من طفلة عندما تزوجتني.. وكنت بالكاد امرأة، عندما هدم أبوك المعبد على رؤوسنا، وفتح عيني المخدوعتين على أكبر كذبة عشتها في حياتي، ماذا توقعت مني... كنت مذعورة ومجروحة و...».

عضت شفتيها لئلا تمنعها من النطق ببقية الكلمات المتزاحمة في حلقها. حدجها بنظرة قاسية كأنه استطاع قراءة أسرارها.. وفجأة داهمه إحساس غامض، أنها تخفي أمراً خطيراً... هتف يستحثها:

- «أكملي... كنت تقولين مذعورة، ومجروحة و... قطعت كلامك... أكمليني... لم أعد أحتمل أن تخفي عني أي شيء، مهما كان صغيراً، مجرد حديثك عن الماضي يعيد لي ذاكرتي بومضات متقاطعة».

هتفت مصدومة:

- «أتعني أنك بدأت بالتذكر فعلاً؟».

- «نعم کروان.. أتذكر عروسي الصغيرة الخجول وفيلتنا الصغيرة».

شحب وجهه فجأة، فأدركت أن نوبة صداع تداهمه.. أسرعت بإحضار أحد أقراص المسكن، التي تحتفظ بها من أجله في أحد جوارير المطبخ. وضعتها بين شفتيه وناولته كوب ماء... احتدت نظراته وهو يدفع يدها ليسقط الكوب محطماً، ويصق القرص المسكن صارخاً:

- «لا أرغب بأي شيء منك... ولا أريدك».

وأسرع مغادراً المطبخ يترنح... حاولت اللحاق به فأوقفها عبد الحميد:

- «اتركيه الآن، ولكن لا تتخلي عنه، هو بحاجة لك الآن أكثر من أي وقت مضى».

تنهدت وهي تلاحقه.. بعينها حتى اختفى، انتبهت لعبد الحميد يقول بنبرة متسلية:

- «كنت أعلم أن هناك قصة ما بينكما.. من غير المعقول ألا ينادي وهو تحت تأثير المخدر، إلا باسمك أنت... لا زوجته، ولا ابنته... بل کروان... الآن فقط عرفت السبب!!».

تمت بارتعاش لم تستطع السيطرة عليه:

- «هل تدرك خطورة الموقف.. لا شك أن ثروت يبه يعد عدته للانتقام مني الآن... لا بد أن ننتقل من هنا، أنا وأخوأي ووالداي نحن في خطر».

أمسك بيدها داعماً:

- «احتمي بزوجك.. لن يستطيع أذيتكم وأنتم معه.. هو أمانك الوحيد ضد شر ثروت».

عضت على شفاتها السفلى حتى أدمتها، ثم تجاوزته... راقبها متوجساً، ثم ارتاحت أساريه عندما وجدها تتجه لأعلى.

كانت رأسه بين يديه عاجزاً عن رفعها من ثقلها، يشعر بعالمه ينهار مرة أخرى أسفل أقدامه، وهو عاجز بائس وحيد... سمع باب غرفته يفتح دون طرق.. دون أن يرفع رأسه وبسخرية:

- «هل ذهبَت يا عبد الحميد؟».

دبت فجأة قوة هائلة في رأسه المتراخية ليرفعها مصدوماً عندما جاءه صوتها المتردد، وكأنها تخطو خطوة لأول مرة لمر تحسب حساباتها جيداً: «ما زلت هنا».

بصوت متحشرج حاول أن يدعمه بعدم اللامبالاة فلم ينجح: - «لماذا عدت؟».

جلست جواره على الفراش بمبادرة أربكته:

- «مكان الزوجة مع زوجها في بيته، أو على الأقل إلى أن يقرر الزوج، إن كان يريد، أم.. لا!!».

حدجها بنظرة ثابتة حادة، أبعد ما تكون عن التعاطف واللين: - «هل أنتِ واعية لأبعاد قرارك هذا؟».

رفعت كتفها ومطت شفيتها:

- «أنت لن تخسر شيئاً».

- «ولكنك ستخسرين الكثير إذا عرف الناس أن لك زوجاً تحتفظين به في خزانتك... مثلاً قد تخسرين تودد مديرك الفاتن... أو غيره ممن يرسمون خطأً حولك، بعيداً عن محيط الصداقة».

رفعت أحد حاجبيها لتعيد له مناورته:

- «إذن، سأكون مجبرة لأتحملك بعض الوقت، حتى ينساني والدك، وأكون آمنة من شره أنا و... عائلتي».

أطلق ضحكة مريرة:

- «هذا هو السبب إذن... تتخذيني درع حماية... وأنا الذي ساورتني الشكوك لبعض الوقت».

تألّمت من المرارة في صوته فهتفت:

- «أنا وحملي المسئولة عن والدي وأخوي... والدك سيصر على تأديبي بأذيتهم... رامي ورائد لا ذنب لهما في ما فعلته أنا، لماذا يُعاقبون بجريرة أفعالي؟».

رد باستهانة:

- «إن كانت هذه كل مشكلتك فلا داعي للقلق، سأتصل به أعيد تهديدي... اطمئني... ولن يمسكم بسوء».

أطلقت ضحكة سارة بعينين دامعتين:

- «المرّة الأخيرة التي سمعت فيها منك هذا الكلام، صدقته وآمنت بك.. فقدت زوجاً، وبيتاً، وحياءً ورديةً خططنا لها معاً... ولم تحرك ساكناً... آسفة... أعرف الآن أنك كنت فاقد الذاكرة، ولا ذنب لك.

ولكنني عشت عشر سنوات لا شيء يغذيني إلا المرارة، والألم الموجه لحد الصّراخ كل ليلة، لخداحك وهجرك لي، لا أحلم إلا بالانتقام منك».

توقفت عندما لاحظت إحساسه بالذنب يطفو على وجهه، وكأنه يتمنى لو تعود عقارب الساعة للوراء عشر سنوات كاملة... نهضت واقفة:

- «آسفة.. ليتني أستطيع مواساتك، والتخفيف عنك.. ولكنك لم تعلم بعد مقدار معاناتي لأستطيع فقط البقاء واقفة من أجل إخوتي في عالم لا يرحم

الضعيف، ولا مكسوري الجناح. عن إذنيك؛ لا بد أن أذهب لوالدي لأخبرهما بالتطورات».

اتجهت للباب فأوقفها:

- «أخبريهما أنني أرغب بالتحدث معهما».

ارتبكت:

- «ولكن... لماذا؟».

«كروان.. لا يمكننا تجاهل الوضع الجديد، ولا يمكن أن تستمري كخادمة في بيتي... سألحق بك بعد ساعة... سأستحم وأحلق لحيتي... لا أريد أن أخيف الولدين».

ازدردت ريقها بصعوبة عندما ذكر الولدين، ثم تراجعت شاحبة وهي تومئ بالموافقة بدون أي صوت.



اختار عزت الحل الأسلم وهو أن يغلق الباب في وجه ذلك الغريب، الذي أخاف زوجة ابنه لدرجة الرعب، وكان يهم بإغلاقه عندما فوجئ بالرجل يتهاوى على ركبتيه باكيًا متوسلاً:

«حنين.. أرجوك، أتوسل إليك يا أختي، لا تغلقي بابك في وجهي.. ليس أنت أيضًا».

جال عزت بنظراته بين الرجل المنهار، والذي أخذت دموعه تسيل برحابة بين جروح وجهه الحديثة، ثم لحنين التي وقفت وكأنها تؤدي صلاة نحيب صامتة.

أخرج عزت زفرة متعبة:

«أعتقد أننا بحاجة لأن نتكلم.. أدخل يا زاهر.. ادخل يا ولدي، لا يصح أن تقف على عتبة بيت أختك بهذا الشكل.. ماذا سيقول الجيران عنا؟».

رفع زاهر رأسه بأمل ضعيف يتنامى بصدرة، وكانت إيماءة حنين الخفيفة التي فتحت له كل طاقات القدر، فهبّ واقفاً يشكر عزت بحماس:

- «شكرًا لك يا بيه.. لقد أعدت إحيائي من جديد».

أمسكه عزت بيده وأدخله.. ثم أشار لحنين لتتقدمهم.

كانت ما تزال مترددة ولكن وجود حماها الطيب بث في روعها الأمان الذي عدمته في وجود أخيها الوحيد.

ورغم كل أحاسيسها المحبّطة كان القلق يوجع قلبها من منظر أخيها، وكأنه اصطدم بحافلة تركت آثارها الدّامية على وجهه، وجسده الموجوع.. كان واضحًا من يده التي لم تفارق جانب خصره، بإجفال خفي من الألم عند كل حركة.. وجدت نفسها تسأله:

- «ماذا بك.. هل أنت بخير؟».

نظرته التي استرقها نحو عزت وهو يتهرب من مواجهته، جففت كل منابع الدّم في أوردتها، حركة زاهر لا تعني إلا شيئًا واحدًا... مخيفًا... ودون أن تفكر هتفت بدعر:

- «هل هو وليد؟».

لم يُجبها.. بل استمر في تأمله لملاحها التي افتقدها كثيرًا، وتجاهل الردّ على سؤالها، وهو يحاول النهوض:

- «سوف أذهب.. أردت الاطمئنان على أحوالك... انتظرت وليد بيه حتى غادر ولم أعرف أن...».

أوماً عزت:

- «لر تعرف أن والده العجوز يعيش معها.. اجلس يا زاهر؛ أرغب بسماع إجابة سؤال حنين.. من فعل بك هذا، ودفعك لتأتي لزيارة أختك الآن رغم أنك كما سمعت خرجت من السجن منذ وقت طويل؟».

- «لا شيء يا سيدي.. وليد يبه لا يمكن أن...».

نهض عزت مدرغاً سبب حرج زاهر:

- «يا لي من مضيف قليل الذوق.. سأصنع لكما كوبين من الشاي لر تتذوقا مثلهما في حياتكما... أمهلاني خمس دقائق».

واندفع مغادراً الصالون.. فأسرعت حنين تجلس بجوار أخيها، أمسكت يديه:

- «سامحني... ظننتك جئت لتنتقم مني».

مسد بيده على شعرها الناعم قائلاً بنبرة حزينة:

- «بل جئت أطمئن عليك، وأطلب منك السماح».

سالت دموعها وهي تحتضن أخاها بقوة، ثم تراجعت عندما تأوه بقوة.. تراجعت باعتذار:

- «آسفة.. ولكنني سعيدة بعودتك يا أخي.. كم افتقدتك».

- «وأنا أيضاً.. افتقدتك كثيراً.. يا إلهي كم آذيتك... كيف تسامحيني بعد كل ما فعلته بك؟».

دست إصبعها في إحدى كدماته قائلة بشقاوة:

- «لأنك أخي... هل آلتك هذه؟».

أمسك يدها وقبّلها بقوة لتفاجأ بدموعه تغطيها:

- «ساحيني يا حنين.. لا أعرف كيف أعوضك.. ولا كيف أحميك منه؟».

تراجعت شاحبة مرة أخرى:

- «تعني وليد.. أليس كذلك؟ أخبرني يا زاهر... أرجوك أخبرني يا أخي... لو

أردت أن نتصافى حقًا أخبرني».

أطرق رأسه:

«نعم.. هو من فعل بي هذا.. والأسوأ أنه هددني أمس أن ينتقم منك أنت

لفشلي... كدت أموت رعبًا وأنا أتخيلّه يضربك...».

ازدردت ريقها بصعوبة وهي تسأله:

- «فشلك في أي شيء؟.. ماذا أراد منك وليد، وفشلت في تنفيذه؟ أخبرني

أرجوك... وليد زوجي وحيبي ولا بد أن...».

صرخ مقاطعًا:

- «كيف يكون زوجك وحيبيك وهو يجب كروان؟!».

- «كيف عرفت؟».

- «لأنه طلب مني قتل ماهر، لأنه تجرأ وحاول الاعتداء عليها».

أشار للكدمات في وجهه مردفًا:

- «وهذا كان عقابي عندما فشلت.. وهددني أن يحدث لك أيضًا».

أصوات تحطم وتكسير أثارت انتباههما، فاستدارا معًا ليجدا عزت واقفًا

يكسوه شحوب الموتى... هرعا إليه يساندانه حتى أقرب مقعد... ثم هتف

زاهر بقلق:

- «لا بد أن أذهب...».

أوقفته حينئذ:

- «انتظر يا زاهر... بابا عزت مختلف عن وليد».

أشار له عزت بيده ليجلس، فأطاعه زاهر وانتظر حتى التقط أنفاسه:

- «ساحني.. سمعت ما قلت دون قصد.. وأدرك مقدار حرجك... ولكنني سعيد لأنك جئت لتطمئن على أختك... هذه علامة جيدة على الطريق الصواب الذي جانبك طويلاً... كما جانب ابني وليد».

- «شاكر تفهمك يا عزت بيه.. أعتقد أنك تفهمني الآن، لو أردت اصطحاب أختي معي... وسنختفي أنا وهي عن عيون وليد بيه وأيديه الطويلة.. أنا لن أستطيع تنفيذ أوامره، بعد أن رأيت بعيني أختي... شقيقتي تدفع ثمن شري».

هتفت حينئذ بانكسار:

- «كنت على وشك الذهاب، قبل أن تطرق الباب بلحظة واحدة».

«أين كنت ستذهبين؟».

اغرورقت عيناها بالدموع:

- «لرأفكر إلا بالخروج من هنا.. ساحني يا بابا.. ولكن قدرتي على الاحتمال أقل بكثير مما ظننت.. ربما حبي لوليد لا يكفي لينسى كروان.. ولا بد أن أتركه يبحث عن سعادته».

أطرق عزت لحظات، ثم رفع رأسه بابتسامته الشاحبة:

- «أنتِ على حق.. لن أناقشك إلا في أمر واحد.. أنتِ تحبين وليد، وتستطيعين إنقاذه من نفسه قبل أن يضيع مستقبله».

هزت رأسها بوهن:

- «لن يعثر على زاهر كي ينفذ له مهمته».

- «أيتها المسكينة.. هل أنتِ واثقة أن هذا العارض البسيط سيوقف وليد عن خطته.. أراهنك أنه في هذه اللحظة يبحث عن بديل لزاهر، وربما لا يفشل المرة القادمة، ويتحول وليد، ابني الوحيد، وزوجك، إلى قاتل بين ليلة وضحاها.. إن لم تكوني واثقة من حبك لوليد، ثقي أنه لن ينقذه إلا اهتمام شخص مثلك.. أرجوكِ فكري يا حنين، كي لا يضيع وليد».



على عكس توقعاتها، استقبل والداها الخبر بحماس شديد، وإن حافظا على تحفظهما في ردة فعلهما، الرضا الواضح على ملاحظتهما آثار غيظها، ضربت الأرض بقدميها:

«ماما... بابا!!!».

أوماً والداها:

- «حبيبتي.. في النهاية لا يصح إلا الصحيح.. على الرجل أن يتحمل مسؤولياته».

هتفت بحدة:

- «أنا لم أخبره عن الولدين... بعد».

شهقت أمها:

- «لم تخبريه... ولكننا ظننا...».

أخرجت زفراتها ببطء:

- «رائف تذكر الصّلة بيني وبينه فقط، ولم تأتِ مناسبة لأخبره عن رائد ورامي».

هز والدها رأسه بأسف:

- «لن تستقيم الأمور بينكما وهذه الكذبة معلقة فوق رأسيكما».

- «فيما بعد يا بابا... فيما بعد».

تبرمت أمها غير راضية بينما نصحتها والدها:

- «ربما يلتبس رائف لك العذر لعدم إخباره قبل اليوم، ولكن منذ الآن، ومن اللحظة التي عرف فيها الحقيقة، سيحاسبك عن كل دقيقة مرت وأنت تكذبين عليه.. كما أنّ الولدين من حقهما أن يعرفا والدهما».

انتفضت قبل أن تفلت أعصابها، فهي تعرف مخاطر مواصلة الكذب على رائف.. لكنها فقط جبانة من المواجهة، خاصة المواجهة القادمة معهما.

تركتها وذهبت لغرفة الولدين بعد أن عرفت بعودتهما مبكرين.

كانا يتقافزان بشقاوة على فراشيها عندما دخلت فجأة فزجر رائد:

- «كم مرة أخبرتك أن تطرقي الباب أولاً.. ماذا لو كنا نخلع ملابسنا؟».

هزت رأسها باستياء:

- «لقد كنتُ أغير حفاضاتكم.. ولن يختلف الوضع كثيراً... كما أنّكما بكامل

ثيابكما الآن... اطمئن يا أستاذ رائد عوراتك بأمان... وأنت يا رامي... أليس

لديك تحفظ على تصرفي أنت أيضاً؟».

- «لا.. بإمكانك الدخول عليّ في أيّ وقت تشائين، عندما تكون لي غرفتي

الخاصة».

- «حسنًا، ربما سأتمكن قريبًا من إصلاح بعض الغرف.. هل تسمحان.. سأخبركما بأمر مهمّ... اجلسا جوارى».

أطاعها الولدان بهدوء، وكأنهما يدركان أنها على وشك الاطلاع على خبر خطير.

لم تعرف من أين تبدأ... تمنّت لو أنها اتخذت الخيار الآخر رغم صعوبته، وحملت عائلتها وهربت بها... ولكنها هذه المرة لن تهرب... ستثق بحدسها وتحتمي به... سألهما رائد:

- «هل الخبر بهذه الصعوبة؟».

أجابت بسرعة وهي تحاول التركيز: «نعم».

استمدت الشجاعة بدفع المزيد من الهواء لرئتيها:

- «رائد... رامي... الموضوع بشأن...».

هتف رامي بحماس:

- «جارنا... السيد رائف... أكملني».

سألته بوجه ممتقع:

- «وكيف عرفت؟».

لوى رائد شفتيه:

- «الحكاية لا تحتاج لذكاء... جئت من عنده لتوك... وكانت تدور مناقشة

حامية بينك وبين والدينا... الخبر التالي هو...».

أكمل رامي بسعادة:

«السيد رائف يرغب بالزواج منك».

- «السيد رائف لن يتركك تستمرين في عملك هذا.. أليس كذلك؟، بما أنه زوجك فسيتولى هو كل المصروفات».

هزت رأسها:

- «لا يا رائد.. أنا آسفة الأمور لن تسير بهذا الشكل... لم أعرف أن عملي يزعجك لهذا الحد».

تبرم رائد وأشاح بوجهه رافضاً النقاش، بينما هتف رامى:

- «رائد يتشاجر كل يوم من أجلك في المدرسة.. ذلك الولد في الصف يسخر منك، ومن عملك، فهو يذهب مع والديه كل أسبوع للمطعم ويراك هناك.. ويعود ليسخر منا في المدرسة أمام زملائنا».

بهتت من المفاجأة، وهمست باعتذار لرائد المحتقن بغیظ:

- «أنا آسفة.. لم أدر أن عملي يسبب لكما الإحراج... ولكن يا رائد أنت لم يتوجب عليك الشجار مع أمثال هذا الولد».

احتدت ملامح الصبي الصغير، فبدأ أشبه بوالده وهو يقبض أصابعه على بعضها، حتى ابيضت مفاصله قائلاً من بين أسنانه:

- «لقد قال كلاماً بذيئاً عنك يا کروان.. لا بد أن تتركى العمل، طالما أنك أصبحت زوجة للسيد رائف».

تنهدت بقوة:

- «اسمعاني.. رامى ورائد.. لا بد أن تعرفا الحقيقة.. زواجى بالس... برائف... ربما لن يستمر... لو كان بإمكانى أن أشرح لكما الأسباب لفعلت، ولكن يوماً ما ربما تفهمان ما أقوم به من أجلكما...».

توقفت لحظة عن الكلام يعتصرها الألم من خيبة الأمل المرسومة على ملامحها

الصغيرة... استجمعت شتات أفكارها مرة أخرى وأكملت:

- «أنا حقاً آسفة... لن أستطيع ترك هذا العمل، إلا إذا وجدت عملاً غيره..
رائف غير مجبر على إعالة عائلتي.. أنتم، وماما، وبابا ملزمون مني أنا... أنتم
مسئوليتي يجب أن تفهما هذا الأمر وتدرکاه جيداً... حتى إن كان زوجي
رجلاً ثرياً.. لن نقبل منه أي مال... أليس كذلك؟.. ولكن أعدكما أن أجد
عملاً في أقرب وقت يجعلكما فخورين بي.»

قفز الصبيان محتضنانها بدموع مؤثرة قائلين بصوت واحد:
- «نحن فخوران بك يا أختي.»



غلبها قلبها مرة أخرى، وكانت له اليد العليا في قرارها للمرة الثانية.. كانت المرة
الأولى عندما وافقت على الزواج من وليد، وهي متأكدة من حبه لكروان..
والآن تترك له التفرد بقرار مصيري رغم الاحتجاجات والعصيان التي يهتف
بها عقلها، ألا تكون غبية مرة أخرى، وتحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه، التفتت
لزاهر:

- «هل تعلم أين هو وليد الآن؟».

- «غالبًا يبحث عني، أو كما قال السيد عزت.. يبحث عن بديل.».

- «وهل يضع أيًا من رجاله لمراقبة المطعم؟».

- «بالتأكيد على مدار الأربع والعشرين ساعة، خاصة عندما تبدأ ورديتها.».

نهضت واقفة:

- «عظيم.. إذن، لا بد أن تنجح خطتي.».

وقف عزت يسألها بقلق:

- «ما الذي تنوين فعله يا حنين؟».

- «لا أعلم يا بابا.. ربما تكون مغامرة من أغبى المغامرات على الإطلاق.. وربما.. مَنْ يدري.. لو توجد أيّ بارقة أمل لي أن يحبني وليد بأيّ طريقة.. ولو أمل ضئيل... ستنجح خطتي.. وإن لم تنجح، يجب أن تتأكد أنني عملت ما بوسعي».

- «ألن تخبريني ما الذي تنوين فعله؟».

«من الأفضل ألا تعرف».

وقف زاهر:

- «وأنا معك».

- «لا.. ولا أنت يا زاهر.. كي تنجح خطتي لا بد أن أكون وحدي تمامًا».

«لا أستطيع انتظارك هنا».

غمغم عزت:

- «ولا تستطيع الخروج، والمخاطرة أن يراك وليد أو أحد رجاله».

وقف الثلاثة يتبادلون النظر لبعضهم البعض بحيرة حتى هتف عزت:

- «وجدتها.. أعلم المكان الذي لن يجده فيه وليد ولو قلب بلطيم حجرًا

حجرًا...».

أومأت له حنين:

- «سأذهب وأنا مطمئنة لوجودك مع بابا عزت... ولكن احذر أن يغلبك في

الشطرنج، فهو موهوب بالفطرة باختراع الحيل الشيطانية للفوز».



اتجهت نحو باب الخروج، ثم توقفت وكأن فكرة أخرى طرأت ببالها.. عادت
تحدث زاهر:

- «بعد تفكيرٍ ثانٍ.. ربما ستستطيع مساعدتي...».

وباختصار، أخبرته المطلوب منه، لم تمهلها ليطرحا عليها المزيد من الأسئلة،
وضعت هاتفها الخليوي على أذنها بعد أن طلبت الرقم، وانتظرت الرد وهي
تتجه للباب.

تبادل الرجلان النظرات القلقة وجلسا بانتظار الأخبار.



أغلقت كروان الهاتف تراجع في ذهنها المحادثة السريعة باستغراب وتعجب شديدين، ثم نهضت تستعد للعمل مبكرًا الليلة.

استقبلها ماهر دون أن يخفي دهشته لرؤيتها: «خيرًا؟.. مبكرة اليوم». رفعت حاجبيها:

- «لا تقلق أنوي مطالبتك بأجر ساعات العمل الإضافية».

- «كيف حالك اليوم؟ بالأمس كنت بالكاد تتحركين؟».

رفعت حاجبيها مرة أخرى:

- «أكان الحادث بالأمس فقط!!».

ولم تصدق كم مرت أحداث تكفي لملء مجلدات في أقل من أربع وعشرين ساعة فقط... سألته:

- «هل أبلغت الشرطة؟».

«لا، لم أفعل.. لو فعلت ستكونين شاهدة... ولا أحب أن تدخلني قسم الشرطة، وتعانين من معاملة الضباط هناك، حتى لو كنت كشاهدة في حادث... وربما يصادف حظك بضابط نكد لا يعجبه شكلك، أو طريقتك في الإدلاء بالشهادة، فيزج بك في السجن ليلة أو ليلتين».

- «أحقًا؟.. يا لك من رقيق القلب.. وأنا التي ظننتك ستنتقم مني لما فعلته بك».

- «لن أكذب عليك، لقد فكرت جدًّا في هذا الأمر.. وبعد إنقاذك لحياتي...».

- «قاطعته تهتف بسعادة:

- «انظر من جاء.. هذه حنين».

استدار بسرعة يصفر مذهولاً:

- «هل أنت متأكدة؟.. هل هذه حنين؟.. حنين خاصتنا؟».

- آه، بالطبع.. انظر البنات التففن حولها.. لِمَ لا تذهب لتحيّتها؟.. تبدو من علية القوم الآن وليست مجرد نادلة في مطعمك الصغير».

تألق بريق عينيه وهو يهندم بذلته، ويتقدم باتجاه حنين التي كانت ترد على تحيات البنات بترفع ونظرات مشمئة، ثم تهلت أساريرها عندما وقعت عيناها على ماهر يتقدم باتجاهها:

- «معقول!!.. المطعم يكاد يشتعل من نورك يا حنين هانم».

قرعت حنين بضحكة عالية، أعطته يدها فانحنى يقبلها، ثم جذب أحد المقاعد، ودعاها للجلوس باحترام وتوقير.. جلست تتطلع حولها بمثل:

- «اجلس يا ماهر».

أطاعها بتأدب:

- «أنا في غاية السعادة لتشريفك الغالي مطعمي المتواضع.. هل سيلحق بك وليد بيه؟.. هل أعد قائمة فاخرة من أشهى الأطعمة للعشاء؟».

- «لا يا ماهر.. أنا جئت لأتعثى وحدي... وليد مشغول في عمله.. وأنا مللت البيت؛ فقلت في نفسي لِمَ لا أتعثى عندك الليلة».

- «أنا في قمة السعادة، لأن اختيارك وقع على مطعمي المتواضع.. سأنادي رويدا».

قاطعته بحدة:

- «بل کروان.. أريدها أن تخدمني الليلة».

حدجها بنظرات مستهجنة، ثم استدار ينادي کروان التي لبّت النداء فوراً.

أومأت لحنين ببرود زاد من استغراب ماهر:

- «أَيّ أوامر يا... حنين هانم».

تجاهلتها حنين وسألت ماهر:

- «ماذا ستختار لي يا ماهر؟».

لم يصدق ماهر نفسه وهي تحدثه بهذا الوله والتلطف:

- «أنا.. ترغيبين بأن اختار لك؟!!!».

هتفت کروان بانزعاج:

- «لِمَ لا أعود لاحقاً، بعد أن تستقرا على من سيطلب ومن سيأكل؟».

ضربت حنين بغضب على المائدة بيديها:

- «ما قلة الذوق هذه.. ألمر تتعلمي احترام زبائن المطعم المحترمين؟».

سخرت کروان:

- «محترمين... آه، بالطبع... هل تحبين أن أعدد لك أمارات الاحترام؟».

انتفضت حنين تتأجج بالغضب:

- «ماهر.. إمّا بقاء هذه الوضيعة في المطعم.. أو أنا.. لن أصبر على وقاحتها أكثر من ذلك».

وقف ماهر حائرًا:

- «ما الذي يحدث بينكما.. لقد كنتما أفضل صديقتين؟».

هزأت كروان من كلماته:

- «هذا قبل أن تخرج من البالوعة، وتتزوج سبع السباع بنفسه».

وقفت حنين تلوّح بيدها:

- «أنتِ أيتها الحقيرة تسخرين من زوجي الذي يساوي عشرة من أمثالك؟».

شعر ماهر أن الأمور بدأت تخرج عن السيطرة، خاصة وقد بدأ بعض رواد

المطعم بالمغادرة، وبعضهم وقف يتسلى بمشاهدة وصلات الرّوح بين الفتاتين.

في النهاية لم يجد مفراً من أن يوقف إحداهما.. ولم تكن حنين بالطبع:

- «كروان.. هذا يكفي».

- «ولكن هي التي بدأت يا ماهر».

انتحبت حنين بالبكاء:

- «أنا.. أنا يا ماهر؟».

وفجأة أخذ جسدها يتراخي وهي تغيب عن الوعي. أسرع ماهر بحملها قبل

أن تتهاوى على الأرض.. كان يضعها على المقعد عندما صاحت كروان:

- «ماذا تفعل أيّها المجنون؟.. أسرع واحملها للطوارئ قبل أن يأتي زوجها

ليبحث عنها، ولو وجدها على هذه الحالة سيغلق مطعمك للأبد».

شحب وجه ماهر وأوماً مصدوماً:

- «أنتِ على حق.. يا إلهي!! ما هذه البلوة التي أُلقيت على عاتقي؟ كروان..
أسرعي واسبقيني وافتحي باب السيارة».

وبلمح البصر كانت كروان تنفذ الأمر.. فتحت الباب الجانبي للسائق فزجر
ماهر وهو يئن بحمله: «افتحي الباب الخلفي».
اعترضت كروان:

«هنا أفضل كي يحميها حزام الأمان... ولكن في الخلف لا يوجد حزام.. ألا
تريد أن توصلها للمشفى قطعة واحدة».

أسرع مولوداً ليضعها برفق على المقعد الأمامي، أحكم وضع حزام الأمان
حولها، وبنفس حركاته المولولة، كان يتجه لمقعد السائق لينطلق بالسيارة
لهدفه.

تنهدت كروان وهي تراقب السيارة حتى ابتلعها ظلام الليل.. «ترى ما الذي
تخططين له يا حنين؟.. أتمنى أن تكوني سالمة».

دخل طارق مكتب وليد بملامح ممتعة.. حدجه هذا الأخير بنظرة مستفهمة:
- «ماذا بك يا طارق.. هل حدث شيء.. هل الأخبار من المطعم؟.. تكلم يا
طارق صمتك يوترني».

أوماً طارق:

- «نعم.. الأخبار من المطعم».

وقف وليد باهتمام:

- «أكمل يا رجل.. لا تتبع أسلوب التنقيط هذا، أعصابي لا تحمل».

- «أخبرني المخبر أن مشادة وقعت في المطعم».

هتف وليد بقلق:

- «هل حدث لكروان مكروه.. انطق يا طارق».

- «لا كروان بخير.. إنها... إنها... حنين... عفواً أقصد (مدام حنين)».

وفجأة تحول وليد إلى كائن آخر، وهو يمسك بتلابيب طارق:

«مَنْ قُلْتَ... حنين... أيّ حنين؟.. تقصد.. حنين زوجتي؟».

أوماً طارق:

- «ن... نعم يا وليد... منذ ساعة دخلت المطعم، وفجأة قامت مشادة بينها

وبين كروان».

ازداد جبين وليد تقطيباً:

- «ومن بدأ الشجار؟».

- «يقول مخبرنا إن كروان هي التي بدأت بالسخرية والتحقير من ح... المدام...».

وقف ماهر ليفصل بينهما ولكن ال... مدام أغمي عليها و...».

ارتعشت شفتي وليد وهو يصيح:

- «أنت.. ماذا تقول؟».

- «ليس أنا... هذا تقرير المخبر... وحملها ماهر في سيارته للطوارئ... وليد...».

وليد...».

لم يرد وليد على نداءاته، وهو يسرع للمشفى وقلبه يخفق بقوة، ولأول مرة

يُصاحِب خفقاته ألم موجه.

وصل للمشفى في وقت قياسي، أسرع لموظف الاستقبال يسأله عن زوجته..

تطلع الموظف لدفتره ثم هز رأسه:

«عفوًا سيدي.. في الساعة الأخيرة لم تدخل أيّ امرأة بهذا الاسم، أو هذه المواصفات».

ضرب وليد يديه على الدفتر صارخًا:

«كيف لم تدخل؟.. انظر جيدًا.. أنا متأكد أنها دخلت هنا مع رجل اسمه ماهر.. ابحث عن اسم ماهر عفيفي».

وعاد الموظف يبحث في سجلاته، وكالمرة الأولى هز رأسه بالنفي:

«وهذا الاسم أيضًا غير موجود».

وفجأة هب إعصار لم يستطيعوا إخماده، حتى جاء مدير المشفى بنفسه، وبعد تحقيق مع الجميع تأكدوا من عدم وجود امرأة باسم ومواصفات الزوجة المفقودة..

عاد ماهر لمطعمه في حالة من الذهول المصحوب بصدمة.. هرعت إليه البنات للاطمئنان على حنين، ولكنه لم يرد على أيّ منهن.

دخل مكتبه وطلب فنجان قهوة.. ارتفعت الحواجب بتعجب، ما عدا زوج منها، قُطبًا بقلق.. دخلت بعد دقائق تحمل فنجان القهوة.. قدمته:

- «كيف هي حنين؟.. هل تركتها بخير؟».

رفع رأسه يحدج كروان:

- «لا أدري».

مطت شفيتها:

- «كيف لا تدري.. ألم توصلها للمشفى.. ماذا أخبرك الطبيب عنها؟».

هز رأسه بذهول مرة أخرى:

- «تركت السيارة في باحة المشفى، ودخلت لأنادي على أيّ أحد يساعدي في إسعافها.. وعندما عدت للسيارة لم أجد لها أثراً.. بحثت في كل مكان.. ظنني الناس هناك أنني مصاب بلوثة».

رفعت كتفيها بلا مبالاة:

- «وما المشكلة؟.. ربما تكون أفاقت وعادت لبيتها، في الوقت ما بين دخولك وخروجك».

وكأنه غريق تمسك بقشة:

- «هل تعتقدين هذا؟».

- «بل أنا متأكدة أن هذا ما حدث.. اشرب قهوتك واهدأ».

أمسك الفنجان يرتشف منه عدة رشقات متتالية دون أن يشعر بسخونة سائله القاتم المر.

بابتسامة غامضة تتمت:

- «بالهنا والشفا يا ماهر... بيه».

ثم غادرت المكتب.. التفت البنات حولها، سألتهن بصوت خفيض:

- «هل كل الأمور كما خططنا؟ والسيارة هل تم الاعتناء بها؟».

أجابتها رويدا:

- «كل الأمور على ما يرام، أخيراً جاء اليوم الذي أشفي فيه غليلي من زير النساء هذا».

سألتهن كروان بدهشة:

- «عجباً.. ظننتكما صديقين مقربين».

بنبرة كسيرة أجابتها رويدا:

- « كل واحدة منّا تنحت في الصخر لتكسب القرش يا كروان.. وهذا لا يعني أنني شريرة.. أنا فقط كنت...».

ربت كروان على كتفها:

- « لا بأس يا رويدا.. أسرع لتتخلص من صاحبنا في المكتب، لا شك أن فنجان القهوة قد قضى على كل مقاومته الآن... أخبرني البنات أن يسرعن؛ وليد على وشك الحضور».

كانت تنظف أرضيات المطعم مع إحدى الفتيات، عندما اقتحم المكان إعصار تجولت عيناه بمزيج من الحيرة واللهفة والغضب، كل ركن بالمطعم وهو يصيح:

- «أين هو؟.. أخبريني.. أين هو؟».

ادعت كروان الغباء:

- «من تقصد؟».

هتف بانفعال غير مأمون:

- «من غيره؟.. صاحب هذه الخرابة... ماهر».

امتقع وجه كروان وتمتت بارتباك:

«ولكن... ماهر بيه غادر المطعم و... و...».

قاطع ارتباكها:

- «أعلم يا كروان، لا داعي لإخفاء الأمور عني.. أعلم أنه أخذ حنين للمشفى ولكن حنين لم تصل هناك.. أين هو؟».

صرخت كروان بفرع:

- «ماذا تعني أنها ليست في المشفى.. أين ذهبت إذن؟».

هتف بقلة صبر:

- «ربما لو أخبرتني عن مكان وجوده، أستطيع أن أرتاح وأخبرك».

- «ولكنه... ولكنه لم يعد منذ أخذها في سيارته.. كما أنّ سيارته ليست

بالخارج».

أعاد وليد شعره للخلف بأصابعه مصدوماً:

- «ماذا تعني أنه لم يعد بعد؟.. أين ذهب؟.. وماذا فعل بزوجتي؟».



في الصباح الباكر كانت مفاجأة أخرى بانتظارها.. استيقظت على نداء الصبيين من الدور الأرضي؛ فزعت من نومها تساورها الظنون بالأسوأ، ركضت غير عابئة بالبحث عن حُقيّتها وركضت حافية لأسفل تنادي عليهما بفرع، حتى وجدت نفسها تقف وجهاً لوجه مع عبد الحميد حاملاً في كلتا يديه حقيبتين.

وقفت مرتبكة تجيل النظرات بينه وبين الولدين بعلامات السرور تطفح من وجهيهما.. ساوت شعرها المشعث بارتباك، وحاولت أن تبدو طبيعية، وليس كمن قفزت من فراشها لتجد رجلاً غريباً أمامها بحقائب سفر:

- «خيرًا.. ما هذا؟».

أجابها بابتسامة أوصلت حلقات الأذنين ببعضهما:

- «حقائب السيد رائف.. طلب مني أن أضعهما في غرفته».

حدت الصبيين بنظرة قاسية عندما قهقها بالضحك، فوضعا أيديهما على أفواههما، واكتفيا بالمراقبة، وهي تصبح بنبرة مكتومة:

«عفوًا.. ماذا قلت؟.. هل قام سيدك بحجز غرفة هنا؟...».

قاطعها عبد الحميد:

- «أنا عبد المأمور يا مدام».

عقدت ذراعيها على صدرها ورفعت أحد حاجبيها:

- «لا شك أنك وسيدك تهذيان.. نحن لمر نتفق على أي ترتيبات بعد».

تجاهل عبد الحميد اعتراضها، وهتف بسعادة طفولية:

- «لن تصدقي، لقد تناول طعامه أمس، واليوم طلب إفطارًا عارمًا... ولن

تصدقني أيضًا، لقد كانت شهيته تتسع جملاً، وبعض النعاج».

هنا لمر يستطع الولدان كتم قهقهاتهما أكثر، فاستمرا بالضحك حتى أصابها

بالعدوى، رغم كل محاولاتها لتكون جادة.. لكنها لمر تستطع فقد تأوّه

عبد الحميد متممًا بنبرة متوسلة:

«ألن ترحمي ذراعي المسكينتين من هذه الحقائق وتخبريني أين أضعهما..

وبالمناسبة لقد هددني إن لمر أضعهما في غرفتك، سيطردي من عملي».

- «ما شاء الله.. والآن سيدك يتشرط».

هز رأسه مازحًا:

- «يبدو أنه يرى أن له حقًا طبيعيًا في ممارسة حقوقه الزوجية».

هتف رامي بنظرة متواطئة:

«الحق بي يا عمو، وسأوصلك لغرفتها».

زحجرت بتهديد:

- «رامي.. انتظر».

ولكنه تجاهلها، وكذلك فعل العجوز الذي تبعه في سرعة وخفة، وكأنه بعمر العشرين».

لحقت بهما متأخرة، فقد كانا قد وصلا بالفعل.. هتفت بغيظ وهي تسرع نحوهما:

- «رامي... إياك أن تفتح الباب».

تجاهلها رامي مرة أخرى ودخل، وبعده العجوز الذي ارتاح من حملته أخيراً وأوماً لها بالتحية:

- «شكراً لتعاونك يا...».

صرخت بانزعاج:

- «كروان... ك.. ر.. وان... إياك أن تقول لي يا مدام».

- «كما تشائين يا ك.. روان... رامي افتح باب الشرفة... السيد رائف بانتظاري، يرغب في الاطمئنان إلى أن كل الأمور على ما يرام».

فتح رامي الشرفة ولوّح لرائف الذي بادله التلويح بسعادة.. ابتلعت الغصة المؤلمة وهي تصيح بصوت متحشرج:

- «هذا يكفي.. هل تسمحان بمغادرة غرفتي؟.. أرغب في بعض الانفراد.. رامي.. أغلق الشرفة.. وإياك أن تتجاهلني هذه المرة».

أطاعها رامي بشقاوة، وتبع عبدالحميد لتغلق الباب خلفها وهي تحدّق بالحقيبتين بذهول.

كل أحاسيسها المتناقضة، ما بين القبول، والاضطرار للأمر الواقع، لا تساوي ذرة من إحساسها المرير بالخيانة، عندما رأت بعينها الترحاب الذي تلقاه من والديها، بالإضافة لاستقبال الولدين، وكأنه أحد الفاتحين الغزاة.

كانت تراقب بصمت انشغال عائلتها باستقباله، وإطعامه بما لذ وطاب من الحلويات، التي حضرتها والدتها خصيصاً للمناسبة، وكأن كل الأثر والمعاناة كل هذه السنوات قد انمحت بمحاة، لم تستطع إخفاء سعادتها الخاصة بعودة الألق لعينيه، والإشراق لوجهه، وكأن عمره نقص عشر سنوات.. وعاد ذلك الشاب الجذاب المتفتح للحياة، كما رآته أول مرة... عندما خطف قلبها ولم يعد.

انتبهت أخيراً للحديث الدائر، حيث يحاول رامي الحصول على موافقة رائف في أمر ما:

- «اتفقنا يا عمو رائف.. لن نخذلني أليس كذلك؟.. على كل حال لقد جلبته على نفسك، عندما تبجحت بقدرتك على السباحة كالسمكة.. فلم لا نُجري هذا السباق غدًا؟، والخاسر سيوقع عليه أقسى العقاب».

كان رائف لا يزال يفكر في الرد المناسب عندما هبت كروان:

- «هذا مستحيل».

تراجعت بارتباك أمام نظرات رائف المستهجنة، ودهشة الجميع من حديثها المبالغة، فهتفت بارتباك:

- «أعني... أنت لا تزال مريضاً في فترة النقاهة، ونزولك البحر مخاطرة غير محسوبة».

هتف رامي بإصرار:

- «ولكنه بخير الآن يا كوكي».

أجهض رائف اعتراضها، فرفع يده ليمنعها من الرد ووجه حديثه للولدين:

- «أختك على حق.. قد أبدو بخير في نظرك ولكنني لمر أستعد لياقتي الكاملة بعد.. لنرجئ السباق ليوم آخر، وإلا ظننتك تسعى للحصول على فوز سهل... اتفقنا؟».

أوماً رامي، بينما ظلت ملامح رائد وكأن فكرة كبيرة تحتل عقله الصغير وتورقه.. ثم فاجأ الجميع بسؤاله لرائف بنبرة رجل ناضج:

- «إذن.. أنت زوجها فعلاً؟».

تأمله رائف لحظات بإعجاب لهدوئه، وحرصاته وأجابه:

- «نعم يا رائد.. هل لديك اعتراض؟».

همت كروان بالحديث فأوقفتها يد رائف:

- «اتركيه يا كروان أرغب في سماعه... تريد أن تقول لي شيئاً يا رائد؟.. أنا أسمعك».

تجاهل رائد نظرات التحذير من كروان، وواجه رائف بملامح رجل ناضج:

- «بالطبع لا أمانع.. طالما ستكون سعيدة معك...».

اختلس الصبي النظرات لتوأمه، الذي أوماً له بابتسامة مشجعة، فأدركت كروان أنها متفقان وهي تقريباً تعلم ما يدور بينهما.. حاولت إرسال نظرات تحذير، ولكن رائد عاد وتجاهلها... وبعد عدة أنفاس متلاحقة عاد يكمل حديثه:

- «اعتراضي بشأن عملها».

هنا لم تستطع کروان التزام الصمت، فصرخت بحدة:

- «رائد.. لقد اتفقنا على هذا الأمر، وانتهى الموضوع».

أطرق رائد رأسه بانكسار، فحدج رائف کروان بنظرة محذرة، وأخرج زفرة طويلة وعاد ينظر لرائد:

- «أكمل يا رائد.. أنا أسمعك».

شع وجهه الصغير بابتسامة جميلة بعد دفقة الثقة التي منحها له رائف، ورغم ذلك عندما رفع رأسه رأى رائف الدموع المتحجرة في عينيه، مما تسبب له بزلزال سبب له رجّة مؤلمة بطريقة غريبة، خاصة عندما أكمل حديثه بتلك التبرة التي أجهزت على ما تبقى من تماسكه:

- «أنت زوجها الآن.. فلم يتوجب عليها أن تعمل؟.. لقد تعذبت كثيرًا كي

نصل لما نحن فيه، لتتعلم بشكل جيد، ونأكل، ونلبس أفضل مما تأكل هي وتلبس، هل لاحظت ملابسها يومًا؟.. هل قارنتها بملابسي أنا ورامي؟

تفضّل أن تحرم نفسها من كل شيء، كي نعيش حياة أفضل، وأعتقد أنه قد آن الأوان لتنال بعض الراحة التي تستحقها، أنا ورامي مستعدان أن نتكفل بوالدينا، ونعمل بدلاً منها لتنال قسطًا من الراحة التي تستحقها».

سأله رائف متأثرًا:

- «هل تحب أختك لهذه الدرجة؟».

هتف الصبي حانقًا:

- «ليست هذه الإجابة التي أنتظرها.. هل ستمنع کروان من العمل.. نعم أم لا؟».

رفع رائف رأسه يتأمل کروان بدموعها الصامتة التي تغسل وجهها، ثم تنهد وهو يضع يده على كتف رائد:

- «اسمعي يا رائد.. الوضع...».

دفع رائد يده عنه بعصبية صارخاً بغضب:

- «أنت لا فائدة منك.. حتى لو كان زواجكما مؤقتاً، كرجل لا بد أن تحمي زوجتك، لا أن تتركها تستمر في عملها الحقير هذا».

فوجئ رائف بالصبي يركض، ويتبعه توأمه يبكي على بكائه، وقد لَوّن الإحباط وجهيهما الصغيرين.

هزت والدتها رأسها بأسف:

- «سيد رائف.. أرجوك سامحه، لقد كبر الصبي قبل أوانه... لظالما كان حساساً منذ صغره ورفيقاً بالآخرين».

أوماً لها رائف باحترام، ثم التفت يحدج كروان بحدة:

- «هل أخبرتهم أن زواجنا مؤقت؟».

أجابته بصوت جامد كي لا يظهر الضعف الذي يخدر أطراف أعصابها:

- «لر أكذب عليهم من قبل.. ولن أبدأ الآن».

ضماقت عيناه بتساؤل:

- «ومن أين واثت تلك الفكرة العبقرية، أن زواجنا سيكون مؤقتاً؟».

رفعت كتفها بقلة اكتراث:

- «لر أظنك ستسمح لهذا الزواج الذي قفز على كتفيك بدون سابق إنذار أن

يستمر طويلاً، فأنا لست إلا شوكة في ظهرك، لا بد أن تسعى للخلاص منها

عاجلاً أو آجلاً، قبل أن تصل رائحة هذا الزواج لأنف أي صحفي فضولي،

فتكون الفضيحة الكبيرة للسياسي المعروف.. أتعرف أنا فعلاً متعجبة من...».

قاطعها صوت والدها الصّارم:

- «كروان.. هذا يكفي.. من فضلك اصطحبي زوجك لغرفته فهو يبدو متعباً.. وفي المستقبل أتمنى أن تحتفظي بمعاركك، ومشاحناتك الصّغيرة مع زوجك، بين جدران غرفتك، بعيداً عن أعيننا وآذاننا».

ضغطت على أسنانها بغيظ، وقد فاجأتها خيانة والديها في التخلي عنها، فأطبقت شفيتها ولم تفتحها حتى وصلت لغرفتها، يلحقها رائف.

استدارت لتكمل معركتها.. عندما أغلق الباب، وهنا كانت الصّدمة، والمفاجأة، عندما أخذت مشاعرهما، وأحاسيسها تتلاطم في دوامة محرقة من الانفعالات المتناقضة، وجدته أقرب إليها مما ظنت، لدرجة شعرت بأنفاسه الحارة تلهب وجهها.. مدت يدها تدفع اقترابه الوشيك بما تبقى من ذرات مقاومة، ولكن تبين أنها كانت أضعف من أن تعترض المد الجارف من تلك المشاعر التي تربط بينهما.

طوقتها ذراعاه بخشونة يبثها دقات من عاطفته الأسيرة لسنوات..

رفع رأسه يلتقط أنفاسه، فترنحت كالثملة بعد أن كانت تعتمد عليه للبقاء ثابتة.. أمسكها يقومها على جزعه... بدا وكأنها أفاقت فجأة بعد غيبوبة دامت لحظات، فرفعت ذراعيها لإبعاده:

- «أنت.. أنت...».

سألها بنبرة مشبعة بالتوق الجارف:

- «هل اشتقت لي؟.. لقد تذكرت كل شيء يا كروان.. كل ما يتعلق بك وبي، وبوالدي وما فعله».

وضعت يدها على فمها المتورم تخفيه بخجل:

- «هل كان العناق هو ما ذكرك؟».

رد بابتسامة حطمت ما تبقى من أسوارها التي ظلت لسنوات تبنيتها حول نفسها:

- «لا.. ولكنه كان هديتي لك.. لأنني تذكركت... في الواقع لم أكن قد نسيتك، كنت في مكان ما من عقلي... بصور وذكريات ما تلبث تطفو ثم تختفي...».
مدت أصابعها لتتخلل في شعره الكثيف:

- «لقد أخذت ضربة سيئة على رأسك من كلاب والدك».
أوماً بتفكير عميق:

- «نعم.. عندما استيقظت في ذلك اليوم كنت مشوش الذهن، وفاقده السيطرة على كل ما يحيط بي.. أقنعني أبي أنني كنت في رحلة مع خطيبي عندما أصبتُ بالحادثة... كان دائماً يساورني ذلك الإحساس بأن الأمور ليست كما تبدو.. ربما لو كنت رأيتك في ذلك الوقت، لانزاح جزء كبير من الغموض الذي يحوطني».

هتفت باتهام:

- «ولكنك رأيتني بالفعل.. عندما قدمني لك والدك بحجة أنني متسولة، جئتُ أحصل على إحسان... يومها نظرت بوجهي بكل برود، وأخرجت محفظتك لتعطيني مالاً».

سألها بوجوم:

- «كم كان قد مر على الحادثة؟».

تهربت من نظراته:

- «لا أتذكر... ربما شهران... أو ثلاثة».

بنبرة ساخطة:

- «هل صدقتِ فعلاً أنني خدعتك!!».

- «لر يتصور عقلي الصّغير في ذلك الوقت، أنك قد تكون فقدت ذاكرتك.. أو تكون قد نسيتني.. أنا فقط... على كل حال فلست إلا مجرد فتاة مراهقة مرت بحياتك كطيف، ولر تترك أيّ أثر».

رفع رأسها بلمسة من فكها لتنظر في عينيه:

- «لو كان هذا صحيحًا، لما ظلت صورتك تراود خيالي، واسمك يتردد صداه في عقلي.. ولر أكلف نفسي كل هذه المشقة، حتى وجدتك دون أن أعرف صلتي بك.. ولكنني عثرت على فتاة غاضبة، عصبية على الدوام، تكره وجودي معها».

- «هل تلومني؟».

- «لا ألومك، ولكنني فقط مندهش... لقد قبضتِ الثمن من أبي.. لر يكن المبلغ كافيًا ليطفئ لهيب غضبك».

تهربت من عينيه بارتباك:

- «أموال الدنيا كلها لا تداوي جراح قلب امرأة عشقت رجلاً حتى الجنون، وتركها لطواحين الأوهام تحصد في كل يوم من رغبتها في الحياة».

أطبقت أصابعه الفولاذية على كتفها بقسوة حتى أوشكت على الصّراخ وهو يدمدم من بين أسنانه:

- «عشقتني بهذا الجنون، لر لر تلقي بعرضه في وجهه؟.. لر بعيني وقبضتِ الثمن نقدًا».

اغرورقت عينها بالدموع ولم يكن من الألمر الناخر في كتفيها، وهي تتذكر محنتها وتلك الأموال التي تمنى لو تحرقها قبل أن تلمسها... تأوهت بدون صوت... «آه لو تعرف لِمَ أعطاني هذه الأموال!!».

ثم تماسكت وهي تسأله بحنجرة متورمة:

- «هل من عادة والدك أن يعطي مالاً لمن في مثل ظروفى؟».

- «ما الذي تهدين به؟ هل هو أخبرك أنني...».

أومات بضعف:

- «أخرج من جارور مكتبه درزينة من قسائم الزواج المزيفة، التي عقدتها على الفتيات أمثالي».

هتف ساخطاً:

- «وصدقتي؟».

«ربما لم أفعل فعلاً حتى رأيتك معها... تحيطها بذراعيك، تحتل مكاني على صدرك».

أشاحت بوجهها كي لا يرى مقدار ألمها:

- «لا بد أن أذهب لعملي».

وضع يديه في جيبى بنطاله يهز رأسه:

- «كوني عاقلة الآن يا كروان... أخواك لا يوافقان على هذا العمل... وأنا أيضاً.. بإمكانك أن...».

قاطعته بصرخة مستنكرة:

- «ماذا.. أعتد عليك؟... شكراً ولا... لا أستطيع... لقد تعلمت درساً قاسياً

في الماضي... وأهم ما فيه ألا أعتمد عليك أبداً، بالكاد الآن عقدت معاهدة سلام مع نفسي، بعد أن سلمت لك مقاليد أمري منذ عشر سنوات». باعداد بالغ بالنفس ابتعدت عنه، وغادرت الغرفة صافقة الباب خلفها. لم تكن ترغب بالمغادرة حقاً، فالعمل الذي ادعت أنها ذاهبة إليه أصبح غير موجود. بعد اختفاء ماهر جاءت زوجته، أغلقت المطعم، وأعطت كل الفتيات إجازة مفتوحة حتى إشعار آخر.. بالطبع لا يمكنها شرح كل هذه الأمور لرائف.. حتى لا يكتشف بطريقته في قراءة أفكارها دورها في اللعبة.. اتخذت طريق الكورنيش الممتد على البحر، وأطلقت لساقها مع أفكارها العنان.. فلم تشعر بالمسافة ولا بالوقت. كانت الشكوى المرة من قدميها اللتين تورمتا تصرخان بطلب بالراحة.. فاتخذت طريق العودة تتمنى لو أن ساعات المشي هذه بردت من لهيب أفكارها، لتمر المرحلة القادمة على خير.. كان الصمت هو اللغة الوحيدة المتداولة في المنزل، ساعة الحائط الأثرية تدق معلنة عن انتصاف الليل.

اتخذت طريقها لأعلى تكاد تشعر بمفاصلها تنن تحت وطأة ثقلها... مرت بطريقها كالمعتاد على غرفة الولدين ثم تسمرت مكانها متجمدة، وكل شعرة برأسها وقفت متأثرة بالمشهد غير المتوقع.



دخل وليد يجرح قدميه، وذراعه متهدلتان، برأس منكس، ولحية شائكة، كأنه لم يحلقها منذ شهر كامل... همّ والده لاستقباله بالسؤال الوحيد الذي بسببه تأخر لهذا الوقت كي لا يسمعه، لأنه ببساطة لا يملك إجابة:

- «وليد.. هل وجدتها يا بُني؟».

تجاوزه وليد للدخول، يتهالك على أحد مقاعد غرفة المعيشة، يخفي رأسه بين يديه، ولكن والده لم ييأس.. جلس جواره وسأله مرة أخرى:

- «وليد.. طمئني يا بُني.. أين ذهبت زوجتك؟.. لماذا لم تعد معك؟ هل هي بخير؟».

وكأنه قد تحول لعاجز، لا حول له ولا قوة، هذا الإحساس الغريب على رجل في مركزه... صرخ بصوت مبحوح ودموع جافة أبت التحرر من قسوة عينيه:

- «لا أعرف.. لا أعرف.. لا أعرف».

ارتكن عزت للخلف قائلاً باتهام:

- «عجباً.. ولماذا كل هذا الانهيار؟.. لم أتوقع أن تحزن على زوجتك لهذا الحد».

حدجه وليد بنظرة حادة:

- «لم تتوقع!!».

- «لا يا وليد.. لم أتوقع... معاملتك لزوجتك منذ أول يوم للزواج لم تنبئ عن اهتمام، أو أقل درجات الحب.. وجودها وعدم وجودها كان سيان بالنسبة لك، بالعكس الآن تستطيع إكمال حياتك كما تشاء، وتلاحق كروان أو غير كروان... أصبحت حرًا».

بصوت هادر تتمم وليد:

- «ربما.. ربما كنت سأفعل كل هذا وأكثر، لو كانت ذهبت وتركتني... كان حقها أن ترفض الحياة التي فرضتها عليها بأنانيتي، ولكن أن تختفي بهذا الشكل.. إحساس مقيت أن أشعر أنها بين يدي من لن يرحم دموعها وتوسلاتها، من

سينتهك براءتها، من يسبب لها الرعب.. بابا حين تخاف من الظلام، ماذا لو حبسها في مكان مظلم.. من سيمسك بيدها ليطمئنها».

- «هل كنت تفعل؟».

أغمض عينيه على دموعه التي أبت إلا العصيان أخيراً:

- «رغم معاملتي القاسية.. رغم أنّها كانت تنام كل ليلة ودموعها على خديها بسببي.. ولكن يدها كانت تزحف على الفراش تبحث عن يدي... وما إن تلمسني حتى تغلغل أصابعها بين أصابعي وتنام».

- «وماذا أيضاً؟».

أشرقت عيناه بوميض الذكريات:

« كانت تبتسم عندما تراني.. حتى وهي تعلم أنني أنوي تعذيبها مرة أخرى بذكري كروان، بمناسبة ودون مناسبة.. حتى وأنا أخطئ عن عمد باسمها.. كانت تخفي ألمها بتلك الابتسامة الملائكية الجميلة... آه يا إلهي... كيف يمكنني تعويضها عن كل ما سببته لها من آلام... كيف؟».

- «بعد فوات الأوان يا وليد... بعد فوات الأوان».

صرخ وليد منتفضاً:

- «لا تقل هذا أرجوك.. لا بد أن أجدها.. لا بد أن أعثر على هذا الحثالة الذي يحتجزها.. كان لا بد أن أقتله بنفسي».

- «ولماذا تقتله؟».

نظر وليد لوالده مصدوماً، وظهر على ملامحه الشعور الهائل بالذنب.. هز عزت برأسه بدموع تخللت تجاعيده العجوز:

- «ماذا فعلت يا وليد؟.. ماذا كنت تفعل بالأمانة التي تحملها؟.. هل فرطت في أمانتك؟ هل استغللت منصبك لأغراضك الشخصية؟ هل تسببت في أذية الناس يا وليد؟ انطق وأخبرني... هل فعلت ما يغضب الله؟».

فجأة أثلج قلب عزت عندما بدأت دموع الندم تنساب من عيني ابنه، فوضع يده على رأسه وضمها لصدره قائلاً:

- «الدموع ليست للضعفاء فقط يا وليد.. فهي لغسل الذنوب، والتطهر من الآثام.. طهر نفسك يا بُني.. وثبُّ إلى الله، وادعُه ليقبل توبتك».

همهم وليد بكلمات غير مفهومة من الانتحاب.. ثم بدأت حروفه تفسر من خلال دموعه:

- «أنا السَّبب فيما حصل لحنين.. أنا السَّبب.. حين تدفع ثمن أخطائي يا بابا، وهي لا ذنب لها».

- «ادعُ الله أن يحميها ويعيدها لنا بالسلامة، قم وتوضاً وصلِّ، ادعُه بخشوع.. هو وحده يجيب دعاء التائب الصادق في توبته».



كانت ما تزال تحاول التأكد من صحة ما ترى.. الفِراشان تجمعا في منتصف الغرفة ليصبحا واحداً.. ورائف يستلقي في المنتصف يحيطه الولدان من الجانبين، وعلى ما يبدو أن النعاس قد غلبهما فناما باطمئنان بين ذراعي والدهما، ارتفعت الغصّة لأعلى حنجرتها تمنعها من التنفس، انسحبت بهدوء قبل أن يشعروا بها.

دخلت غرفتها، أغلقت الباب ووقفت مستندة خلفه محدقة في السقف، تتنازعها رغبة إخباره بكل الحقيقة، والخوف من أن يعرف، وبالتالي سيعرف والده.

أغمضت عينيها بقوة تتجاهل الكفة الراجحة..

بالكاد استطاعت التّوم بضع ساعات عندما استيقظت فزعة على أصوات ضجيج مرتفع، ركزت أفكارها حتى أدركت أن الأصوات للولدين يتسابقان كعادتهما نزولاً على الدّرج... خرجت للشرفة تراقبهما من خلف ستائرها لتراه يلحق بهما على مهل، ثم جلس على كتيب رملي قريب يراقبهما بتأمل غريب. اعتصرت طرف الستارة بين أصابعها حتى كادت تتمزق.

انتبهت لدخول أمها الغرفة، ووقوفها خلفها لترى ما يجذب انتباه ابنتها.. ثم هزت رأسها بعتاب:

- «ألرّ يحنّ الأوان ليتعرف الأب على أولاده؟».

أشاحت بوجهها، وعادت تراقبهم وقد بدأوا لعبة كرة القدم، وقد انضم إليهم عبد الحميد وجابر.

استدارت لأمها في شبه انهيار:

- «يا ربي.. هل تظنين أنني فاقدة الإحساس لهذه الدّرجة، لماذا لا يفهمني أحد؟ أنا أجن من أن أخاطر وأعتمد على رائف، وقدرته على حمايتنا، أو الاتكال على ضمير جدّهم ليستيقظ فجأة من سباته، ولا يؤذيه فقط نكايّة بي.. ألا ترين أنني أتمزق هنا؟ رائف بحاجة لولديه ليعيدا له رغبته بالحياة، وهما بحاجة ماسة لوجود أب في حياتهما، خاصة في هذه المرحلة، ولكن ماذا عني أنا؟.. أنا أكثرهم جميعاً حاجة لولديّ على قيد الحياة.. هذه الفكرة بحد ذاتها نعمة، يجب أن أحافظ عليها.

ماما.. اتركيني الآن أرجوك.. لا بد أن أستعد للخروج.. سأبحث عن عمل».

- «هل تركت العمل بالمطعم؟».

- «لا.. لم أتركه.. المطعم مغلق هذه الفترة.. ماهر غير موجود.. مسافر».
 انتصف النهار وهي في بحث دءوب في طول بلطيم، وعرضها، عن عمل ذي مواصفات خاصة.. أهمها ألا يتسبب في خجل ولديها منها..
 أصدر حذاؤها صوتًا مستغيثًا فنظرت له متوسلة.. «لا أرجوك.. يمكنك الاحتمال.. أنا أعرفك... أنت شريكي المخلص».

بعد مرور ساعتين، كانت شبه يائسة، ونصف ميتة من التعب.. ثم انتعشت فجأة عندما وجدت نفسها أمام مدرسة الولدين، يبدو أنه موعد الانصراف فقد فتحت أبوابها الحديدية ليتدفق منها سيل من الأولاد والبنات.

أخذت تمعن النظر في الرؤوس المتساوية الطول تقريبًا، حتى وقعت عيناها عليهما.. كانا يتسامران بمرح مع أقرانها.. تسارعت دقات قلبها الفخور بهذين الشابين الصغيرين.. وتساءلت كم سيمر من وقت قبل أن يلاحظ رائف الشبه الكبير بينه وبينهما.. وأخذت تحسد نفسها على كونها أمًا لصبيين رائعين مثلها.

فجأة أثار انتباهها اقتراب أحد الأولاد الكبار من رائد.. وقال له شيئًا لم تسمعه لابتعادها عنهما، ولكن الولد رمقها بنظرة قدرة وهو يحدث رائد، ولم تدر كيف تطور الأمر بسرعة، فقد قفز رائد برشاقة ليمسك برأس الولد رغم فارق الحجم، وأخذ يكيل له اللكمات المتتالية حتى قبل أن يعرف الولد ما يحدث له، وبسرعة البرق تغيرت رياح المعركة ليسيطر الولد الكبير على مجريات الأمور، ويعيد لرائد لكماته بأقوى منها، بقبضته الشبيهة بالمطرقة.

اخترقت الجموع بصعوبة حتى وصلت للمتشاجرين وأخذت تحاول فض المنازعة بينهما، توقف رائد ينظر لها بنظرة غاضبة، ثم دفعها عنه بقسوة

بالغة ليقعها أرضاً وسط زهول الجميع، وصدمتها نفسها وهو يصرخ بنبرة لم تسمعها منه في حياتها:

- «أخبرتكَ ألف مرة ألا تدخل في فيما لا يعينك... ألا تفهمين؟».

عم صمت رهيب المكان ليندفع رامي نحوها صارخاً في أخيه بعبارات لم تسمعها، لم تسمع أي شيء، إلا ثغاء الباكي بعد أن مرت ببوابة الموت يوم ولادتهما، ثم أول مرة يضحك لها، وكان أجمل صوت سمعته في حياتها، ثم صوته وهو يئن من المغص، وهي تهرع للمشفى في منتصف الليل ودموعها تتسابق مع خفقاتها:

- «كروان.. كروان.. هل تسمعيني؟.. هل أنت بخير؟ كروان...».

- «رامي.. ما الذي يحدث؟.. ماذا بها كروان؟».

صوت رائف أعادها للحاضر، فبدأت بتجميع شتات نفسها... ولكن ليس بالسرعة الكافية، رآته يركع أمامها يحاول الإمساك بيديها:

- «كروان.. هل أنت بخير؟».

لم تنظر إليه، فقد انصب اهتمامها على رائد الذي فر هارباً عندما رأى رائف معها.

أمسكت بيد رائف يساعدها على النهوض، ثم نادى رامي بصوت مبحوح ولكن أمر:

- «الحق بأخيك.. وعُد به للبيت».

اعترض رامي قلقاً عليها:

- «ولكن...».

أوماً له رائف:

- «اذهب لأخيك، وأنا سأعتني بكروان».

استغرب رائف عندما لَوَّح له رامي بتهديد: -«سأعتبر هذا وعدًا منك».

وبدون رغبة حقيقية لمفارقتها وهي في هذه الحالة، أسرع رامي في إثر أخيه:

- «هل ستتمكنين من المشي، أم أحملك».

حدجته باستنكار:

- «سأسير وحدي».

وهمت بتركه عندما أمسك بذراعهما:

- «لا أعتقد أنك زدت كيلو واحدًا عما كنتِ يوم زواجنا، بعد نظرة تقييمية

أعتقد أنك أصبحتِ بوزن العصفورة، ولن تشكلي بالنسبة لي أي مشكلة».

كزت على أسنانها:

- «لن تحملني يا رائف.. أغلقت القضية».

غمغم وهو يدفع بذراعه نحوها:

- «تأبطي ذراعي إذن، أعتقد أن إصابتك أكبر من أن تعترفي بهذا الكبرياء

الذي تملكينه».

- «هو ما أبقاني صامدة لسنوات».

عضت شفثيها عندما بدأت بالحركة.. وجدته يقدم ذراعه مرة أخرى فلم تجد

حلاً إلا أن تمسك بها.

رَبَّتَ على يدها بحنان، وبدأ يسير بتمهل معها للسيارة.

قربه الشَّدِيد منها الآن بالذات، وهي في قمة معاناتها من إحدى حالات

الضعف.. فتح الباب يدعوها للدخول، لاستغرابه شدت على ذراعه ترفض التخلي عنه.. أمسك بوجهها يرفعه نحوه:

- «كروانتي.. هل أنت بخير؟».

اغرورقت عيناها بالدموع وهو يدعوها بلفظ التحبب الذي لم تسمعه منه منذ سنوات طويلة.. همست بصوت متحشرج ضعيف:

- «رائف.. ضمّني إليك.. بقوة».

كان بانتظار لحظة تأخرت دهرًا، ليحتويها بين ذراعيه، يضم جسدها المرتجف بقوة، رغم إدراكها لخطورة هذا الاقتراب.. لكنها لم تأبه، في تلك اللحظة كانت بأمر الحاجة لأن تستكين لضعفها، ولا تقاومه بادعاء القوة والشجاعة.. انحنى يحملها برفق.. ويضعها على المقعد الأمامي، مسح دموعها بأصابعه الكبيرة الدافئة متممًا بتأثر:

- «لا تبكي يا كروانتي.. رائد ولد طيب.. سيأتي ويعتذر لك.. أنا واثق أنه سيراجع نفسه».

- «لا يا رائف.. أنا لست غاضبة من رائد.. غضبي من نفسي.. رغم أنني حاولت جهدي ولم أقصر لأكون لهما الأم... قبل الأخت... لأوفر لهما حياة كريمة.. ولكنني كنت دائمًا مصدر عار لهما».

قرب وجهه منها ليهمس لها بكلماته الهادئة الجميلة:

- «أنتِ واهمة.. هذان الشقيان يعشقان الثرى من تحت قدميك.. أنتِ عملت كل جهدك من أجلهما.. وإن كان هناك خطأ فهو مني أنا... أنا الذي خذلتها بعد أن لجأ لي لأقنحك بالتخلي عن عملك هذا».

- «لم يكن لديك أي خيار.. أنا أصررت على رأيي».

هتف بحدة:

- «بلى يا كروان.. كان أمامي ألا أستسلم لغضبك وتعنتك اللامبرر... كان بإمكانى أن أحبسك في غرفتك، حتى تثوبى إلى رشدك».

هتفت بوهن:

- «أتحداك أن تفعل».

ضبح ضاحكاً.. ثم مد أصابعه يبعد خصلاتها المريدة عن عينيها:

- «طالما أنك ألقيت قفاز التحدي بوجهي.. فلم تتركي لي أي خيار... سأقبل التحدي يا... مدام كروان».

ثم أغلق الباب جوارها، واستدار ليجلس في مقعده، ألقى عليها نظرة جانبية قبل أن ينطلق بسيارته.. أشاحت بوجهها بعيداً عنه تتأمل المناظر التي تحفظها عن ظهر قلب، تتمنى بكل صدق أن تمر لحظات الضعف هذه بسرعة قبل أن تُلقى بنفسها في أحضانه مرة أخرى.. والمرّة القادمة لن تكتفي بضمه لها... وستعترف له بكل شيء.. وبحبها الأبدي في فورة الاعترافات.

أفاقت على لكزات على ذراعها، فهبت في مكانها تحدق حولها بفرع وتصيح:

- «أين الولدان.. هل عادا؟.. أين هما؟».

رَبَّتَ على ذراعها بحنان:

- «اهدئي يا كروان.. لا شك أنهما في طريق العودة الآن».

لرّ تشعر بخروجه من السيارة حتى فتح الباب بجوارها، هم بحملها فاعترضت بقوة:

- «لا.. رائف أنا قادرة على المشي كما...».

وأكملت باقي اعتراضاتها وهي تطير بين ذراعيه لتستقر على صدره:
- « كما أنّك ما زلت... ضعيفًا ».

تأمل ملامحها الشّاحبة عن قرب هامسًا:

- « كنت أعلم أنّك خفيفة.. لمرّ تزيدي جرامًا واحدًا عن... ».

استسلمت تلف ذراعيها حول عنقه وتهبط برأسها على كتفه تنسم رائحته التي اشتاقت لها بقوة... حمدت الله أنّها لم يلتقيا بأيّ من والديها في الطّريق لغرفتها... لم يتركها إلا على فراشها... ثم غاب لدقائق وعاد إليها:

- « كروان.. لقد ملأت المغطس بالماء الدّافئ... سيكون علاجًا ناجعًا لكدماتك ».

تمتت وهي تتحرك نحو الحّمّام قبل أن يقرر حملها مرة أخرى:

- « شكرًا لك ».

ناداها قبل أن تغلق باب الحّمّام:

- « اسمحي لي بمساعدتك.. أنت ضعيفة أكثر مما تحاولين إيهامي ».

تمتت بألم:

- « هل ترغب في أن تخلع عني ملابسني كما كنت تفعل يا رائف... في الأيام الخوالي ».

رد بصوت خشن متوتر:

- « هل كثير عليّ أن أستعيد ولو بعضًا من اللحظات الحلوة التي جمعتنا؟ ».

نشجت بعذاب:

- « لا يا رائف.. ليس كثيرًا عليك.. ولكن أكثر بكثير من قدرتي على

الاحتمال... عشر سنوات من الفراق... أحلم في كل ليلة بك جوارى، تضميني إليك وتدللني، تعني بي كما كنت تفعل... يا إلهي... كنت مفتونة بك... لم أنسك بسهولة أبدًا... عوّدت نفسي على عدم وجودك... كان أيسر لي لأعيش حياة طبيعية».

- «لماذا لم تتزوجي؟».

قفزت شبح ابتسامة على شفيتها المتعبتين ووجهها المغبر:

- «رامي، ورائد... لم يكونا من أهم عوامل جذب أيّ رجل يرغب بأسرته الخاصة».

وفجأة سأها السؤال الذي كانت تخافه:

- «لقد تذكرت أنك أخبرتني أن والديك أنجباك في سن متأخرة.. فكيف أنجبا التوأم؟... أعتقد أن عمر والدتك عندما أنجبتة تجاوز الستين».

امتقع وجهها شحوباً وهي ترد بتوتر:

- «ماذا نستطيع أن نقول، غير أنها معجزة.. عن إذنك... لا بد أن اغتسل قبل أن أنام واقفة».

دخلت بسرعة لثمنعه من طرح المزيد من الأسئلة.. ازداد شعورها بالاختناق، والدائرة تضيق حولها في سرعة رهيبية.. ما تلبث الأسرار أن تنكشف قبل أن تستعد، ولم تعلم كم كان إحساسها في محله، وندمت فيما بعد لعدم استغلالها الفرصة.

أطالت البقاء في مياه المغطس المنعشة التي كانت خير دواء لكدماتها الكثيرة. في يومين فقط حصلت على كدمات لم تحصل عليها في حياتها كلها... فجأة بدأت تسمع أصواتاً مرتفعة وجلبة بالخارج.. ظنت أن قلبها توقف عن



الخفقان، وكأنه بانتظار حدث رهيب على وشك أن يحصل... تجمدت مكانها وعيناها مثبتتان على الباب.. ولم تفاجأ كثيراً عندما دخل رائف.. لم تسأله ولم تغضب منه لاقتحامه الحمّام عليها.. وبنبرة خالية من معالم الحياة بادرت بسؤاله:

- «رائد.. ما الذي حدث لرائد؟».



10

أمسك رائف المنشفة وساعدها لتقف، يلقها بسهولة حولها، ثم رفع وجهها إليه:
- «كوني قوية كما عهدتك دائماً.. رائد سيكون بخير.. سترتدين ملابسك،
وسنلحق به فوراً.. لقد.. لقد صدمته سيارة».

ترنحت فأمسكها قبل أن تنهار.. ضمها بقوة ليطمئننها أنه موجود من أجلها..
أبعدها، وهو ينظر في عينيها فهمست برجاء:
- «لا تتركنا يا رائف.. أرجوك... ابق معنا».

قبل يديها بحنان:

«لن أترككم أبداً... هيا والداك سبقانا».

تشجعت رغم قلبها النازف بحزن كئيب، ولكن قربه منها، ونظرته الرؤوم
نحوها ليطمئن عليها في كل لحظة خففا من بعض معاناتها.

فليس عليها أن تفكر في كل الأمور دفعة واحدة كما اعتادت أن تفعل دائماً..
ستركز فقط على حزنها ودعائها لصغيرها أن يكون بخير، ورائف سيتولى
باقي كل شيء.

كان رامى بانتظارهم أمام المشفى شاحباً، متسخاً باكياً.. هرعت نحوه تضمه
بقوة تسأله بلهفة:

- « كيف حال أخيك... هو بخير... أليس كذلك؟ ».

نشج بالبكاء:

- « لست أدري يا كروان... تلك السيارة صدمته ولم تتوقف، كنت خلفه أحاول اللحاق به... كل شيء تم في سرعة... أخذوه مني، ولم أعرف ما الذي حل به... والدانا بالداخل، ولكنني لم أشأ الدخول قبل أن تكوني معي... كروان.. أنا خائف ».

ضمته كروان بقوة.. ثم فوجئت بذراعي رائف تضمهما معًا:

- « هيا بنا لنحصل على الأخبار الجديدة... وسيكون بخير.. اطمئنا ».

أومأت كروان بأمل لرامي:

- « هل سمعت؟.. هيا سيكون كل شيء على ما يرام ».

وجدت والديها في استراحة أقارب المرضى... أخبرهم والدها أن رائد ما يزال بالعمليات، ولم يخرج أحد ليطمئنهم... فقط طلبوا منهم الانتظار.

وكان الانتظار حالة من الحالات التي يرغب فيها المرء لو يفقد وعيه، ثم يعود بعد أن تنتهي تلك الدهور المملة من الترقب، بين تلال من الأفكار التي تزداد قتامة، كلما طال الوقت بدون أي جديد.

وأخيرًا أوشكت تلك المرحلة على الانتهاء، عندما اقتحم المكان ذلك الطبيب ضئيل الحجم بعويناته الذهبية، يتطلع في وجوههم المترقبة بفضول:

- « أين والدا الطفل رائد؟ ».

السؤال لا يحتاج لكل هذا الوقت لتحضير الإجابة.. ورغم ذلك تطلع الأربعة لبعضهم البعض... زوجان من هذه النظرات كانت من والديها، وكأنهما يخبرانها أنه قد آن الأوان لتكشف السر.. وعندما أطرقت رأسها تقدم والدها بزفرة غاضبة:

- «نعم سيدي الطَّيب.. أنا والد... رائد.. هل الصَّبي بخير؟».
- «سيكون بخير.. ولكنه بحاجة ماسة لنقل دم، وفصيلة دمه نادرة، وغير موجودة حالياً... لقد أرسلنا لإحضارها... ولكننا في صراع مع الوقت، لا بد أن أحد والديه يحمل نفس الفصيلة.
- المرضة بانتظاركم لأخذ عينات من الدَّم لنعرف من يملك الفصيلة الملائمة».
- صاحت كروان ملتاعة:
- «أنا.. أنا أخته... يمكنكم فحص عينة من دمي».
- أوماً الطَّيب:
- «لا بأس.. سنوسع خياراتنا لعلنا نحصل على الفصيلة النادرة».
- هَبَّ رائف:
- «وأنا فصيلة دمي نادرة.. ألا يمكن أن يتصادف وتكون نفس فصيلة دم رائد».
- سأله الطَّيب:
- «هل تربطك بالولد صلة دم؟».
- «لا».
- «إذن لا داعي لتتعب نفسك، لا يمكن أن تتوافق فصيلتك معه».
- تجاهلت كروان نظرات والديها أثناء سحب الممرضة لعينات الدَّم... أطرقت تتوسل بصمت أن ينتهي اليوم على خير.
- بعد نصف ساعة عاد الطَّيب... وكان دوره ليجيل النُّظر فيمن حوله باندهاش تقريباً... ثم نظر للتقرير الذي يحمله وعاد يحدق في الوجوه المترقبة:

«لا يمكن أن تكون هذه النتائج صحيحة... لا الوالد ولا الوالدة يحملان فصيلة دم الولد... بل من المستحيل من الناحية العلمية أن ينجبا هذا الصّبي بفصيلة دمه النّادرة... هل بإمكان أحد أن يخبرني.. ما الذي يحدث هنا؟».

هنا خرج والدها عن هدوئه:

- «كروان.. ما الذي تنتظرينه بعد الآن، إن لم تتكلمي أنت سأتكلم أنا... هذه حياة رائد التي نقف عاجزين أمام إنقاذها بكلمة منك».

كان رائف يراقب ما يحدث غير قادر على استيعاب ما يحصل أمامه... ولكن منظر كروان الشّاحب، وتهديدات والدها، ونظراتهم المستترة إليه جعلته شبه متأكد، أنه بشكل ما جزء من هذا اللغز العجيب.

رفعت كروان رأسها أخيراً، بعد أن استحكمت الحلقات حول خناقها.. ولم تنظر إلا للطبيب قائلة بنبرة ثلجية:

- «السيد رائف هنا.. وأنا متأكدة أن... أن فصيلة دمه ستتوافق مع... مع فصيلة دم رائد».

خُيّل لرائف أنها مجنونة فعلاً.. وربما تحاول يائسة إنقاذ أخيها.. أو ربما تكسب وقتاً، وإلا فإن معنى كلامها شيء واحد فقط... أهداها نظرة شك نارية، وتقدم للممرضة صامتاً لتأخذ عيّنة من دمه.

وعندما انتهت انزوى في أقصى مكان بغرفة الانتظار في الزاوية المقابلة حيث انزوى رامى هو الآخر متخذاً نفس الوضعية دون أن يدركا كم تشابها في تلك اللحظة.

تجاهلت كروان نظرات والديها المشفقة، وأخذت تراقب بلهفة عودة

الطبيب.. كانت أول من لاحظ رامي ورائف ووضعياتهما المتشابهة.. حتى نظرات الضياع التي تتوشح بها عيونهما.. تأوهت بألم تناديه:

- «رامي حبيبي...».

رفع رائف رأسه يحدق بالصّبي، وكأنه نسي وجوده.. كان حائرًا بدوره... هل يسعى للصّبي المشوش ليطمئنّه؟.. ولكن كيف يعطيه ما لا يملكه لنفسه؟

عاد الطبيب مرتاح الأسارير هذه المرة.. انكملت في مكانها تغطي وجهها يديها مكتفية بسماع صوته المجهد يعلن للجميع:

- «لقد وصلت النتائج المبشرة هذه المرة.. سيد رائف تبدو مرشحًا مثاليًا للتبرع بالدم».

أدركت من الارتباك الواضح في نبرته وتنهيدة الارتياح التي قفزت من بين أضلاعه، وكأنه يجتاز اختبارًا صعبًا، لا بد أنه مرّن نفسه كثيرًا لهذا الإعلان بكل هذا التهذيب الممكن، وكأنه يدرك دقة الوضع.

ثم جاء إعلان رائف، والذي بدا هو الآخر وكأنه إعلان تحدّ:

- «أنا جاهز في أي وقت تشاء لإنقاذ حياة... ابني رائد».

رفع رأسه ليلمح أيّ اعتراض، ثم أخرج أنفاسه ببطء عندما مر الإعلان بسلام.. مر بنظرات باردة على تلك المتفوقة في الزاوية، ثم توجه لرامي يمسك رأسه بين يديه يتأمله بحب عميق، وكأنه أدرك أخيرًا سر تلك العاطفة القوية التي يكنها لهذين الصّبيين... وليرَ لا.. وهما ابناه، من لحمه ودمه:

- «رامي.. أريدك أن تكون شجاعًا... بيننا كلام كثير لا بد أن يقال... إياك أن تتهم كروان بأيّ شيء قبل أن نجلس كلنا كعائلة واحدة، ونعرف كل شيء.. الأهم الآن رائد.. هو بحاجة لوجودنا معه.. هل أنت معي؟».

- أوماً رامي.. فاستقام رائف وتبع الممرضة التي كانت بانتظاره.
 عاد بعد نصف ساعة يترنح، والممرضة تسانده.. هبت إليه كروان بجزع:
 - «يا إلهي... إنك شاحب».
- ساعدته على الجلوس ثم نظرت للممرضة بتساؤل فأجابت:
 - «الطبيب سيخبرك بكل شيء.. ها هو...».
- دخل الطبيب يعدل من نظاراته:
 - «للأسف لم يخبرنا السيد رائف أنه ما يزال في فترة نقاهة بعد الحادث.. لقد أخفيت عنا هذا الأمر متعمداً».
- أجاب بصوت متهدج:
 - «أنت قلت إننا لا نملك الاختيار البديل... حياة ابني على المحك».
- هتفت كروان بالفكرة المرعبة التي هبطت على رأسها فجأة:
 - «ولكن كيف أمكنك أن تتبرع وأنت...».
- أوقف ما كانت ستتلفظ به بنظرة نارية... فابتلعت باقي كلامها، وتراجعت
 بينما هتفت والدتها:
 «حمداً لله... حمداً لله... شكراً لك.. شكراً لكم جميعاً».
- «نحن نقوم بواجبنا فقط.. وبالنسبة للسيد رائف.. لا بد أن تستريح الآن
 لقد قدمت كل ما تستطيع، ورائد سيكون بخير بإذن الله».
- هتفت كروان بلهفة:
 - «متى سيمكننا رؤيته؟».
- «في الوقت الحالي مستحيل، هو في العناية المشددة ولا يمكن دخول أي أحد
 إليه، الممرضة ستطمئنكم عليه، لا تقلقوا».

حاجز سميك من الصّمت الرّهب التف حولهم، أشاحت بوجهها بعيداً عن سهام اتهاماته، صوته اخترق الصّمت بسؤال سبّب لها طوال السّنوات العشر كوايبس:

- «رامي.. ورائد؟».

أذعنت أخيراً تتمتم، وقد عرفت ما يرغب بسماعه:

- «رامي... ورائد... أولادك.. أولادنا».

تنهد مستسلماً لراحة تخمره، وكأنه لمر يتذوقها لسنوات طويلاً..

سألته بارتباك:

- «لا بد أن تعود للبيت لترتاح... وأنا سأبقى هنا حتى أطمئن على... ابني».

كادت عبراتها أن تخونها، فهذه المرة الأولى التي تصرح بهذه الكلمة بصوت مرتفع، بدون خوف، بدون أن تخشى أن يسمعها أيّ أحد، وتمتت تتذوق الكلمة من بين شفيتها مراراً حتى قاطع أفكارها:

- «سنعود كلنا.. لقد رأيت رائد... وهو بخير... سنعود مرة أخرى في الصّباح».

- «ولكن...».

قاطعها بحدة:

- «هذا أمر وليس مجالاً للمناقشة... أين والداك؟».

- «تعبا من الجلوس والانتظار؛ فأرغمتهما على الذهاب».

سأل بلهفة:

- «ورامي.. أين هو؟».

خرج رامى من مخبئه برأس مطرق، وكأنه ضائع في دوامة الأحداث الجديدة بدون توأمه:

- «أنا هنا.. كيف حالك؟».

- «أنا بخير.. وأنت.. كيف هي كتفك؟.. هل تستطيع احتمالي لأستند عليها حتى نصل للسيارة... أشرق رامى شاداً قامته لتبدو أكثر ارتفاعاً:

- «بإمكانك الاعتماد عليّ دائماً».

نظر لكروان، ثم ألقى لها بمفاتيح السيارة:

- «أنت ستقودين، هل ما زلتِ تتذكرين تعليماتي عندما قمتُ بتعليمك».

حاولت الاعتراض:

- «رائف.. أنا لن أستطيع ترك رائد.. أرجوك لا تجبرني».

احتدت عيناه:

- «سأفعل كل شيء، وأي شيء يجلو لي لأحصل على إجابات على كل الأسئلة التي تدور برأسي.. الليلة».

ثم نظر لرامى برقة أكبر وأردف:

- «هيا بنا».

سأله رامى وهما بطريقهما لمغادرة المشفى:

- «هل أنت حقاً والدنا؟».

ضم جسده التحيل قائلاً:

- «سأخبرك بكل شيء في حينه يا رامى.. وكن واثقاً أن كل الأمور ستبدل من

اليوم...».

كانت بانتظارهما خلف المقود تدق عليه بأنامل متوترة.

فتح رائف الباب الخلفي وأخذ رامي إلى جواره، تأملتهما من المرآة الأمامية يضطجعان مستمتعين بالدفء بين أحضان بعضهما... لحظات وكانت أصوات أنفاسهما تنتظم ليغيبا عن الوجود في نعاس عميق.

كان إيقاظهما غاية في الصعوبة، ولكنها في النهاية تمكنت عندما أفاق رائف ليساعدها في نقل رامي إلى غرفته.. ثم استسلم لها تسانده حتى غرفتهما، تأملته برعب وقد بدا فراشها الكبير صغيراً باحتلاله جزءاً كبيراً منه.. ساعدته دون أن يشعر على خلع حذائه... لم تدّر ما حدث، ولكنها وجدت نفسها تنزلق لتنام بجواره.. وكأن هذا هو التصرف الطبيعي الوحيد، المفروض حدوثه.

استيقظت في الصباح لا تصدق أنها نامت دون أن تشعر، لتجد نفسها وحيدة في فراشها الكبير، وآثار رأسه ما تزال مطبوعة على الوسادة المجاورة.

نهضت تتحسس خطاها وتحاول الاستماع لصوته.. لم يكن في الحمام... استمرت بالبحث... كان الوقت مبكراً جداً على استيقاظ والديها، ولكن رامي لم يكن في فراشه.

وصلتها أصوات ضحكاتها من المطبخ... تسللت على أطراف أصابعها، لتجد الولد وأباه غارقين في نوبات من الضحك أثناء تناولهما طعام الإفطار، تعثرت في السجادة البالية وهي تتقدم دون أن تزعجها، ولكن ارتطم رأسها بالباب لينتبه لوجود المتطفلة على خلوتها.

انكسرت ابتسامة رامي وهو يتطلع لها بمزيج من الألم والذنب، فأسرعت لتضمه لصدرها:

- «أرجوك ساحني.. ليس عليك أن تشعر بالذنب.. رائف هو والدك.. لم

يتخلّ عنكما أو عني بإرادته.. أنا مدينة لكما بتفسيرات كثيرة.. ولكن رائد له الحق بأن يعرف أيضًا، سننتظر خروجه.. اتفقنا؟».

أوماً رامي برأسه موافقًا، فضمته مرة أخرى تلقي بنظرة من فوقه لرائف:
- «تبدو أقرب للبشرية اليوم».

- «لقد أنقذني ملاكي من الجوع.. أعدّ لي إفطارًا ملكيًا».

أشاحت بوجهها لتتجاهل نظراته المتهمة:

- «سأتصل بالمشفى لأسأل عن حال رائد».

أوقفها رامي:

- «لا داعي.. اتصل بهم السّ... أعني.. بابا رائف».

حدج الصّبي والده بتردد، فأوماً له رائف بتشجيع ليكمل بثقة أكبر:

- «بابا رائف... اتصل بهم وأخبروه أن رائد أصبح بخير... وأنا سأصعد لأخبر

والدي بالأخبار الجيدة... أعني (جدّاي)... لا أعرف ما أقول!!».

طمأنه رائف:

- «قل ما تشاء، لا أبالي طالما أنا وأنت نعرف الحقيقة.. اذهب وأخبرهما،

واتركني مع كروان لبعض الوقت».

تردد رامي بطريقه للباب ثم استدار:

- «أنت لن تؤذيها.. أليس كذلك؟».

- «كلا يا بُني.. لقد تأدّت بما يكفي لبقية عمرها.. أنا فقط سأستوضح بعض

الأمور.. وبإمكانك ترك الباب مفتوحًا لتطمئن.. إن لم تثق بكلمتي».

أوماً رامي:

- «ثقتي بك بلا حدود».

أغمضت عينيها استعدادًا للحظة الحاسمة، والتي تمت لسذاجتها ألا تأتي أبدًا.

بنبرة مختلفة تمامًا عن النبرة اللطيفة التي كان يحدث بها رامي منذ قليل:

- «اجلسي يا كروان.. أنت تبدين كاهرة المبتلة».

عقدت ذراعيها على صدرها متخذة وضع الهجوم فهو أفضل وسيلة للدفاع:

- «ماذا تريد مني يا رائف؟.. هل ستعقد المحكمة لمحاكمتي الآن؟، هل

ستعين نفسك القاضي، والجلاد، والشهود؟، وما تهمتي؟

أخفيت عنك أولادك... لقد أخفيتهم عن نفسي.. ألم تلاحظ؟.. ألم تتساءل

ولو مرة لماذا كل هذه التمثيلية... وما حاجتي إليها؟... لقد تركت بيتي وأهلي

وانقطعت عن العالم عندما انتقلنا إلى بلطيم... بكل بساطة كان يمكنني أن

أبقى كأهم أمام الناس، فلا أحد هنا يعرف أصلي وفصلي... أي تفسير لعدم

وجود الأب سيكون مقنعًا... ألم تتساءل؟».

سألها باهتمام:

- «بلى... تساءلت، ولم أصل لإجابة منطقية... أتوقع أن أجدها لديك».

ملأت صدرها بدفقة كبيرة من الهواء لتهدئ من ثورة مشاعرها:

- «إنه السبب نفسه الذي دفعني لقبول المال من والدك!!».

صرخ بدون تصديق:

- «هل كان والدي يعلم؟!».

كانت إجابتها ضحكة ساخرة مريرة:

- «بالطبع كان يعلم.. الشيء الوحيد الذي عملت جيدًا لأخفيه... أنني لم أستعمل المال للتخلص من حملي، كما كان اتفاقي معه».

بعد تصديق تتم بصوت كالصدى:

- «والدي؟.. والدي دفع لك لتتخلصي من... هل وصل به الشر ليقتل لحمه ودمه... أولادي؟».

ثم تابع بصوت باهت لاهث بعد لحظات أخرى من عدم التصديق:

- «وأنت كيف تُبرمين مثل هذا الاتفاق الوحشي؟».

رفعت أحد حاجبيها:

- «كانت تهديداته لا تقبل التفاوض؛ لذلك أرغمت على التخلي عن أمومتي، والاكْتفاء بأن أكون الأخت الكبيرة لأضمن لهما البقاء أحياء.. ولكن يبدو أنني لم أدفع ما يتوجب عليّ من عذاب، فكان عليّ تكبّد المزيد بظهورك من جديد، واحتمال رؤيتك تتعذب أمامي كل يوم بفقدك لابنتك دون أن أستطيع انتشالك من بؤسك، وإسعادك بكلمة واحدة مني.. وكان عليّ احتمال رؤيتها يتعذبان كل يوم، لافتقادهما وجود الأب الحامي في حياتهما.. ورغم عذابي وعذابهما كانا أحياء.. وهذا بالنسبة لي كفاية لأحتمل الجحيم».

- «كان عليك أن تثقي بي لأحميك، وأولادي».

- «كنت لا تتذكرني يا رائف.. وبالكاد منذ يومين بدأت تتذكر... وبالكاد بدأت أعرفك من جديد... مثل هذه الثقة بحاجة لوقت طويل... كما أنك لم تستطع حماية ابنتك فكيف...».

شعرت أنها تجاوزت كل حدودها من نظراته المكمودة التي غامت بها عيناه... ولكنها لم تبال، وأردفت:

- « كيف ستحمي أولادي من مثل هذا المصير... هذا أكثر ما يرعبني... ».

بصوت حازم:

- « سأحميهم يا کروان... ثق بي... لن أعود لثلك الحياة مرة أخرى... لن أعود إليها... لقد ضاعت أثناء رحلتي فيها أشياء كثيرة، لا يمكن تعويضها وكان الله كريماً معي بهديته لي... رامي، ورائد، ولن أكون غيباً بإهمال حمايتها... لو كنت خرجت بدرس من تجربتي في عالم السياسة، فهو أنني سأكون وحشاً بين عالم من الذئاب، لو تطلب الأمر فقط لأحمي ما هو لي... ».

هزت رأسها بحيرة:

- « لا أعرف... جرحني كثيراً، لا أستطيع الإيمان بك مرة أخرى ».

أمسكها من كتفها يهزها دون قسوة:

- « عليك أن تثقي بي... ليس أمامك خيار آخر.. وأنا سأحمي أولادي بكل ما أملك من حيل، ستبهر والدي بنفسه عندما يعرفها ».

شهقت:

- « هل ستخبره؟ ».

- « بالطبع سأخبره... لا بد أن يعرف أنه أصبح جداً لأجمل صبيين في العالم ».

أمسكت بيده متوسلة:

- « لا... رائف.. أتوسل إليك ».

- « صدقيني يا کروان... الاختباء ليس هو الحل... بل المواجهة... عندما نقف أمام العالم كله، ونعلن أننا أسرة واحدة، لن يجرؤ أحد على المساس بكم... ولا تنسي الأوراق التي أهدده بها... ما أعلنت عنه وما يختبئ في جعبي... ».

وصدقيني ما فيها سيجعل ثروت يزن يتمنى الموت قبل أن ينظر لأولادي بنظرة شر... اطمئني حبيبتي... وثقي أنني سأعوضك».

كانت ترتعش وهي تومئ برأسها بخوف وتردد، ترغب بوضع كل حياتها بين يديه... ولكن حياة ولديها بعيداً عن أيّ مغامرة... ولكنها اضطرت للموافقة وهو يدعوها لتثق به بكل لغة في جسده.

لاحظ ترددها فسألها:

- «أما زال يساورك الشك بشأني؟».

- «لا... ليس هذا الموضوع، ولكن... رائف.. لا بد أن تحصل على مساعدة لتتخطى إدمانك، وأنا سأقف بجوارك لن أترك... رائف لماذا تضحك بهذا الشكل؟».

أجابها من خلال قهقهاته:

- «أخشى أن أزف إليك سري الصغير... لقد أقلت عن الإدمان منذ فترة كبيرة».

ارتفعت حواجبها بدهشة:

- «ولكن.. كيف ومتى؟».

- «بعد الحادث تم علاجي... لقد ظللت في غيبوبة لفترة طويلة، كانت كافية لأقلع عن إدمان...».

- «ولكنك ما زلت تحتفظ بتلك الأدوية».

- «نعم أفعل... لأثبت لنفسي في كل مرة كم كنت مخطئاً بحق إنسانيتي، التي أهدرتها بيدي وبضعفي».

- «ولكنك تركتني أعتقد أنك مدمن... كيف أمكنك أن تستغفني بهذا الشكل؟».

- «كان عندك الاستعداد لتصديق الأسوأ، ولم أمانع وقتها، لم يكن لدي ما أخسره».

- «أنا سعيدة لأنك لم تخذلني... شكراً لك».



بعد مرور شهرين..

- «كروان... كروانتي».

لحقت به في الردهة بعد أن أغلقت باب غرفتها:

- «ماذا بك؟.. صوتك مرتفع... الأولاد سيسمعوننا».

تأملها بعينين يكاد العشق ينطق من نظراتها... فقد كانت مشرقة بثوبها الأصفر الطويل المحتشم، وقد غطت رأسها بحجاب أنيق، بلونه الأبيض المشرب بالأصفر... احمرت وجنتاها وأسبلت رموشها الطويلة بخجل عندما أطل النظر:

- «رائف.. كف عن التحديق بي».

- «عفوًا وكيف أفعل، وأنا أرى كل هذا الجمال الرباني... تبدين ملاكًا بالحجاب... أنا سعيد بقرارك».

- «وأنا أيضًا سعيدة أن حياتنا ستبدأ في طاعة الله».

أمسك بيديها يقبلها فهتفت بحياء:

- «رائف.. سيرانا الأولاد».

- «وما المشكلة؟.. أرغب أن يعلما أنني أذوب عشقًا في أمهما الخجولة، الجميلة، اللذيذة».

أفلتت من عناقه الوشيك:

- «رائف.. ستفسد حجابي... لست أدري حتى الآن لِمَ كل هذه الملابس الرّسميّة... ليس عيد ميلادك، ولا عيد ميلاد الولدين، ولا عيد ميلادي، ولكنك ملأت الفيلا بكل هذه الزّينة، والأنوار، والإعدادات على قدم وساق منذ الصّباح... منذ انتقالنا للفيلا بعد أن أثنتها رفضت أن تحتفل.. وأجّلت الاحتفال حتى الآن دون أن تفصح عن الأسباب.. متى ستروي فضولي؟».

- «أولاً، احتفالي بكِ وبأولادي ليس بحاجة لأيّ أسباب، ثانيًا... الأسباب موجودة، ولكنني سأرجئ الإعلان عنها للحظة المناسبة، هل تثقين بي؟».

وضعت يدها في يده الممدودة، تحاول التحكم بعضلات فمها كي لا تستجيب لابتسامته المعديّة ولم تفلح بالطبع:

- «وهذه مشكلتي معك.. ثقتي بك تعدت كل الحدود».

- «إذن.. هيا بنا».

أمسكت بيده لينزلا درج الفيلا للطابق الأول... متذكّرة منظرها البائس عندما دخلتها أوّل مرة... بردهاتها المظلمة، وغرفها الخالية من الأثاث إلا من بيوت العنكبوت القابضة للنفس، والآن تحولت لفيلا جديدة بأن يسكن فيها رائف يزن... وعائلته.

كان والداها يجلسان في أحد الأركان يراقبا الجميع برضا وحبور، الصّبيان يركضان بسعادة في كل مكان، عبد الحميد مشغول مع جابر بإعداد الأطعمة. المفاجأة كانت حنين ووليد... لم تصدق عينيها وهي تترك ذراع زوجها،

وتركض باتجاه حنين لتتلاحم الفتاتان بعناق مغمس بالدموع... وقف وليد ورائف يراقبانها برضا.. ابتعدت كروان لتأمل وجه حنين:
- «أنتِ.. بخير... أليس كذلك؟».

هزت حنين رأسها بقوة، ثم أمسكت يد وليد ووضعتها على بطنها قائلة بصوت مختنق بالعبرات:
- «نحن بخير».

وافقها وليد الذي كادت عيناه تلتهمان زوجته بحب:
- «نعم حبيبتى.. نحن بخير».

أخرجت كروان تنهيدة طويلة، وهي تنظر لوليد مطمئنة أخيراً لإحساسه المفعم بالحب لصديقتها، أومأت له بعينين دامعتين:
- «كانت الرحلة قاسية للوصول لهذه النتيجة».

رفع يد زوجته يقبلها قائلاً بتأثر:

- «استحقت كل لحظة عذاب، لأفيق من أوهامي وأقدر النعمة التي كدت أفقدها بغباي، وكدت أفقد معها إنسانيتي».

تنحى رائف:

«أشم رائحة قصة مثيرة هنا، حبيبتى.. هل تخفين عني شيئاً؟».

حدجته بنظرة عتاب:

- «يبدو أنني لست الوحيدة التي أخفي فيها شيئاً ما يا حبيبي، كيف توصلت لتدعو حنين لحفلنا».

أشار لرامي ورائد:

- «هذان هما المتهمان الرئيسيان... أخبراني أن مدام حنين هي أفضل صديقة لزوجتي الحبيبة، فكان لا بد من دعوتها».
أذهلتها المفاجأة:

- «أحقًا... وأنا ظننت أنك ووليد التقيتما من قبل.. لذلك لمر أقدمكما لبعضكما».

أومات حنين ضاحكة:

- «قام رامي ورائد بالواجب... مع بعض التفاصيل التي ضننت بها عني يا صديقتي المفضلة».

احمرت وجنتي كروان:

- «أنا مدينة لك بواحدة، بشرط أن تخبريني كيف وجدك زوجك».

استأذن رائف منهم:

- «عفوًا، هناك أمور لا بد من الاعتناء بها.. سأترككم، مع وعد أن تخبريني بكل التفاصيل فيما بعد... أو ك؟».

- «تمام حبيبي...».

تلقت قلبته من الهواء، واحتفظت بها جوار قلبها... تأوهت حنين جوارها:

- «الله الله... ما كل هذا الحب... أين كان؟».

- «سأخبرك أيتها الفضولية المزعجة...».

تنحى وليد:

- «يبدو أنني أيضًا سأترككما.. جاءني اتصال مهم سألتقاه بالخارج، الشبكة

هنا ضعيفة... أراك بخير حبيبتى... كروان... اعطني بها».

خففت كروان رأسها تهمس في أذن صديقتها:

- «حنين... من هذا الرجل؟».

تأملته بفخر قائلة:

- «هذا زوجي الحبيب... وليد.. ألم أعرفك عليه منذ قليل».

أومأت كروان:

- «لقد فعلت... ولكنني ما زلت لا أصدق.. أخبريني.. ما الذي حدث

بالتفصيل؟».

- «سأخبرك بكل شيء، ولكن بعد أن أبارك لك على الحجاب.. ما شاء الله

ازددت حسناً... يبدو أنني سأرتديه قريباً أيضاً».

- «خير ما تفعلين، مبروك لك مقدماً.. والآن وافيني بالتفاصيل».

- «يا لك من فضولية... أنا أيضاً أرغب بسماع كل تفاصيلك... كيف يصبح

جارك المريض فجأة زوجك، وأبا أولادك... الشقيان اللذان كانا في الأصل

أخويك... قصتك أعقد من قصتي».

- «حسناً، ابدئي أنتِ أولاً... أسرعي أراك متلهفة لإخباري».

- «أنتِ على حق... مرت لحظات ظننت فيها أنني سأفقد كل من اهتم لأمرهم...

أنت، ووليد، وأخي زاهر... كانت أسود أيام في حياتي.

أجمل ما فيها كانت نظرة ماهر عندما عاد ليجدني اختفيت، والسيارة خالية

من وجودي... توجهت بعدها فوراً للبيت».

- «أي بيت؟».

- «بيتي يا كوكي.. بيت وليد، فهو المكان الوحيد الذي لن يبحث عني فيه..

بابا عزت كان يحتفظ بمفتاح شقة أخته التي في نفس العمارة، وهي مسافرة

للخارج، ولا تعود إلا في إجازة الصيف.. اختبأت فيها أنا وزاهر... ظهوره كان سيفسد كل شيء، لذلك كان مضطراً للاختباء معي».

- «لن أنسى مساعدة أصدقائه لإخفاء ماهر وسيارته، كان يستحق هذا الدرس هو الآخر».

تنهدت حنين:

- «نعم... كان لا بد أن يتعلم كل واحد درسه... ووليد كان لا بد أن يتأكد تماماً من مشاعره الحقيقية... إن كان حبه لك حقيقياً أم مجرد تملك، وعناد لرفضك المستمر له... والذي عرفت أسبابه الآن... رائف هذا... كيف سقطت على رجل بهذا الثراء؟».

زجرت كروان بغيرة واضحة:

- «حنين... لنعد لقصتك».

- «حَسناً، حسناً.. كان قد مر على اختفائي أسبوع كامل عندما حدثت المواجهة بين وليد، وبابا عزت...».

شردت بذكرياتها تستعيد ما حدث في الوقت...

دخل عزت على وليد غرفته التي يجلس نفسه فيها منذ ثلاثة أيام... انزعج منه وليد، ولكنه لم يستطع إلا أن يتحمل وجوده بأدب:

- «بابا.. تفضل».

- «بل تفضل أنت، وانفض من سباتك هذا».

- «لا فائدة من حياتي يا بابا.. حنين لم تظهر.. جندت كل قوة الشرطه للبحث عنها... حتى زاهر، وكأنه فص ملح وذاب... لم يعد بيدي شيء لم أفعله، هذا الشعور المرير بالعجز يقتلني».

- «لماذا لم تذهب لكروان.. ربما تجد سلوكا عندها.. أليست هي من تحب؟».

ردد وليد الاسم، وكأنه يتذوقه للمرة الأولى:

- «كروان.. لأول مرة أدرك أنني لم أفكر فيها منذ اختفاء حنين.. حتى عندما بدأت التحقيقات معها.. لم أشعر نحوها بأي شيء... اختفى افتتاني بها... قلقي على حنين استولى على كل مشاعري».

مط عزت شفتيه:

- «هل هذا اعتراف أسمعته؟».

- «وما الفائدة، وقد ضاعت حنين للأبد».

أصدر عزت صوتاً غريباً:

- «ربما ليس للأبد... ربما لبعض الوقت».

شعر وليد وكأن دلوًا مثلجًا انكب على البراكين المتفجرة برأسه، فقفز من فراشه ممسكًا بتلابيب والده:

- «بابا.. هل تعرف شيئًا لا أعرفه؟... بابا.. تكلم قبل أن أنسى أنك والدي، وأخضعك للتحقيق القاسي».

بينما يقهقه عزت، كان وليد يهدد ويتوعد، ثم انقلب لمتوسل حتى رأف بحاله وأعطاه مفتاح الشقة:

- «ما رأيك أن تطمئن على شقة عمته... أشك أن فيها تسريبات غاز».

حدجه وليد بنظرة بلهاء، ثم كرز على أسنانه ملوِّحًا بيده في وجه والده:

- «أنت... أنت... أروع أب في الوجود».

وهمّ بتقبيله فأبعده عزت:

- «ابتعد عني بلحية المساجين هذه... وأنصحك ألا تصعد لشقة عمك بهذا المنظر... الملائكة الساكنون فيها قد يصابون بأزمة قلبية».

وضع وليد يده على لحيته الشائكة ثم هتف:

- «أنت على حق».

سمعت المفتاح يدور في الباب... ظنت زاهر عاد من مشواره... ظلت قلقة بانتظار عودته من لحظة خروجه، بعد أن أقسم لها أنه لن يتأخر ولكنه يرغب بشم الهواء بعد البقاء حبيسًا لأسبوع كامل في الشقة... وقفت تستقبله بالعتاب، عندما انعقد لسانها، وكاد قلبها يتوقف عن الدق من شدة سرعته ووليد يتقدم نحوها بنظرة عتاب ولوم:

- «حبيبتى.. هل استحققت كل هذا العذاب فعلاً... ألم تشفقي عليّ ولو للحظة لتكتفي بعقابي».

لر تصدق ما تسمعه، وهي تقفز إليه يضمها بقوة وقد تشبعت أخيراً بإحساس زوجها نحوها.. هي فقط... ضمها بقوة يئن من فرط شوقه إليها:

- «سامحيني... سامحيني».

هتفت بسعادة من خلال دموعها:

- «أسامحك... ولكن أخبرني حقًا... هل تحبني... أنا.. حين».

قبّل يديها بلهفة:

- «نعم... أحبك أنت... حين... حين قلبي وعمري... يا إلهي كدت أصاب بالجنون... لو لر يخبرني السيد المحترم والدي اليوم... لألقيت نفسي في البحر».

- «سلامتك يا حبيبي».

- «آه، قولها مرة أخرى».
- «كنت أقولها دائماً، ولكنك لم تسمعها أبداً».
- أمسك بيديها ليقبّل كل واحدة على حدة:
- «لأنني كنت.. أعمى، وأصم، وغبي».
- هتفت ضاحكة: «وغبي».
- «لقد قتلها بالمناسبة».
- «لا هذه واحدة خاصة بي.. لأنك غبي يا حبيبي».
- «ولماذا؟».
- «لأنني كنت أعرف من أول يوم أنك لا تحبني... وأنت رغبت بالزواج بي فقط نكايّة بكروان».
- «ولكنك كنت سعيدة جداً».
- «نعم.. سعيدة لأنني معك، وأني قادرة على أن أصل بحبي لقلبك».
- «هل أخبرتك كروان؟».
- «بطريقة غير مباشرة».
- ثم رفعت دبلتها:
- «بواسطة هذه... هل تذكر عندما قدمتها لي... وأنا قرأت لك الكلمات المكتوبة عليها».
- أوماً رأسه بخجل:
- «نعم... إلى حبيبتى حنين».
- خلعت الدبلة وقدمتها له:

- «والآن اقرأ المكتوب».

أدار الدبلة بين أصابعه ثم هتف بارتباك:

- «لا شيء مكتوبًا».

«تمامًا... ولا كلمة... وعندما وافقتني عرفت أنك لم تشتريها.. وأن كروان هي التي أعطتها لك، لم أمانع وقتها، كنت لا أزال احتفظ بالأمل لتحبني، عندما أعطيتني حبوب منع الحمل كانت أول فأس تضربها في أسوار آمالي، والضربة الثانية عندما كنت تخفي وجهي بشعري في لقاءاتنا الحميمة تتخيلني هي».

تنهد بصعوبة:

- «لا أعرف كيف أعوضك».

دفعت له بدلتها وهي تمسح دموعها:

- «هذه البداية.. هات لي واحدة خاصة بي.. وشبكة محترمة... و...».

قاطعها:

- «أنا».

أومأت بخجل:

- «نعم.. أنت».



هتفت حنين وهي تخرج من دائرة الذكريات:

- «وطبعًا تعرفين البقية... عاد زاهر لكليته ليتابع مستقبله من حيث توقف، وتمت معاقبة وليد بخفض رتبته لاستغلاله منصبه، ونقله للوادي الجديد.. وكنا على وشك الانتقال عندما وصلتنا دعوتك.. أما ماهر...».

ضحكت كروان:

- «نعم أعرف... زوجته أصبحت لا تفارقه... في المطعم والبيت».

ضجت الفتاتان بالضحك، عندما عاد وليد ليحيط خصرها بذراعه:

- «هل تسمحين لي باستعادة زوجتي».

- «آه، بالطبع تفضل يا وليد بيه.. وأنا سأبحث عن زوجي لأسأله عن كل هذه

الوجوه الغريبة التي لا أعرفها في بيتي».

أمسكت بذراع رائف أخيراً عندما وجدته:

- «انتظر.. من كل هؤلاء؟».

أجابها ببساطة:

- «صحفيون».

رددت مصدومة:

- «صحفيون... ولكن...».

- «شششش... لقد وصل الملك».

أمسكها بذراعها ونادى على رامي ورائد، ووقفوا في استقبال الضيف الجديد أمام

بوابة الفيلا... نظرت بترقب حتى رآته يخرج من سيارته بكتفيه المحنيين وشعره

الأبيض... شحبت وهمت بالهروب، ولكن يد رائف ظلت متمسكة بها:

- «انتظري... إياك أن تهربي».

أطاعته على مضض، وكل عصب في جسدها ينتفض... استقبلت السياسي

الكبير فلاشات الكاميرات... وقف يصفح ابنه متسائلاً من بين شفثيه

المرسومين وكأنه يتسم:

- «ما الذي يحدث هنا... ولمن نصبت هذا السيرك؟».

- «ومن غيرك يستحق كل هذا الترحيب يا ثروت بيه... تفضل... أولاً اسمح لي أن أقدم لك... زوجتي... كروان... بالتأكيد تعرفها».

حدجه بنظرة قاسية، ومد يده مرغماً لمصافحتها... مدت يدها ككتلة من الجليد بالكاد تلمست أصابعه، همّ بالابتعاد عندما أوقفه رائف بنبرة صوت أعلى:

- «انتظر يا ثروت بيه... أنت لمر تتعرف على بقية عائلتي بعد...».

هتف بحقن يكاد يفقد ملامح الابتسامة المزيفة:

- «أي عائلة تقصد؟».

وقف رائف بين ولديه مشيراً لهما بفخر:

- «ابني رامي ورائد رائف ثروت يزن».

ارتعش جفنا ثروت، وقد تكسرت ابتسامته المزيفة تماماً وهو يجيل النظر بين الصبيين، ثم حدق بابنه:

- «هل فقدت عقلك؟.. هل أنت واع لما تقوم به؟ أنت تنتحر وتجذبني معك للحضيض... لن أسمح لك بأن...».

قاطعته رائف بصوت جليدي:

- «بل أنا الذي لن أسمح لك أن تهدد أمن عائلتي أبداً بعد اليوم، ويكفي أنني لن أحاسبك على ما ارتكبته ضدي، وضد كروان من جرائم، والمال الذي دفعته كي تقتل أولادي قبل أن ينعموا بنور الحياة».

فجأة كشف عن وجهه القميء صائحاً:

- «خطئي أنني لم أفعل هذا بنفسى وتركت المهمة لتلك الغيبة التي فشلت فيها، كما فشلت في الاحتفاظ بك وكما...».

رفع رائف يده مقاطعاً:

- «لقد جئت بك اليوم لتشهد على بدايتي الجديدة... ظننتك ككل جد فخور عندما تراهما، ربما تتصل بالإنسان الذي ضاع منك، ولكن يبدو أنك لا تفهم إلا اللغة الوحيدة التي تعمل بها، لذلك كل ماضيك القدر سأحتفظ به فقط لأمنعك من أذيتي، وأذية أولادي، وزوجتي... وإعلاني أمام كل هؤلاء الصحفيين، لكي يعلم الجميع أن لو أيّ مكروه أصاب أبنائي، حتى لو كان لا دخل لك به... سأسجنك ما تبقى من حياتك البائسة... لذلك أنصحك أن تستأجر حارساً خاصاً لكل واحد منهما، كي يعمل على مدار الأربع والعشرين ساعة على حمايتهما، فوجودك خارج السجن متعلق بأمانهما».

وكان العجوز ازداد عُمرًا فوق عمره وزاد من انحناء كتفيه، وظهره وهو عائد لسيارته... أغلق السائق الباب خلفه واستدار لينطلق بها.

شعر بلمستها الرقيقة، أمسك بيدها على ذراعه وهو يشيع السيارة حتى غابت في الأفق.. تتمم:

- «أنا بخير لا تقلقي».

- «وأنا فخورة بك».

- «ظننته سيتغير عندما يرى رامى ورائد.. كيف لم يشعر بالحنين لضمهما؟.. هو جدهما».

- «امنحه الوقت... ربما بعد أن يتجاوز الصدمة...».

- «أنت... أنت التي تقولين هذا... بعد كل ما حدث منه؟».

- «هو والدك يا رائف... وهذا يكفيني لأسامحه من أجلك».
- ضمّها وطبع قبلة متمهلة على رأسها، ثم هتف مازحًا:
- «والآن أخبريني يا مدام.. ما حكاية وليد بيه، وماهر بيه...؟».
- «وكيف عرفتَ بأمرهما؟».
- «ألا تعرفين أنني أقدر أقرأ أفكارك، ومن عينك أقدر أقول لك كل أسرارك».
- «حكيم روحاني حضرتك... طيب اقرا لي اللي في قلبي واحكي لي عليه».
- «اللي مكتوب فيه بيخوف ما قدرش أحكيه».
- «بيخوف مين».
- صاح رامي ورائد المتابعان للحوار ضاحكين:
- «يخوفنا إحنا يا أستاذ بابا».
- تأمل الولدين:
- «حبييتي.. يبدو أننا تسرعنا في إنجاب هذين الشقيين».
- تعالّت ضحكاتهم إلى عنان السماء الصافية مبشرة بمستقبل صافٍ من الغيوم.
- ضم زوجته بإحدى ذراعيه، وبذراعه الأخرى ضم ولديه بقوة يبثها أمان وجوده، متمنيًا بتنهيدة حب وهفة أن تسكن تلك النظرة القلقة بعيني كروانه... عندما...
- «يا مرسال المراسيل عالضيعة القريبة... خد لي في دربك ها المنديل، واعطيه لحبيبي».
- استرقت نظرة لزوجها من أسفل ذراعه:

- «الست فيروز تناديك».

سألها شاردًا:

- «ماذا...».

أشارت لجيبه:

- «الست فيروز... أممم منذ متى وأنت تضع أغاني الست على تليفونك».

أجلى صوته بنظرة ضاحكة وهو يمد يده ليخرج هاتفه، وفجأة اغتمت ضحكته، فابتعدت متوجسة بقلب خافق:

- «من...؟».

غمغم مطمئنًا:

- «هذه رسالة... من ثروت بيه؟».

ازداد قلبها وجيبًا:

- «وفيم انتظارك؟.. افتح الرسالة».

أطرق بتنهيذة مهمومة:

- «ما من داع.. مؤكداً أنه يهدد ويتوعد كعادته».

تمسكت بكم بذلته برجاء:

- «اقرأ الرسالة يا رائف أرجوك».

- «أما زلت خائفة.. حسناً... اهدئي».

حاولت الاستماع لنصيحته بلا طائل، فقد كانت تشعر باقتراب إصابتها بنوبة قلبية من شدة الخوف، أمسكت بولديها تضمهما بقوة، ورائف يسخر من حركتها، ثم بدأ بقراءة الرسالة... التهمت عيناه كلماتها، وفي لحظة تحولت



سخريته، ولا مبالاته لعرشة، وعرق يتصبب من جبينه، مما زاد من هلعها وهي تصرخ:

- «رائف..».

وضع يده على فمه مرددًا وهو يعيد القراءة بعينين جاحظتين:

- «مستحيل... هذا كذب... كذب... لا يمكن».

أخذت منه الهاتف عندما لم تستطع الاحتمال، التهمت عينها كلمات الرسالة:

- «ربما ظننت نفسك الفائز بمعركتك الصغيرة البلهاء... اعتقدت أن كل الكروت الرابحة بين يديك ولعبت لعبتك الأخيرة بكل ثقة... ولكنك نسيت أنني من علمتك أصول اللعب... والمعلم لا يموت قبل أن يلعب لعبته الأخيرة التي يدخرها دائماً قبل كلمة النهاية..»

من ظننتها ماتت، وتوارت بالتراب ما تزال على قيد الحياة... لا تتعب نفسك، وتبحث عني، عندما تصلك رسالتي سأكون على أبواب طائرتي الخاصة وهي معي... وداعاً.

تمت بحمد الله

كل دعان يخرج من نار... انتظر فقط حتى
تهب رياح تشعل الرمضاء التي ظلتها عامدة...
انفضت بشورة ظلت حبيسة صدرها كبر كان
يغلي أسفل سطحه البارد لسنوات.. ولكن
برمية نرد واحدة انقلبت للوازين، انفجر فجأة
يلقي بحممه المنصهرة في كل اتجاه أحرق كل
أمل وليد بالأمان...

استعرت بهجوم لم يتوقعه:

هل جرئت الشعور أن تعيش مع إنسان عشقه
لدرجة الجنون وهو لا يفكر بك إلا كبديل
باهت لا قيمة له"

نعم... هذا الشعور هو قصة حياتي البائسة منذ
عرفتها ورأيتها وعشقت طيف جداتها...
ولكنها كانت تعيش مع ظلال طيف آخر.